كلمات

□ ١ □

« ان الشارع العام هو ، بالضبط ، المكان الذي نعيش فيه حياتنا ، في هذا القرن . » يضيف الشاعر ـ الناقد « ارشيبالد مكليش » : « لست اعتقد ان اي جيل سالف قد انغمس في الحياة العامة مثلما انغمسنا نحن . » . الشارع العام ، اذن ، هو موقع شاعر القرن العشرين . وفي الشارع العام لا يعود الشاعر صوتا مغلقا . هو ، هنا ، يدخل في التظاهرة الجماعية ، فيما يسمى روح البشرية ، او الوضعية الانسانية . هو ، هنا ، يدخل في روح العصر . للقرن العشرين روحه الخاصة ، وجهه المتفجر بالعنف والحروب والثورات ، وله حركته المتسارعة ، لا في كسر حدود الجغرافيا بين الارض والارض ، بل ايضا في محاولة الغاء المسافة بين الارض والسماء . ما عاد الانسان جزيرة منعزلة ، بل قطرة ماء في محيط الكوكب ، موجة مفتوحة ، متداخلة في حركية الموج الاقصى . هو ، لذلك ، ليس فردا . « ان اهتمامنا قد انصرف لروح البشرية . »

□ ٢ □

انصراف اهتمام الشعر ، والثقافة بعامة ، لروح البشرية ، هو الذي يحدد معنى المعاصرة . وثمة احلام عامة، لا خاصة ، ثمة مخاوف عامة ، لا خاصة . الحركة من الخاص الى العام ، من المفرد الى الجمع ، من المحدود الى الشامل ، تلك هي سمة الفكر في القرن العشرين . هي ، بالتالي ، سمة

الفن ، للانسان المعاصر حساسية ، على الفن أن يتتبع أثرها. يقول « اليوت » : « حين صارت الآلة تدار بواسطة البترول ، تغيرت حساسية الانسان المعاصر . » ، بدءا من ادراك هذه الحساسية يمكن تعريف المعاصرة : ان يعيش الشاعر حالة التغير في حساسية العالم ، وان ينتمي ، موقفا ، الى هذه الحساسية . انا لا اتفرج . انا داخل العالم ، والعالم داخلي ، انا في قلب العالم . انا ، لذلك ، جزء مما يحدث ، انا ما يحدث . من علاقة انتماء الى علاقة توحد ، يدخل الشاعر في شمولية المكان والزمان ، عبر رؤية متكاملة لحركة التاريخ.

□ ٣ □

الرؤية الناقصة تقدم فنا ناقصا .

كثير من أدب هذا الزمان يدخل في هذا التعريف . يواكبه ، بالضرورة ، نقد ناقص . هذا النقد ، نصف المبصر ، هو الذي يطفو على سطح المشهد . مثلما ، على السطح ذاته، يطفو زبد الكتابات التي لا تمكث في الارض . ان الشعر ، الا اقله ، يتناءى عن منابعه ليصير مجرد كلام .

رئيس التحرير

هل يمكن الاحتكام إلى الرأي العام الاميركي..؟

نديم البيطار

الثورة الفلسطينية في الطريق الصعب

د. هيثم الكيلاني

هل يمكن الاحتكام إلى الرأي العام الاميركي..؟

نديم البيطار

في عام ١٩٦٣ اعددت دراسة بعنوان « ازمة الدعاية العربية في اميركا » ، قدمت الى حكومتين عربيتين آنذاك ، حللت فيها طبيعة النظام السياسي ـ الايديولوجي الاميركي ، وخلصت من ذلك التحليل الى القول إنه ما دام هذا النظام قائما فانه يستحيل علينا احداث اي تغيير مهم في سياسة هذا النظام الصهيونية تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، ولهذا نصحت بسحب

مكاتب الاعلام العربية من اميركا وتوزيعها في آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، لان هذه المناطق تمر بمرحلة انتقالية مماثلة للمرحلة التي ر فيها ، وبذلك تكون منفتحة لإدراك قضيتنا وتأييدها (١) .

مرور عشرين سنة منذ ذلك التاريخ زادني قناعة علمية ودلل بشكل اضافي على صحة ما خلصت اليه في تلك الدراسة . إن ممارسات السياسة الاميركية في مجرى هذه المدة الطويلة وخضوعها المستمر لسياسة اسرائيل المتزايدة عدوانية وتوسعية ، كانت تدل باستمرار على صحة ما توصلت اليه تلك الدراسة .

ابتداء من تلك الدراسة رددت في مناسبات عديدة أن هذا الواقع ـ اي خضوع سياسة اميركا الخارجية في الشرق الاوسط للارادة الصهيونية بسبب طبيعة نظامها السياسي الايديولوجي نفسه يعني بالنسبة لنا ـ إن أردنا أن نكون مستعدين في معركتنا ضد الاحتلال الصهيوني ـ الاميركي لفلسطين ـ لمجابهة جامعة مع الولايات المتحدة ، وهي مجابهة مفروضة علينا ، لا يمكن التهرب منها ، ولكنني في الوقت نفسه كررت أن اداة هذه المجابهة الاولى والاساسية التي لا يمكن لنا دونها الانتصار أو خوض هذه المجابهة بأية فاعلية هي دولة الوحدة ، أو خطوات كبيرة في الطريق اليها ، وأن التوحيد السياسي يجب أن يكون الطريق الى التحرير ! . .

★ ★ ★

بعد مرور ٣٥ سنة من العمل دون فائدة لكسب أو تحييد الكونغرس أو الحكومة الاميركية بالنسبة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي ؛ كان يجب

(١) هذه الدراسة نشرت آنذاك في « دراسات عربية » ، عدد حزيران ، ١٩٦٥ . جريدة « الثورة » البغدادية نشرتها ايضا كسلسلة من المقالات في يوليو ، ١٩٦٥ . في عام ١٩٨٠ ، أعادت صحيفة « الخليج العربي » نشرها من جديد .

علينا الاعتراف بأن طبيعة النظام السياسي الايديولوجي الاميركي هي نهائيا المسؤولة عن سياسة اميركا الصهيونية ، وأن أي تغيير مهم لهذه السياسة يفترض تغييراً جذريا سابقا في بنية هذا النظام السياسية والايديولوجية . فعندما تعيد ظاهرة معينة ذاتها رغم تغير المسؤولين ، والحكومات والقيادات التي تصنع السياسة الخارجية ، ورغم تغير الاوضاع التاريخية والدولية التي تحيط بهذه السياسة ، لا يمكن إرجاعها الى إرادة ، او اخطاء ، او انتهازية بعض الافراد او الحكومات ، بل يجب ارجاعها الى طبيعة النظام نفسه ، لان استمرارية النظام هي وحدها التي تستطيع انذاك تفسير استمرارية الظاهرة .

بدلا من ذلك استمرت المؤسسات العربية الرسمية والشعبية ، ما عدا القليل منها ، في « المنطق » البالي القديم ، « منطق » العمل على تحييد او كسب الكونغرس او الحكومة الاميركية عن طريق الحوار والاقناع ، او المصالح المتبادلة ، متجاهلة اي دروس ٣٥ سنة تدل ، إن هي دلت على شيء ، بأن المجابهة وليس الاقناع ، هي السبيل الوحيد المفتوح امامنا (٢) .

ولكن الآن نواجه توكيداً جديداً على نغمة هي ، في الواقع ، قديمة ، يعترف فيها بانه لا يمكن الاتجاه الى الكونغرس بسبب خضوعه للنفوذ الصهيوني ، وانه بدلا من ذلك يجب الاتجاه الى الراي العام في اميركا وكسبه كطريق الى تغيير أو تعديل سياستها الصهيونية . ولكن الاعتباطية العلمية التي ميزت الاتجاه الاول الى الكونغرس هي التي تميز هذا الاتجاه أيضا .

---

(٢) هذه الدروس تدل ببداهة مماثلة ايضا ان المجابهة تفرض التوحيد ، وان كل مجابهة دون هذا التوحيد هي مجابهة فاشلة .

هذا القول لا يدرك طبيعة وحدود الراي العام ـ اي راي عام ـ ، طبيعة الراي العام الاميركي ، علاقته بالنظام الانتخابي ـ السياسي الذي يعمل فيه ، بالمواطن الاميركي الذي يعبر عنه ، مقوماته واوضاعه الخاصة. الحقائق والوقائع الموضوعية التالية تكشف عما نعنيه وتدل انه لا يمكن الاعتماد على الراي العام الاميركي في تغيير سياسة الكونغرس والحكومة الاميركية الصهيونيـة .

١ ـ إن اول واقعة يجب على الارجح إدراكها هي ان السياسيين ، وليس الناخبين ، هم الذين يقررون ، حتى في الانظمة الديمقراطية الغربية ، سياسة الدولة والقضايا والمشاكل التي تواجهها ، كثيرون من المفكرين السياسيين الكبار في الغرب ، ابتداء من باريتو ، وموسكا ، وميشالز ، وانتهاء بمجموعة حديثة كبيرة ، اشاروا الى ذلك وحللوا ما يترتب على هذه الحقيقة من نتائج .

عندما نتكلم عن الراي العام واثره يجب ، من ناحيـة اخرى ، ان لا نتجاهل الواقعة التالية ، وهي ان هذه الانظمة الديمقراطية تعني لجانا ودوائر عديدة جداً ، تتميز كل واحدة فيها بحياة خاصة بها . « إن اعضـاء او ادوات الادارة الحكوميـة ، كـوزارة الخارجيـة ، وكالـة الاستخبارات المركزية ، والبنتاغون ، تميل فعلا الى تنمية إرادة خاصة بها ، الى نوع من الاستقلال الذاتي ؛ إن ولاء الموظفين الافراد يتجه فعـلا الى التركز على دائرتهم الخاصة كما تتركز على الامة ، وهو يتجه أولا ، على الارجح ، الى دائرتهم » (٣) .

(3) Raymond Aron , the Imperial Republic , Prentice - Hall 1974, P : 970

عندما نقول ان السياسيين والاحزاب يمثلون مصالح طبقية ، فاننا نؤكد في احسن الحالات نصف الحقيقة ، النصف الآخر ، وهو لا يقل اهمية ، هذا إن لم نقل أكثر اهمية ، يتضح لنا عندما ندرك ان السياسة « مهنة » أو « نشاط » يفرز مصالح خاصة به ــ مصالح قد تتناقض ، كما قد تنسجم ، مع مصالح الجماعات التي يمثلها الحزب او الفرد .

الرغبات العامة والقدرة على تنفيذها شيئان متمايزان تماماً ، لان النظام السياسي او السلطة السياسية التي تعبر عنه تتميز بديالكتيك خاص بها يتابع طريقه بشكل مستقل الى حد كبير عن تلك الرغبات او هذه السلطة . كل نظام سياسي يتميز باتجاهات اساسية تخرج عن الارادة الفردية ، والقيادات السياسية تعجز عن تعديل الاتجاه السياسي الاساسي بأي شكل مهم في الاوقات العادية .

٢ ــ الشكل الديمقراطي يتجه ، عن طريق قرارات تتخذها الاكثرية ، الى طرح الطريقة التي يجب أن تحل بها مشكلة ما ، او انتخاب ممثلين يقررون ، حسب إدراكهم وميولهم ومفاهيمهم ، صورة حل المشاكل والقضايا التي يعالجونها . إنه لا يمثل نموذج معرفة معينة ، او يفترض مستوى معينا من المعرفة العلمية بين الذين يمثلونه ، إنه فقط طريقة في اختيار الذين يقررون باسم المجتمع ، وبصرف النظر عن معرفتهم للقضايا التي يجب عليهم معالجتها او اتخاذ قرار بشأنها .

أميركا ديمقراطية تمثيلية ، وهذا يعني نظريا أن الشعب يستطيع السيطرة على النظام السياسي عن طريق انتخاب ممثلين صالحين ، مخلصين ، وقادرين على صنع ما يراه الشعب ضروريا للمصلحة العامة . ولكن إن كان هؤلاء لا يتميزون بالمعرفة الضرورية ، أو إن كانوا فاسدي الاخلاق والسلوك ، فليس من رأي عام أو قانون يستطيع تصحيح أو تغيير الوضع . القانون او الراي العام لا يستطيع ان يكون بديلا عن المسؤولية

والأحكام الجيدة بين ممثلي الشعب . الامة ليست امة قوانين صالحة او فاسدة والمجتمع لا يتشكل من قوانين جيدة او سيئة ، بل من رجال ونساء صالحين أو غير صالحين لنظام سياسي معين . الخير لا يتحقق عن طريق قوانين او رأي عام يدعو اليه ، والاعتماد على القوانين في تحقيق المصلحة العامة ، أو على الرأي العام في خلق سلوك صالح بين ممثلي الشعب ، لا يقود في ذاته ابدا الى النتائج التي يبغيها .

كل نظام سياسي يوفر امثلة لا تحصى على ذلك . إن رؤساء الولايات المتحدة كانوا ، مثلا ، يفوزون بالانتخابات في الرئاسات القليلة السابقة باسم برنامج يدعو الى ميزانية متوازنة ، ولكنهم كانوا يتركون السلطة في عجز مالي اكبر من الذي كان قائما عند توليهم السلطة . الرئيس الحالي مثل بارز على ذلك . إن مدينة نيويورك كانت تعمل منذ عدة عقود من السنين في ضوء قانون يفرض ميزانية متوازنة ، ولكنها واجهت منذ بضع سنوات ازمتها المالية التي كادت تؤدي الى اعلان افلاسها . القانون والرأي العام لم يمنعا حدوث عجز تراكم وقاد الى تلك الازمة . نفس الازمة تواجه حاليا ولايات اخرى رغم القوانين والرأي العام فيها .

٣ ــ القول بالرجوع الى الرأي العام واقناعه يعني ضمنا على الاقل مفهوما يرى أن الناس عقلانيون في سلوكهم ، يعملون في ضوء العقل والمصالح العقلانية وليس تبعا للمشاعر والمصالح الخاصة . الناس يستطيعون ولا شك ممارسة درجة معينة من العقل الموضوعي والانتقادي ولكنها ليست كافية لتحرير السلوك من المشاعر والمعتقدات الاعتباطية واشكال التزمت المختلفة التي تسيطر عليه ، وهي عندما تكون متوفرة فانها تتجه الى خدمة هذه المشاعر والمعتقدات والاشكال ، وليس العدالة ، والقانون ، والاخلاق ، او حتى المصلحة العامة العقلانية او البعيدة المدى.

من السذاجة الكبرى والفريدة الاعتقاد بأن الخطب الاخلاقية ، والحجج العقلانية ، الابتسامات ومصافحة الايدي ، أو حتى الوقائع

الموضوعية ، يمكن أن تحدث تغييراً مهما في علاقات الدول . إن العلاقات التي تتحدد بنوازع وميول لا واعية اغلب الاحيان ، او بمصالح جماعية وطبقية تخضع لمفاهيم إيديولوجية معينة ، إي لمشاعر وخصومات قومية هي من صنع التاريخ وليست صنع العقل ، الخ . . .

القول إنه عن طريق الحوار العقلاني وباسم العدالة وتقديم الوقائع والمعطيات الموضوعية التي تدعم الموقف العربي يمكن كسب الراي العام الاميركي وبالتالي تغيير سياسة الكونغرس والحكومة الصهيونية ــ هذا القول يشكل اغلوطة عقلانية كبيرة من اغاليط العقلانية المتفائلة .

إن لويد فيري ، وهادلي كانتريل كتبا في كتابهما « معتقدات الاميركيين السياسية » ، وهو كتاب صدر في الستينات ، يقولان : « إن أكثرية الاميركيين لا تزال محافظة على الصعيد الإيديولوجي ، اي انها لا تزال تدعو الى ضبط وكبح السلطة الاتحادية . ولكن اكثرية الشعب الاميركي كانت ، من ناحية أخرى ، ليبرالية ، اي أنها تؤيد البرامج الحكومية في تحقيق مقاصد اجتماعية . إنهما يخلصان الى القول بأن الاميركيين يتميزون ، بعبارة بسيطة ، بانفصام في الشخصية السياسية . فهم محافظون من ناحية إيديولوجية وليبراليون من ناحية عملية .

المؤلفان يستعرضان سلسلة من هذه النتائج المتناقضة التي كشفت عنها الاستفتاءات العامة . إنهما وجدا مثلا أن ٧٩ ٪ يوافقون و ١٢ ٪ فقط لا يوافقون على القول التالي : « يجب علينا الاعتماد بشكل اكبر على المبادرة الفردية وليس كثيراً على برامج الخدمات الاجتماعية الحكومية » . ولكن في نفس الوقت ، نجد أن ٧٢ ٪ من هؤلاء يوافقون، و ٢٠ ٪ فقط لا يوافقون على القول التالي : « الحكومة الاتحادية مسؤولة عن إزالة الفقر من هذه البلاد » . هذا النوع من التناقض كان يعيد ذاته سنة بعد أخرى وحول نفس النوع من السؤالات .

ظواهر كهذه ، وهي النوع الذي يتحكم بسلوك الناس ، تدل بوضوح على أن العوامل التي تتحكم بالراي العام ليست عقلانية . دراسات الراي العام في اميركا كشفت بوضوح ، من ناحية اخرى ، عن قدرة الناس على تجاهل الافكار والوقائع والعلاقات العقلانية التي تتناقض مع ميولهم ورغباتهم .

٤ ـ الشعب الاميركي يتميز بدرجة عليا من الامراض العقلية والنفسية ، من ناحية ، ومن الامية من ناحية اخرى ، تزيد كثيراً من صعوبة ، هذا إن لم نقل استحالة ، الاتجاه اليه في ضوء الحجة العقلانية او المعطيات الموضوعية التي تحيط بمشكلة ما .

التقديرات العلمية تدل « أن واحداً من كل خمسة اميركيين مصاب بمرض عقلي ما . عدد ذوي الامراض العقلية يزيد ، في الواقع ، على عدد جميع المصابين بالامراض الاخرى كلها . هناك سبعة ملايين من السكيرين المدمنين ، وهذا العدد هو المعروف فقط . وهناك ملايين عديدة اخرى من المدمنين على المخدرات ، من المسكنات الى الهيروين . إن عدد الافراد الذين اصبحوا عاجزين عن أن يكونوا على مستوى الحياة او مواجهتها ، بلغ درجة وبائية » (٤) .

ويقول مونتاكو بعد أن ينبه بأننا « نقف على حافة الهلاك لان الامراض العقلية اصبحت مزمنة بيننا ، ومدشنة كطريقة في الحياة » ، « أنه يجب علينا ان نتساءل إن كانت القدرة العقلية للرجال الذين يشغلون المناصب العليا ، ويؤثرون في حياة الملايين الاخرى ، ملائمة لمراكزهم في ثقافتنا ؟.. يجب علينا أن ندرك إن كان المواطنون الذين يجعلون من الممكن لاشخاص

(4) T. and G. Boggs , Revolution or Evolution in the Twentieth, Century, Monthly Review Pren, 1974, pp ; 200 - 201

كهؤلاء بأن يحققوا نزوعهم الى السلطة ، ليسوا مرضى كالذين ينتخبونهم !. » (٥) .

اما من حيث الامية فهناك ٢٥ مليون اميركي لا يعرفون القراءة والكتابة في الولايات المتحدة . هناك ايضا ٣٠ مليون اخرى على حافة هذا النوع من الامية . من ناحية أخرى ، هناك الى جانب الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ٧٢ مليون اميركي لا تتجاوز قدرتهم على القراءة والكتابة مستوى السنة الخامسة في المدرسة الابتدائية .

هذه الامية تستثني اصحابها من اي حوار عقلي وعلمي حول قضية سياسية تتطلب درجة ما من الدراسة والمطالعة .

٥ ـ الاتجاه الى الراي العام يستطيع أن يكون فعالا في تغيير او إحداث تحول فيه في وجهة معينة عندما يتمكن ، اولا ، من الاعتماد على اتجاهات وقوى اجتماعية او ثقافية تستجيب له ، وثانيا ، عندما يستطيع ان يفيد من التغيير الذي قد يتمكن من إحداثه بالتاثير في النظام السياسي الذي يريد تغيير سياسته .

إن القضية العربية لا تجد اتجاهات وقوى من هذا النوع في المجتمع الاميركي ، يمكن اعتمادها في التوجه الى الراي العام . إن الهيمنة على وسائل الاعلام نفسها لا تستطيع تامين الراي العام الى جانبها إن كانت القوى والاتجاهات الاجتماعية لا تستجيب لها .

الصحافة الالمانية ، مثلا ، لم تكن في يد الحركة النازية عندما استطاعت هذه الحركة ان تصل الى السلطة عن طريق البرلمان والانتخابات

(5) Ashley Montogu : The Humanization of Man Grove Pren, 1962, p ; 93

البرلمانية ، فقد نالت بمفردها ٤٠ ٪ من مجموع الاصوات بينما وزع الباقي بين ما يقارب الخمسين من الاحزاب والتشكيلات السياسية المختلفة .

٦ ـ إن مبادئ الحق والعدالة والقانون الدولي لا تقنع أو تكسب الراي العام الاميركي او اي راي عام آخر . فالحاضر الذي يحرك المواطن الاميركي هو المصالح الخاصة .

ومادام المواطن الاميركي لا يرى ان هذه المصالح مهددة بسياسة اميركا الصهيونية ، وما دامت علاقاته بالمؤسسات الصهيونية المختلفة في اميركا واليهود الاميركيين توحي له أن مصلحته تتأثر اولا بهذه العلاقات ، وطالما ان الضعف العربي السائد لا يستطيع تغيير ذاته وإلحاق الاذى الكبير بهذه المصالح ، وطالما ان الاميركي لا يدرك ان هذا الاذى يعود ـ عندما يحدث ـ الى سياسة اميركا الصهيونية وليس الى « جشع » العرب و « لؤمهم » كما حدث نتيجة أزمة الطاقة في السبعينات ، فان الراي العام الاميركي لا يمكن ان ينفتح لقضية العرب أو يتجه نحوها .

٧ ـ الناخبون يصوتون عادة لمرشح ليس بسبب إدراكهم له ولبرنامجه ، بل لانهم يكرهون او يرفضون المرشح أو المرشحين الآخرين . كثيرون من الذين انتبهوا الى هذه الناحية دللوا عليها في در ساتهم أو تعليقاتهم الصحفية .

« الميول الاميركية تجاه الشرق الاوسط عكست تحيزاً شعوريا قويا تجاه إسرائيل ، وفي نفس الوقت كراهية عميقة للعرب ، وريبة بهم ، بشكل جعل من غير الممكن سياسيا للحكومة الاميركية أثناء العقد الماضي ان تعمل على تحقيق حل عادل او معقول للنزاع العربي ـ الاسرائيلي . العرب يوصفون بازدياد كالعدو رقم واحد ـ كسبب التضخم المالي ،

والازمة الاقتصادية ، وكخطر على حياة الغرب ، وكهدف لعمل عسكري إن هم حاولوا « خنق » الغـرب » (٦) .

هنا تجدر الملاحظة العابرة بان الخطأ في قول كهذا هو الإيحاء بأنه لولا هذه الكراهية للعرب لكان بمقدور الحكومة الاميركية تصحيح سياستها تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي ! قول كهذا يتجاهل طبيعـة النظـام السياسي التي تنفتح للسيطرة التي تمارسها الصهيونية عليه ، وهـي سيطرة تستمر حتى وإن حلت مشاعر اخرى إيجابية بدلا من تلك المشاعر السلبية تجاه العرب ، لانها ترتبط ببنية النظام نفسه .

٨ ـ اهتمام الناخبين بالسياسة ضعيف ومعرفتهم بقضاياهم او إدراكهم للمشاكل التي تواجهها محدود جداً ، إن الدراسة الاميركيـة الكلاسيكية حول « الناخب الاميركي » عبرت عن ذلك بالشكل الآتي : « إن مستوى الانتباه السياسي بين جمهور الناخبين ككل منخفض الى درجة يجب معها ان يكون ما يتعرض له هذا الجمهور مرئيا بشكل كبير إن اريد له ممارسة أثر في الراي العام » .

ما يحدث هو أن عدداً غير محدود من الناخبين يبدأون من درجـة الصفر في الانتخاب . كل ما يملكونه هو مشاعرهم المتزمتة حول القضايا التي يطرحها ، والتي تعبر عن مؤثرات مهنية اثنية ، عنصرية ، جنسية ، جغرافية ، او غيرها . إنهم يلقون نظرة خاطفة على المرشحين عـن طريق التلفيزيون أو المذياع أو عن طريق نتف من المعلومات ، غير الصحيحة عادة ، والتي تصلهم عن طريق اصدقاء أو جيران . الناخب يرتب مختلف المرشحين في ضوء هذه المشاعر والمعلومات الضحلة ، ثم يرفض منهم الذين

(6) **David Nes: American Public Opinion and Israel. Middle East International , June 1975 .**

لا ينسجمون معها . العملية المماثلة لتلك هي التي يصل بها الفرد الى نظام قيمه ، اي رفض بعض القيم بغية الوصول الى قيم مقبولة وإيجابية ، البحث المستمر عن الهوية يبدو ، هكذا ، كعملية سلبية كما هي الحال في موضوع الهوية السياسية . الدفع السلبي يتقدم عادة على الدفع الايجابي (٧) .

« لهذا كانت ذاكرة الناخبين السياسية ضعيفة جداً . « السياسيون البعيدو النظر ينبذون ، في الواقع ، وعودهم الانتخابية بأسرع وقت ممكن بعد استلام مناصبهم ، لان ذلك يعطي الناخبين الذين وثقوا بهم فرصة ينسون فيها خيبتهم قبل بداية الانتخابات القادمة (٨) .

السياسيون يعدون باستمرار اثناء الانتخابات بوعود مختلفة لا يحققونها ، ولا يستطيعون تحقيقها ، ولكن الناخبين يعيدون انتخابهم .

« الآباء المؤسسون » للجمهورية رأوا ، رغم خوفهم من الديمقراطية ، أن انتشار المعلومات الصحيحة بشكل واسع يشكل احسن علاج لأية مشاكل يمكن للديمقراطية ان تخلقها . ان ماديسون نفسه ، وكان اكثرهم حذرا ، كتب ، يقول : « ان حكومة شعبية دون معلومات شعبية ، او وسائل الحصول عليها ، تكون مقدمة فقط لمهزلة او لمأساة ، ومن الممكن للاثنتين . ان شعبا يرغب بأن يكون الحاكم الخاص لذاته يحتاج لأن يسلح نفسه بالقوة التي تعطيها المعرفة فقط »(٩) .

(7) **Stephen I̦aacs ; Jeus and Finerican Politics . Doubledoy and Co . 1974 , P. 145 .**

(8) **Russell Baker : Rattling the Chains , the New York Tnies , Qugust 21 , 1982 .**

(9) **Arthw Schlesingr ; the Inperial Presidency , Popular Libray, P ; 318 .**

ان الشعب الاميركي لم يحقق من ناحية عامة هذا الشرط قط ، وكان افراده يزدادون جهلا سياسيا مع الوقت ، ولا مبالاة فكرية بالقضايا التي تواجه المجتمع والدولة . ولكن ما هو اسوأ من ذلك هو أن مندوبيه وممثليه في الحكم كانوا يشاركونه هذا الجهل المتزايد ، وخصوصا في السياسة الخارجية . « ان الكونغرس كان ، منذ جيل ، جاهلا الى حد كبير بالسياسة الخارجية لانه فضل أن يكون جاهلا . فقد كان من الأحسن ان لا يكون مسؤولا . الاصوات التي يمكن خسارتها بدعم الرئيس في القضايا الخارجية كانت قليلة ، ولكن ان ساءت الامور وكانت السياسة الخارجية خاطئة ، فان المسؤولية تكون مسؤولية الرئيس »(١٠) .

هناك ، في الواقع ، موقف سلبي تجاه القراءة والمطالعة ليس فقط في الاوساط العادية ، بل في الاوساط الفكرية التي يفترض فيها ان تجعل من القراءة والمطالعة عملا يوميا او مهنة لها ، وأعني بذلك أوساط المدرسين ، ومن المدرسين الجامعيين ، كثيرون من هؤلاء نبهوا الى ذلك . انني قرأت مرة مقالا في النيويورك تايمز حول احتمال تعيين السناتور وليام فولبرايت ، الذي كان رئيس « لجنة الشؤون الخارجية » في مجلس الشيوخ ، كوزير للخارجية ، قال فيه الكاتب بأن أحد الاسباب التي تحول دون مصادقة هذا المجلس على ذلك كان نظرة اعضائه اليه كـ « مفكر » بسبب انشغاله بالمطالعة !..

الممارسات السياسية والانتخابية في الديمقراطيات الحديثة « أخذت منذ مدة طويلة تثير الشكوك في الديمقراطية نفسها كنموذج نظام سياسي ممتاز على نحو ما كان يقوله مؤسسوها الاولون ، فمنذ ابتداء دراسات الانتخابات الحديثة بالظهور ، اخذ الشك يتسرب الى هذا المفهوم . النقد يتركز أساسيا على اللامبالاة المدهشة التي يكشف عنها الناخبون ، فهناك

(10) I bid : P. 355 .

ليس فقط عدد قليل نسبيا من الناخبين الذين يغيرون رأيهم بين انتخاب وآخر ، ولكن الناخبين يكشفون عن جهل تام بالقضايا المطروحة ، ولا يظهرون اهتماما بهـذه القضايا التي يفترض اتخاذ قرارات حولهـا . هـذا يمثل انحرافا واضحـا عن النموذج التقليـدي حـول المشاركة الديمقراطية .. »(١١)

هذه ظاهرة تعترف بها بوضوح السوسيولوجيا السياسية حاليا . الاختلاف هو ، عند وجوده ، حول النتائج التي تترتب عليها وليس حول الاعتراف بها .

٩ ـ القول بالرجوع الى الراي العام الاميركي يعني ان الناس يقدمون المصلحة القومية على مصالحهم الخاصة ، يرتبطون بها في تحديد هـذه المصالح ، ويتجاهلون الثانية عندما تتناقض مع الاولى . بعض الناس يحققون هذا ؛ ولكن اكثرية الناس الساحقة ـ وخصوصا في الاوقات العادية ، اي الاوقات التي لا يجابه فيها المجتمع أزمات ومخاطر خانقة تهدد وجوده أو حريات مواطنيه مباشرة ـ تنطلق من مصالحها الخاصة وتدور حولها في تحديد موقفها من السياسة .

ان المواطن الاميركي يمحور حياتـه على الاستهلاكيـة وليس علـى الايديولوجية ، هذه الاستهلاكية توجه الناس بشكل اضافي قوي الى الانشغال بحياتهم ومصالحهم الفرديـة والخاصة بعيدا عن السياسة والتسييس ، « فالناس يعيشون حياة آنية ، يوما فيوما وبشكل يبدو قادرا على تعويضهم في المدى القريب عن الحياة التافهة التي يحيونها»(١٢).

(11) **W. G. Runciman : Cocial Science and Political theory Combridge University pren, 1965, p : 91**

(12) **Aloin Gouldner : The Future of Intellectals and the Rise of the New Class, The Seabury pren, 1979 p : 89.**

ولاء الاميركيين للنظـام « يتم عن طريق منافع الراسمال التي تعني أن الديمقراطية الاستهلاكية اهم من الديمقراطية السياسية ... » التوسع الراسمالي « يعني هنـا ان النمو الاقتصـادي ... سيخنق المطالب الديمقراطية عن طريق اغراقها في بحر من الادوات الآلية ... »(١٣) .

١٠ ـ الرجوع الى الراي العام الاميركي والاحتكام اليه يعني أيضا أن وسائل هذا الاحتكام او الرجوع اليه ، اي وسائل الاعلام متوفرة بشكل متساوٍ ، موضوعي وغير متحيز لوجهة النظر العربية من ناحية ، ولوجهة النظر الاسرائيلية ، من ناحية اخرى ، هذا امر لا يتوفر ابدا ، أو حتى من بعيد . فهذه الوسائل ، من التليفزيون الى المذياع ، ومن السينما الى المسرح ، ومن الصحافة الى دور النشر . تؤيد اساسيا وجهة النظر الاسرائيلية وتتركز على الانتصار لها .

* * *

هذا النقد العـام الذي يشير الى خطأ الاعتماد على الراي العام في الولايات المتحدة في تصحيح أو تغيير سياسة اميركا الصهيونيـة تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي يدل علـى ذاته اساسيا في ثلاث حقـائق موضوعية كبرى ، وهي أولا ، عجز هذا الراي ، عند وجوده ، عن التأثير في سياسة الكونغرس . ثانيا ، الجهـل السياسي الذي يميز جمهـور الناخبين الاميركيين (وقد ألمحنا اليه فيما تقدم) . ثالثا ، استمرار الراي العام الاميركي في تأييد اسرائيل بشكل رتيب رغم التحولات التي حدثت في المنطقة العربية ، رغم أهميتها المتزايدة للمصالح الاميركية ، رغم البترول العربي الذي يشكل شريان الحياة للاقتصاد الاميركي والغربي ،

---

(13) Alan Wolfe : The limits of Legitimacy, The Free pren, 1977, p: 237

ورغم الجهود المتواصلة ليس فقط من قبل الحكومات العربية ومكاتب الاعلام العربي ، بل من قبل الكثير من الهيئات الاميركية التي كانت تعمل منذ عام ١٩٤٨ على طرح قضية العرب وعدالتها امام الشعب الاميركي ولكن دون جدوى .

عجز الراي العام الاميركي تجاه الكونغرس وسياسته :

ان أكثر الجماعات الضاغطة (Fressure groups) أو اللوبيات (lobbies) نجاحا في التاثير في الكونغرس ، تمثل اقليات ، وهي تفرض عليه قرارات وتشريعات تعترض عليها اكثرية الاميركيين او لا تبالي بها . ان استفتاءات الراي العام تكشف ، مثلا ، ان ٧٠٪ من الاميركيين يحبذون شكلا من اشكال التقييد الشديد لامتلاك المسدسات ، ولكن « جمعية البندقية الوطنية » استطاعت حتى الآن ان تقوم بنشاط ناجح يمنع ذلك ويحول كل ما يصدره الكونغرس في هذا الشأن الى قرارات دون معنى(١٤) .

في تعليق حول ما اسماه « لغز النظام السياسي الاميركي الذي لا يعمل والذي رغم ذلك يعمل جيدا » . يكتب المعلق الاميركي المعروف ، جاك اندرسون ، « انه فيما يتعلق بمسألة صغيرة كمسألة تقييد وضبط انتشار المسدسات نجد ان جماعة ذات مصلحة واحدة ذات موقع قوي ـ « كجمعية البندقية الوطنية » ـ تستطيع ان تخذل الراي العام كما يتمثل في استفتاءات متوالية، وانه فيما يتعلق بقضية كبيرة كالشؤون الخارجية، نجد ان اقلية من ٣٤ سناتور في كونغرس من ٥٣٥ عضوا ، تستطيع

(14) Russell Howe and Sarah Trott : The Power Peddles Doubleday and Co. 1977, p: 5

دستوريا ان تنقض (Veto) معاهدة كمعاهدة « سالت » الثانية (SALT II) حول تجميد سباق التسلح الذري »(١٥) .

هناك على الارجح اكثرية اميركية تؤيد تأمينا صحيا وطنيا ، « وتأمينا دون خطأ » على حوادث السيارات ، هي اكبر من الاكثرية التي تريد تشريعا يضبط ملكية المسدسات ويقيد شراءها . ولكن الاول يواجه معارضة « لوبي » الاطباء ، والثاني معارضة « لوبي » المحامين ، وهما لوبيان قويان جدا ، نجحا حتى الآن في منع المصادقة عليهما في معظم الولايات . ان هذا يعني المحافظة على وضع يموت فيه مرضى اميركيون من قلقهم حول الفواتير الطبية اكثر مما يموتون من مرض السرطان ، كما كتب احد المعلقين .

ان جمعية وكلاء بيع السيارات المستعملة التي تبرعت بمبلغ ٨٥٠٠٠ دولار لأعضاء الكونغرس في هذه الانتخابات (نوفمبر ١٩٨٢) ، استطاعت ان تقتل مشروعا قدم الى الكونغرس ، يفرض عند المصادقة عليه ، بان يكشف هؤلاء الوكلاء عن انواع الاعطال الموجودة في السيارة عند بيعها(١٦) . المجلس التمثيلي صوت بأكثرية ٢٦٦ ضد ١٣٣ ، ومجلس الشيوخ بأكثرية ٦٩ ضد ٢٧ في رفض هذا المشروع . معظم المناقشة دارت حول نتائج الضغوط التي قام بها « لوبي » وكلاء بيع السيارات الذين قاوموا هذا القانون . ان احد اعضاء الكونغرس ، توبي موفيت ، صرح بأن هذه النتيجة « تقول أشياء كثيرة حول فساد الحياة السياسية بسبب التبرعات الانتخابية » ، والح على الاعضاء الذين تسلموا هذه التبرعات من وكالات بيع هذه السيارات بالامتناع عن التصويت ، مقترحا

(15) Jack Adderson : The American Political Paradof Detroit Free pren, 1/25/81

(16) Time, October 25, 1982

بأن تسمية القانون تكون اكثر انسجاما مع الواقـع ان كانت « قانون الكونغرس المستعمل »(١٧) .

ان كانت قوة « اللوبي » تستطيع تخريب الديمقراطية ومعارضة الراي العام بنجاح حول قضايا داخلية تهم كل فرد تقريبا ، فليس من الغريب ان يمارس « اللوبي » الصهيوني سيادته على الكونغرس كما يريد في السياسة الخارجية التي يعبر قليلون من الاميركيين عن راي خاص حولهـا .

ان اكثرية الناس في اميركا لا توافق ، مثلا ، بأن تستخدم الحكومة الاتحادية الضرائب التي تجمعها من المواطنين في تمويل الاجهاض عنـد الطلبة ، النقابيـة الاجباريـة ، سيطرة الحكومـة على التعليـم ، النقل الاجباري للتلاميذ الى مدارس معينة ، « الكوتا » الاثنية في العمل ، حركة النساء الراديكالية ، ولكن الحكومة تعطي هذه القضايا ملايين الدولارات كمساعدة .

الكونغرس وافق على اتفاقية سيناء عـام ١٩٧٥ على الرغم من ان البريد الذي كان يتسلمه من المواطنين الاميركيين كان باكثريته الساحقة ضدها ــ ستة لواحد ، او ٩٠٪ تقريبا ضدها .

في عام ١٩٦٩ دلّت الاستفتاءات الامريكية ان الاكثرية السـاحقة من الشعب الاميركي كانت ضد الحرب في فيتنام ، ولكن الحرب استمرت رغم ذلك لبضع سنوات اخرى .

ان اكثرية الشعب الاميركي (٦٦٪) تريد بقوة الاحتفاظ بالتشريع الحالي في حماية الوسط الطبيعي ، ثم ان ٤٥٪ تقول بأن العمل على

(17) The New York Times, 27 May, 1982

تحسين هذا الوسط يجب ان يستمر بصرف النظر عن التكاليف . آخر استفتاء اجـرته مؤسسة هاريس كشف عـن أن ٨٠٪ يعارضون اي استرخاء في قانون حماية نقاء الهواء ، « ولكن ادارة الرئيس ريغن الحالية كانت تقوم بكل ماتستطيعه في الانحراف عن هذا التشريع ومناقضته»(١٨).

وكشف استفتاء اجرته النيوزويك بين اليهود الاميركيين انفسهم في أواخر ١٩٨١ ان ٥٣٪ يعتقدون ان سياسة بيجن تسيء الى اسرائيل في الولايات المتحدة ، وان ٦٩٪ قالوا بأنه يجب على بيجن اعادة النظر في معارضته الشرسة للتفاوض مع منظمة تحرير فلسطين(١٩) .

وعلى الرغم من ان الراي العام كان ولا يزال ضد دعم الحكومة الاتحادية المالي لزراعة الدخان ، فان الكونغرس كان يصادق باستمرار على هذا الدعم .

وهؤلاء الذين يريدون تجميد التجارب النووية والتسلح الذري يشكلون اكثرية كبيرة في الولايات المتحدة ، ولكن الكونغرس والبيت الابيض لا يعملان تبعا لهذا الراي العام . ان مؤسسة هاريس اجرت استفتاءا في ٢٢ ابريل ، ١٩٨٢ ، حول انتاج الاسلحة الذرية ، فكانت النتيجة ان ٦٦٪ يعتبرون ان هذا الانتاج غير اخلاقي .

ان الاستفتاءات كشفت ان ٢ من ٣ من الاميركيين ، اي ٦٦٪ يؤيدون تعديل الدستور بشكل يؤمن المساواة بين النساء والرجال ، ولكن التعديل لم يحدث .

---

(18) John Oskes : Reagan is still not blamed for damage Detroit Free Pren, November 4, 1981

(19) News Week, September 14, 1981

ان استفتاءات الراي العام في ١٩٧٩ دلت ان هناك معارضة قوية لسياسة « السلم الاميركية » في الشرق الاوسط ، وذلك بسبب المساعدة العسكرية الضخمة التي كان على اميركا تقديمها لاسرائيل ومصر . ولكن ذلك لم يغير هـذه السياسة . وفي استفتاء حول هـذه المساعدة كان المؤيدون يمثلون فقط واحدا من كل خمسة اميركيين .

وفي استفتاء عام ١٩٧٨ حول مشروع كارتر في بيع كمية كبيرة من الاسلحة تساوي ٥ مليارات دولار تقريبا لاسرائيل ، ومصر والسعودية ، تبين ان الشعب الاميركي يرفض هذا البيع بأكثرية ٦٦٪ ضد ٢٦٪ يؤيدونها . ولكن لم يمنع هذا المشروع .

٥٤٪ عارضوا بيع طائرات الرادار الى العربية السعودية ، و ١٩٪ فقط كانوا يؤيدونه ، ولكن الحكومة باعت هذه الطائرات الى السعودية .

وعلى الرغم من عدم شعبية المساعدة العسكرية ، فان الاكثرية الساحقة من الكونغرس كانت باستمرار تؤيد مساعدة كهذه لاسرائيل . ان استفتاءا حديثا وجد ، في الواقع ، ان ٦و٦٧٪ من اعضاء الكونغرس يشعرون انه يجب تخفيض المساعدة العسكرية الخارجية ، (٢و٢٪ فقط راوا انـه يجب زيادتها ، و ٨٥٪ يعتقدون ان معظم او كـل المساعدة الاميركية الخارجية يجب ان تكون في شكل اقتصادي وليس كمساعدة عسكرية . ولكن المساعدة العسكرية لاسرائيل لم تستمر فقط ، بل كانت تزداد مع الوقت(٢٠) .

في استفتاء اجرته النيوزويك في ١٣ اغسطس ، ١٩٨٢ ، اي في قمة الغزو الاسرائيلي للبنان ، تبين ان ٦٦٪ تقريبا استنكروا هذا الغزو ،

---

(20) Marvin Fewr Werger : Congren and Israel. Green Wood Pren, 1979, pp. : 186, 132

وان ٤٣ ٪ راوا انه يجب على الولايات المتحدة ايقاف ارسال اية اسلحة الى اسرائيل ، هذا على الرغم انه فيما يتعلق بأزمة الشرق الاوسط ككل بقي الراي العام ثابتا في تاييده لاسرائيل ، ولكن الحكومة الاميركية ـ وبشكل خاص الكونغرس ـ لم يتخذا اية خطوة جدية في الضغط على اسرائيل من اجل الانسحاب او التوقف عن غزوها .

وبعد إعلان الرئيس ريغن عن مشروعه السلمي في بداية سبتمبر ، ١٩٨٢ ، كشف استفتاء بأن ٦٤ ٪ يعتقدون انه يجب على اسرائيل قبول المشروع ضد ٢٣ ٪ قالوا بانها يجب ان لا تقبله . ولكن مرة اخرى لم تتخذ الحكومة ـ وخصوصا الكونغرس ـ اية خطوة جدية في الضغط على اسرائيل بالانسحاب من الاراضي التي احتلتها عام ١٩٦٧ رغم ان المشروع يؤكد على ذلك .

الراي العام الدولي تحول ابتداء من السبعينات واصبح ضد اسرائيل ، ولكن ذلك لم يؤد الى اية نتائج ايجابية في تغيير سياسة اميركا الصهيونية .

جامعة نورثوسترن في ولاية البناي اعطت درجة شرف جامعية الى بيجن على الرغم بأن اكثرية الطلاب الساحقة صوتت ضد ذلك .

هذه الامثلة المختلفة ـ وهي تشكل في الواقع ظاهرة يومية في الحياة السياسية الاميركية ـ تدل بوضوح انه حتى عندما يوجد راي عام يمثل اكثرية الشعب حول مشكلة او قضية ما ، فذلك لا يعني ابدا ان هذا الراي يفرض سياسة تنسجم معه . إنها تعني ان الراي العام يتعارض مع مصلحة « جماعة ضاغطة » او لوبي قوي ، يكون دون قيمة سياسية .

هذا يعني في دوره انه حتى ان استطاع العرب كسب الراي العام الاميركي للقضية العربية ، فان هذا لا يعني ابدا انه سيترجم ذاته في تغيير

السياسة الاميركية تجاه النزاع العربي ـ الصهيوني ، لان هذا الراي يصطدم بنفوذ اللوبي الصهيوني المهيمن على الكونغرس ، وبالتالي يكون عاجزا عن تجاوزه .

★ ★ ★

الجهل السياسي الذي يميز الجمهور الاميركي :

بعض الامثلة تكفي في ايضاح ما نعنيه بهذا الجهل . اننا نجد مثلا على ذلك في درجة الجهل التي يتميز بها الراي العام الاميركي اثناء مطاردة جمهور كبير من الاميركيين بتهمة الشيوعية اثناء المرحلة الماكرثية في اوائل الخمسينات ، عندما كان السناتور جوزف ماكرثي واعضاء « لجنة التحقيق في النشاطات اللااميركية » التي كان يراسها يلاحقون ويحققون مع آلاف عديدة بتهمة الشيوعية ـ قسم كبير من هذه التحقيقات التي استمرت أربع سنوات وامتدت الى جميع دوائر الحكومة ، والجامعات ، والصحافة ، والسينما ، الخ .. كان ينقل على شاشة التلفيزيون وفي الراديو . ولكن في قمة تلك « الهستيريا » والتحقيقات وجد أحد الباحثين الاميركيين ان ٣٠٪ من الجمهور الاميركي كانوا عاجزين عن ذكر اسم واحد بين اسماء الاعضاء الذين كانوا يحققون في قضية الشيوعية الداخلية(٢١).

كثيرون آخرون أشاروا الى الاثر الضعيف الذي سجلته تلك « الهستيريا الشيوعية » في الراي العام الاميركي اثناء تلك المرحلة . « فالمشاحنة كانت حادة ومريرة وجامعة على مستوى النخب المثقفة او الاوساط الحكومية والفكرية ، ولكن قسما كبيرا مدهشا من الاميركيين

(21) S. A. Stouffer: Communion, Conformity and Civil Siberties, 1955

كان جاهلا بها . هـذه المشاحنة حول الشيوعية الداخلية توفر مثـلا كلاسيكيا عن صراع مهلك بين هذه النخب ، ولكن دون أن ينتبه اليهـا قطاع مدهش من الجمهور العام »(٢٢) .

وعند حدوث الانشقاق بين يوغسلافيا والاتحاد السوفياتي ، وخروج تيتو على ارادة ستالين ، وفي ابان المعركة بـين الطرفين جرى استفتاء للشعب الاميركي ، يسأل ، فيما يسأله ، « من هو تيتو ؟ » .. ثمانية في المائة فقط استطاعوا الاجابة على هذا السؤال ، على الرغم من أن اميركا كانت ترسل آنذاك مئات الملايين من المساعدة الاقتصادية ليوغسلافيا ، وعلى الرغم من أن أخبار تيتو وخلافه مع ستالين كانت تحتل عناوين الصحف لمدة اسابيع .

في عام ١٩٦٤ جرى استفتاء سئل فيه الاميركيون ما هو نوع النظام السياسي الذي يسود في الصين ، أو هل يعلمون بوجود حكم شيوعي في الصين ؟.. ٢٨ ٪ عجزوا عن الجواب ، ٣٩ ٪ لم يعرفوا بوجود حكومة الصين الوطنية(٢٣) . هذا على الرغم من أن اميركا كانت متحالفة مع هذه الحكومة منذ سنوات عديدة في حربها ضد الثورة الشيوعية ، وعلى الرغم من أن سقوط الصين بين أيدي الشيوعيين هز اميركا ونظامها هزة عنيفة كان من نتائجها المرحلة الماكرثية نفسها .

ولقد كتب جورج كينان ، « عميد » الديبلوماسيين الاميركيين ، عام ١٩٧٧ ، انه بعد مرور ثلاثين سنة على الخصومة بين ستالين وتيتو ، وانشقاق يوغسلافيا عن الاتحاد السوفياتي، نجد اننا مضطرون، وبشكل

(22) David Apter, ed, : Ideology and Discontent. Free pren , 1964, p : 32

(23) Time, December 25, 1964

لا يصدق ، بأن نؤكد ان يوغسلافيا لا تخضع للسيطرة السوفياتية ، ولا تنتمي الى حلف وارسو(٢٤) .

في استفتاء اعلنت عنه الـ « ابي سي » في نشرة اخبارها في ١٦ سبتمبر ١٩٨٢ ، وكان حول موقف الشعب الاميركي من رئاسة ريغن ، تبين ان ٥٠٪ لم يسمعوا بعد بمشروع السلم الذي قدمه كحل للنزاع العربي ـ الاسرائيلي في اول سبتمبر ، رغم ان الصحف والاذاعات كانت تتكلم عنه يوميا طيلة اسبوعين ونيف .

ان جو فرانكلين ـ تروت ، الصحافية التي تعمل في برنامج « ماكنيل ليهرير » الذي يقدم تحاليل يومية حول الاخبار والاحداث السياسية ، قالت في مقابلة،اثر تقديمها لبرنامج تليفزيوني حول «العربية السعودية»، « عندما كنا نقدم برامجنا اثناء الازمة الايرانية (ازمة الرهائن الاميركية) كان علينا ان نفسر في كل عرض بأنه يوجد دين يدعى الاسلام يمارسه ٨٠٠ مليون في اربعين بلدا ، هذا على الرغم من انه يفترض في الجمهور الذي يستمع الى برنامج « ماكنيل ـ ليهرير » بأن يكون اكثر ثقافة ومعرفة من المعدل الوسط ... وعلى الرغم من ان الاميركيين كانوا يجابهون اسعار بترول عالية وازمة الرهائن الاميركية في ايران ، فـان معرفة اكثريتهم المحدودة بالمنطقة مدهشة حقا »(٢٥) .

ان بعض الاستفتاءات دلت ان اكثر من ٣٠٪ لا يعرفون شيئا عـن العلاقة بين التدخين وامراض القلب ، أن ٥٠٪ تقريبا من جميع النساء لا يعرفن ان التدخين اثناء الحمل يزيد من خطر الاجهاض ، وأن ٢٠٪

(24) G. R. Urban, ed, : Eurocommunism, Untverse Books, 1978, p : 206

(25) Detroit Free Pren, October 26, 1978

لا يعرفون ان التدخين يسبب السرطان(٢٦) ، هذا على الرغم من أن الحديث عن هذه العلاقة بين التدخين وهذه النتائج كان حديثا يوميا تقريبا في الصحف والاذاعات والتلفزيون لمدة عشرين سنة .

المعلقة المعروفة فلورا لويس لاحظت ، « اننا نتكلم عن حكم الاكثرية، ولكن احد التقديرات لعدد الناخبين الذين صوتوا في الانتخابات الاخيرة يوم ٤ نوفمبر ، ١٩٨٢ ، حدد هذا العدد بـ ٣١٪ من مجموع الناخبين . بعض التقديرات الاخرى كانت اعلى ، ولكنها كانت اقل من ٤٠ ٪ . ليس هناك من بلد آخر يستطيع الذين يحكمون فيه اعلان شرعيتهم على اساس تأييد ٢ فقط من كل ١٠ ناخبين(٢٧) .

من ناحية أخرى « مايعرفه السياسيون ايضا هو أن قرارات التصويت ليست عادة نتيجة قبول حماسي لايديولوجية المرشح . ان اكثرية الناخبين في اية انتخابات لايعرفون شيئا مهما عن المرشحين ، وغالبا لايعرفون حتى اسماءهم . ففي عام ١٩٧٣ ، مثلا ، سأل « معهد ايفلتون للسياسة » في جامعة روتجيرز ، عينة من الناخبين في ولاية نيوجرسي حول معرفتهم للمرشحين الذين كانوا يحاولون الحصول على المصادقة على ترشيحهم من قبل احزابهم في انتخابات حاكم للولاية . بين الذين قالوا انهم يحصلون على معظم معلوماتهم من الصحف ، كان هناك ١٠٪ فقط يعرفون هوية اكثر من مرشح واحد . واحد من ثلاثة فقط كان يستطيع تسمية مرشح واحد . بين الذين قالوا ان التليفيزيون يشكل اهم مصدر سياسي

(26) A. Sulzberges : Smoking Warnings Called Ineffective, The New Yark Times, May 22, 1981

(27) Flora Sewis : TV, Money and Votes, The New York Times, November 5, 1982

لمعلوماتهم كان ٤٪ فقط قادرين على تعيين هوية أكثر من مرشح واحد(٢٨) .

ان احدى المؤسسات الصحفية في ولاية بانسلفانيا قدمت ٥ دولارات لكل من يعرف اسم اثنين من المرشحين في دائرة انتخابية اختارتها لهذا الغرض ، بين ١٢٠ فردا طرح عليهم هذا السؤال في ثلاث مراكز تجارية ، تبين أن ٦ فقط استطاعوا تسمية اثنين(٢٩) .

هذا الجهل ليس حديث الظهور،بل هو عميق الجذور في الديمقراطية الاميركية . قبل انتخابات ١٩٤٦ ، اربعة من خمسة في فلادلفيا ، مثلا ، لم يعرفوا اسماء مرشحي الحزبين الرئيسيين لمقعد في مجلس الشيوخ الفيديرالي ، ولحاكم الولاية ، وبعد الانتخابات كان نصف الناخبين فقط يعرفون اسم الناجحين(٣٠) .

هذه هي فقط بعض الامثلة التي تكشف بوضوح عن ابعاد الجهل السياسي الذي يميز جمهور الناخبين الاميركيين . السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : كيف يمكن الاتجاه الى الراي العام الاميركي وطرح القضية العربية امامه طرحا عقلانيا ان كان الشعب الاميركي في هذه الحالة من الجهل أو اللامبالاة السياسية ؟ « الشعب الاميركي » كما لاحظ ميلز في الستينات ، « لا يشكل حاليا جمهورا سياسيا وهو يتميز الآن باللامبالاة السياسية اكثر من اي وقت مضى »(٣١) .

(28) Stephen Isaacs : of Cit . pp : 144-145

(29) Time, November 15/82

(30) L. Rogers : The Pollsters, 1948

(31) C. Wright Mills : The leauses of World War Three Ballantine Books, 1960, p : 46

هذا يعني ، من ناحية اخرى ، حرية الكونغرس بأن يعمل ما يشاء تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي ـ وهو يعمل دائما ما يريده « اللوبي الصهيوني » الذي يسوده ـ وذلك بسبب غياب الجمهور السياسي الواعي الذي يستطيع ان يراقب ، يضبط ، يوجه ، ويحاسب .

استمرار الراي العام الاميركي في تاييده التقليدي لاسرائيل .

الاميركيون كانوا يؤيدون تقليديا اسرائيل ضد العرب ، وهذا التأييد لا يزال على حاله منـذ ١٩٤٨ . ان مؤسسة هاريس اجرت استفتاء في اواسط عام ١٩٧٥ كشف ان ٤٢٪ من الاميركيين يؤيدون اسرائيل مقابل ٥٪ يؤيدون العرب(٢٣) .

اسئلة تقتصر فقط على قضية ارسال الاسلحة الى اسرائيل كشفت عن موقف مماثل . ففي استفتاء آخر اجرته مؤسسة هاريس عام ١٩٧٥ تبين ان ثلثي الشعب الاميركي يؤيدون ارسال الاسلحة الى اسرائيل بينما كان عدد الذين يؤيدون ارسالها الى العرب يقتصر فقط على خمس الشـعب(٣٣) .

في استفتاء اجرته مؤسسة غالوب في اواسط ١٩٧٦ تبين أن ٦٥٪ من الاميركيين يعبرون عن موقف ايجابي تجاه اسرائيل ، و ٢٥٪ فقط عـن موقف سلبي(٣٤) .

لويس هاريس ، مدير مؤسسة هاريس لاحصاء الراي العام ، يكتب في مقال بعنوان « الراي العام يتحول تجاه وجهات النظر الاسرائيلية » ،

(23) The Near East Report , 19, 1973

(33) Harris Survey, April 10/75

(34) Gallup Opinion Inde , No . 136 , November , 1976

بأن الاميركيين لا يقبلون المطلب العربي بانسحاب اسرائيل من جميع الاراضي المحتلة بعد حرب ١٩٦٧ ، لا يؤيدون قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية ، ويرون أن الضجة التي ثارت حول المستوطنات الاسرائيلية الدينية في الاراضي المحتلة كانت مضخمة . ثم يشير بأن ٩٪ فقط يريدون اسرائيل بأن تنسحب الى حدود ١٩٦٧ ، و ٢٢٪ يشعرون بانه لا يجب على اسرائيل أن تتنازل عن اي جزء من هذه الاراضي المحتلة(٣٥) .

في استفتاء اجرته النيويورك تايمز ، وال « أ بي سي » في عام ١٩٧٨ مع الذين يهتمون بشؤون الشرق الاوسط فقط ، تبين بأن عدد الاميركيين الذين يؤيدون اسرائيل انخفض من ٥٤٪ في اكتوبر ١٩٧٧ الى ٤٣٪ في ابريل ، ١٩٧٨ ، ولكن تأييد العرب كان ثابتا تقريبا ، ٢٧٪ في اكتوبر ، و ٢٩٪ في ابريل .

في استفتاء آخر اجرته مؤسسة غالوب بعد بضعة اشهر تبين ان هناك بين الذين سمعوا بالوضع في الشرق الاوسط او قراوا عنه ، ٤٧٪ يقولون بانهم لا يتعاطفون مع اي جانب في النزاع . ٤٢٪ يقولون بانهم يتعاطفون مع اسرائيل ، و ١١٪ يقولون بأنهم يتعاطفون مع العرب(٣٦) .

هذا يدل ان التعاطف مع العرب انخفض من ٢٩٪ الى ١١٪ في مجرى بضعة اشهر .

في استفتاء اجرته مؤسسة هاريس في ابريل ، ١٩٧٨ ، تبين « ان الاميركيين يتخذون حول معظم القضايا الاساسية ، مواقف غير بعيدة من المواقف التي تتخذها اسرائيل »(٣٧) .

---

(35) L. Harris : Public Opinion Tilts Tow and Israeli views , Detroil Free Pren, January 26/78

(36) Detroit Free Pren, September 6/78

(37) Detroit Fre Pren, October 26/78

في استفتاء اجرته مؤسسة هاريس في اوغسطس ١٩٧٩ ، تبين ان ٧١٪ يتعاطفون مع اسرائيل وليس مع منظمة تحرير فلسطين في النزاع القائم بينهما ٨٪ فقط كانوا يؤيدون المنظمة(٣٨) . ولكن من ناحية أخرى، تبين في استفتاء سابق اجرته النيويورك تايمز بالتعاون مع « سي بي اس » ان نصف الاميركيين تقريبا بين الذين سمعوا بمنظمة تحرير فلسطين يعتقدون ان الولايات المتحدة يجب ان تتفاوض معها(٣٩) .

هذه الامثلة من الاستفتاءات كافية في ابراز الواقعة التالية ، وهي ان تأييد الراي العام الاميركي لاسرائيل استمر بشكل قوي رغم جميع التحولات والاحداث ، التي وقعت منذ عام ١٩٤٨ ، رغم العدوانية التوسعية التي مارستها اسرائيل عبر هذه السنين والتي كانت تزداد حدة واستهتارا بالراي العام الدولي ، رغم ظهور « قوة » البترول العربي وحرب اكتوبر ، الخ . .

هذه الاستفتاءات كانت تدل ، علاوة على ذلك ، على الواقع التالية :

١ ـ ان اقلية محدودة من الشعب الاميركي كانت تهتم باحداث الوطن العربي،النزاع العربي الاسرائيلي،او تعرف اي شيء مهم حول ذلك. « على الرغم من أن الصراع العربي الاسرائيلي كان دائرا منذ اكثر من ثلاثين عاما ، وقاد الى اربعة حروب ، فان اكثرية الاميركيين لم توجه انتباهاً يذكر الى تطورات الشرق الاوسط ... ان جزءا يسيرا نسبيا من الشعب الاميركي يتابع عن كثب احداث الشرق الاوسط »(٤٠) .

٢ ـ هذه الاستفتاءات كانت تدل بأن اي ارتفاع في درجة التعاطف مع العرب ، وخصوصا مع مصر (التي كانت في بداية الثمانينات تنال قدرا

---

(38) Detroit Free Pren, August 27/78
(39) The New York Times, November 8/79
(40) M. Fewer Werger : of Cit. p. : 87

اعلى من بيجن واسرائيل) « لم يكن يحدث على حساب التأييد لاسرائيل . هذه الاستفتاءات تدل أن التأييد الاميركي لاسرائيل بقي ثابتا . ففي عام ١٩٧٦ كان ٥٢٪ يقولون انهم يقفون الى جانب اسرائيل ، وفي عام ١٩٨٠ كانت نسبة المؤيدين لاسرائيل ٥٢٪ ايضا »(٤١) .

٣ ــ رغم غزو لبنان ، تدمير مدنه في بيروت والجنوب ، ورغم القتل الجماعي للمدنيين عن طريق القصف المستمر الخ . فان تأييد الراي العام الاميركي لاسرائيل بقي كما كان . فعلى الرغم من النقد الكثيف ، في الواقع ، للغزو الاسرائيلي الذي قامت به الصحافة وحتى شبكات التليفيزيون الكبرى ، فان الاستفتاءات التي جرت اثناء ذلك كانت تدل ان الراي العام الاميركي لاسرائيل استمر عاليا جدا .

ان استفتاء أجرته مؤسسة هاريس في قمة التدمير الاسرائيلي لبيروت دل ان ٧٣٪ يعتبرون ان اسرائيل حليفا قويا او صديقا للولايات المتحدة ، ضد ١٦٪ فقط من الذين انكروا ذلك .

واستفتاء آخر اجرته « الواشنطن بوست » بالتعاون مع « ابي سي » وجد ان تعاطف الراي العام الاميركي مع اسرائيل انخفض قليلا جدا ، من ٥٥٪ في بداية مارس ، الى ٥٢٪ في أواسط اوغسطس ١٩٨٢ ، بينما التعاطف مع العرب بقي ثابتا كما كان ، ١٨٪(٤٢) .

ان تفسير هاريس نفسه لوقائع استفتاءاته يشير بأنها تدل على درجة بسيطة من الانخفاض في تأييد اسرائيل في الايام الاخيرة من محاصرة بيروت

(41) **Jack Germond and J. Witcoveri Detroit Free Pren, October 8/8**

(42) **Detroit Free Pren , August 25 , 1982**

ولكن ليس على انهيار هذا التأييد كما أوحت الصحف(٤٣) .

« رغم وجود قلق في اميركا حول الاحداث التي وقعت حديثاً في الشرق الاوسط ، فان هذا القلق لم يحدث اي اثر ابدا في الدعم الاميركي الحالي والاخلاقي لقضية امن اسرائيل ... ان ادوار ساندرز ، الذي كان الصلة بين البيت الابيض اثناء رئاسة كارتر وبين الهيئات اليهودية، قال : « يجب التمييز بين تأييد اسرائيل وتأييد بيجن ، لاشك أن بيجن جعل من الصعب على الذين كانوا يؤيدون اسرائيل بأن يتمسكوا بموقفهم، ولكن رغم ذلك هناك اجماع فيما يتعلق بأمن اسرائيل »(٤٤) .

٤ ــ عندما كانت نسبة تأييد العرب ترتفع قليلا ، كان ذلك يعود الى كون هذا التأييد يرتفع بين المفكرين الجامعيين ، والذين يهتمون بشؤون الشرق الاوسط . أما من حيث الرأي الاميركي العام ، فانه « كان باستمرار يؤيد اسرائيل ضد العرب بهامش واسع . هذا التأييد العام لاسرائيل شجع ، كما يبدو ، موقفا مناصرا لاسرائيل في الكونغرس، طالما ان هذا الموقف لا يعني تقديم قوات عسكرية . هذا التحليل يعني انه بما أن اليهود يناصرون مساعدة اسرائيل بشدة كبيرة ــ بينما اكثرية الشعب الاميركي الغير يهودية لا تلتزم بوجهات نظر قوية حول الموضوع ــ فان دعم اسرائيل كان يعمل بوضوح لصلحة الكثيرين من اعضاء الكونغرس الانتخابية »(٤٥) .

(43) J. Germond and J. Witcvoer : Poll Results Won't Erasc New U. S. - Israel Tensions. Detroit Free Pren, August 25/82.

(44) T. Germond and T. Witcover : Begin still has support where it Counts the Most , Detroit Free Pren , November 22, 1982

(45) M. Fewer Weyer : of Cit. p : 89

ان « صورة » العربي في الراي العام الاميركي ازدادت بشاعة مع الوقت . في عام ١٩٨١ اجرت مجلة « ميدل ايست جورنال » استفتاء عاما كشف ان ٤٤٪ ، من الذين اجابوا عليه ، يرون ان العرب « برابرة وقساة » ، ٤٩٪ يرون انهم « غادرين ومحتالين » ، و ٥٠٪ وصفوهم ك « مولعين بالحرب وسفاحين »(٤٦) .

* * *

هذه الوقائع والحقائق عالجت موضوع سياسة اميركا الصهيونية من زاوية واحدة ، ولكن كي يكتمل البحث ونحقق ادراكا علميا متكاملا حول طبيعة هذه السياسة واسبابها البعيدة يجب معالجة الموضوع من زوايا اخرى لا تقل اهمية ، وخصوصا طبيعة تركيب الكونغرس بغية تفسير السيطرة التي تمارسها الصهيونية عليه .

ولكن حتى وان افترضنا « المستحيل » وكان بامكاننا كسب الراي العام الاميركي لقضيتنا ، فذلك لا يعني ابدا ، كما اشرنا سابقا اي تعديل صحيح لسياسة اميركا الصهيونية . كسب الراي العام يحتاج ، علاوة على ذلك ، معالجة الضعف العربي ، ودون هذه المعالجة لا يمكن له ان يقود الى النتيجة التي نبغيها منه وهي تغيير سياسة اميركا الصهيونية . ولكن الحقيقة الموضوعية هي انه دون هذه المعالجة لا يمكن لنا كسبه ، وان صرفنا الف مرة اكثر مما تصرفه حاليا ، الحكومات ومكاتب الاعلام العربية في اميركا ، ولو جمعنا في خدمة ذلك اهم الكفاءات الفكرية العربية والاميركية المعاصرة لنا ، بل اهم الكفاءات الفكرية في العالم !.

الوقائع والحقائق التي اشرنا اليها تكشف بوضوح ان الاتجاه الى الراي العام الاميركي لا يمكن ان يقود الى اية نتيجة يمكن ان تعدل

(46) Detroit Free Pren, November 2, 1981

سياسة اميركا الصهيونية ، وان كـل محاولة في هذا السبيل هي اضاعة للوقت وبعثرة لجهود وطاقات يجب ان تبذل في صعيد آخر : معالجة الضعف العربي .

ولكن معالجة هذا الضعف يعني أولا وقبل كل شيء وفوق كل شيء ، معالجة التجزئة المتزايدة والتجزء ، وقيام دولة الوحدة ، او على الاقل تحقيق خطوة او خطوات كبيرة نحوها ، تمتد على الاقل الى الاقطار ، او بعض الاقطار ، المحيطة بالارض المحتلة . كل قول بتجديد الحيـاة العربية ، وبخلق انسـان او مستقبل عربي جديد ، دون دولة الوحدة كاطار سياسي ــ مادي له ، قول اعتباطي .

يجب ان ندرك ان الاحتلال ليس احتلالا صهيونيا فقط ، بل هـو في الواقع احتلال اميركي ــ صهيوني ، وان مجابهة الاحتلال تعني مجابهة شاملة حاسمة مع اميركا . ليس هناك من حل آخر ، من طريقة اخرى، فهذه المجابهة مفروضة علينا لا نختارها ، ولم نخترها ، وهي تفرض علينا تعبئة جميع مواردنا وطاقاتنا ، ولكـن هناك اداة واحدة اولـى ورئيسية لهذه التعبئة : دولة الوحدة . لقد ان لنا ، بعد تجارب مريرة مهينة تمتد الى ٣٥ عاما ، ان ندرك الحقيقة الواضحة وهي ان التحرير يعني التوحيد ، وان التوحيد هو الطريق الى التحرير . كل استراتيجيات اخرى لا تنطلق من هذا الموقع الوحدوي هي اضاعة وتبذير لجهودنا ، وطاقاتنا ، واوقاتنا ، في مكان غير مكانها .

انني في الواقع ، اذهب الى ابعد من ذلـك واقوى إن قيـام دولة الوحدة او حتى خطوات كبيرة نحوها يجعل التحرير ممكنا ومحتملا جدا دون معركة أو معارك عسكرية ولان ثقلها المادي والسياسي الدولي يكفي اذاك في تفجير التناقضات الداخلية التي تموج بها اسرائيل فتمزقها ، وفي فصم علاقتها مع الولايات المتحدة ، قاعدتها العسكرية والماديةوالسياسية

القول باللجوء الى الراي الاميركي يشكل طريقا اخرى في التهرب من مجابهة هذه الحقيقة . فهو اسهل بكثير من مجابهة التحديات والتضحيات الجمة الكبيرة التي تترتب على النضال الوحدوي في طريق دولة الوحدة . الطريق الاولى لا يتطلب اية جهود تؤذي ماديا وسياسيا القائمين بها ، ولكن الطريق الثانية تتطلب تجاوز العربي لذاته ــ وهو اهم التحديات الانسانية ــ ونقاء نفسيا وفكريا يعيش فيه الوحدوي فكرة الوحدة كأساس لوجوده ذاته ، كقاعدة تتمحور عليها هويته وذاته نفسها ، فيقيس كل شيء ، ويحكم على كل شيء في ضوئها ، ويرى أن ما يخدمها هو الخير ، وما يسيء اليها هو الشر . انه نقاء « الاطفال » الذي يحول الوحدوي الى قديس يرى سعادته الاولى في التنازل عن كل شيء ، المال ، والمركز ، والراحة ، والسلطة ، الخ .. ان كان ذلك يخدم دولة الوحدة . انه نقاء الشهداء الذي يشعر بغبطة روحية كبرى في الاستشهاد من اجل دولة الوحدة ...

الى هذا النقاء ادعو الوحدويين العرب .. فالانزلاق المستمر في الاقليمية والذي يهدد بأن يكون نهائيا لا ينفع فيه شيء فيما بعد ، يتطلب هذا النوع من النقاء ، نقاء المقاومة له . ففي توفر بعض هذا النوع من النقاء في الطلائع الوحدوية يمكن ان تحقق دولة الوحدة ، وعندئذ فقط تتحقق لنا اداة التحرير ، اداة استرجاع وحماية الكرامة العربية التي كانت تداس تحت اقدام المحتل كل يوم ولمدة ٣٥ عاما ، اي قول اخر هو في قناعتي كذب على انفسنا ، على الشعب العربي ، حماقة فكرية ، أو انحلال اخلاقي .

الثورة الفلسطينية في الطريق الصعب

د. هيثم الكيلاني

تكاد الثورة الفلسطينية تكون فريدة في نوعها بين ثورات التحرر الوطني في التاريخ المعاصر . وتأتي فرادتها هذه من صفات رئيسية التصقت بها ولازمتها، هي بالذات،دون غيرها من الثورات التحررية الاخرى في العالم ، حتى لقد اصبحت تلك الصفات جزءا لا يتجزأ من الثورة الفلسطينية ، فلا هي قادرة على الانفصال عنها ، ولا هي مستطيعة ان تتجاوزها .

وان هي فعلت ذلك ، وجدت نفسها امام صعوبات معقدة جمة . ومن هنا تتعرض الثورة الفلسطينية الى مختلف عوامل القهر التي تشابكت وتجمعت أمام الثورة ، فسدت عليها بعض السبل حينا ، واحاطت بها حتى حاصرتها وحدّت من تحركها حينا آخر .

لعل الصفة الاولى التي لازمت الثورة الفلسطينية ، وما تزال تلازمها، هي أن الثورة نمت في خارج الارض المحتلة ، أي انها لم تنم وتكبر على الارض ذاتها حيث يوجد العدو ، بالرغم من ان الثورة ولدت ونمت وكبرت من اجل تلك الارض ، وفي سبيل تحريرها واستعادتها ، لانها هي الوطن الفلسطيني ، ولا بديل عن هذا الوطن . ويعني هذا انالتناقض بين المستعمر (بكسر الميم) ، وهو هنا اسرائيل ، وبين المستعمر (بفتح الميم) ، وهو هنا الشعب الفلسطيني ، لم يكبر على ارض فلسطين ذاتها، بالرغم من انه ، اي التناقض ، ولد على ارض فلسطين ، وانتقل ، تحت عامل القهر ، الى خارج حدود الارض المحتلة ، ليكبر في بيئة اخرى هي البيئة الفلسطينية ـ العربية ، اي في الرحم القومي ، الذي احتضن الوليد وربّاه ورعاه ، ودربه وسلحه ، ثم اطلقه على طريق العودة .

ولقد ظلت القوى والجماهير الفلسطينية تائهة حينا ، ومصابة بشلل فرض عليها حينا آخر ، وسجينة قوى قاهرة حينا ثالثا ، منذ الخروج في عام ١٩٤٨ وما بعده ، وحتى تبلوُر فكرة انشاء قيادة فلسطينية رسمية عام ١٩٦٤ ، ثم قيادة فلسطينية مناضلة في عام ١٩٦٥ ، حين اطلقت حركة التحرر الوطني الفلسطيني (فتح) رصاصة الثورة في اليوم الاول من ذلك العام .

ومنذ ذلك الحين ، والثورة الفلسطينية تنمو ويشتد ساعدها وتقوى شوكتها . وفي أثناء مسيرة الثورة ، نشأت منظمات مقاومة كثيرة ، بلغت نحو عشرين منظمة ، بعضها قوي التنظيم عريض القاعدة الشعبية متين

البنيان ملتزم بالنضال التحرري ، وبعضها هزيل القوام ضعيف الالتزام ذو قاعدة شعبية ضعيفة او تكاد تكون مفقودة ، وبعضها الثالث عاش حينا من الزمن ثم اختفى ولم يعد الى الوجود . ولقد جرى ذلك كله خارج الارض المحتلة ، اي في البيئة الفلسطينية ـ العربية ، وبخاصة في دائرة محيطة بفلسطين واحاطة مباشرة ، ثم في دوائر تحيط بالدائرة الاولى ويتسع قطرها حتى تكاد تشمل الوطن العربي كله . ولقد كانت ملاكات الثورة (اي كوادرها) تتكون ، تجمعا وتدريبا واعدادا وتسليحا ، ضمن محيط الدائرة الاولى بشكل رئيسي .

وهكذا يمكن ان توصف الثورة الفلسطينية في مرحلتها الفاعلة النشيطة ، وهي المرحلة التي بدات في مطلع عام ١٩٦٥ ، بانها « ثورة مهجَّرة » . ومن هنا برزت الصفة الثانية للثورة .

فلقد ادركت الثورة الفلسطينية ان عليها ان تعود الى ارضها لتنتصر . وكان هذا يعني ان على الثورة أن تجد الارض التي تقاتل عليها ومن أجلها، وان تقاتل العدو وهي قادمة اليه من كل جهة ، فلا يعرف من اين تأتيه الضربة ، ولا يستطيع ان يتخذ تدبيرا أو يعد عدة ، لان الثورة تكون حينذاك قد تفجرت كالينابيع الصغيرة في أرض فلسطين كلها . وبذلك لا تاتي الثورة الى العدو كتلة او جبهة تواجهه وقد استعد لها وعبأ لصدها واندفع في هجومه عليها .

ولقد سعت الثورة الفلسطينية ، بعض السعي ، الى ان تفعل ذلك ، فشهدنا تلك العمليات الصغيرة ، التي كانت اشبه بضربات اللاكم المتتالية التي لا تترك الخصم الا وقد انهكت قواه فترنح ووقع ، لا من جراء الضربة القاضية المفاجئة ، ولكن من جراء تلك الضربات المتتالية التي تنهك العقل والقلب والجسم . وكان لتلك العمليات الصغيرة المتتالية ، التي شهدناها في السبعينات ، أثرها وتأثيرها . ولقد بلغت تلك العمليات،

بالرغم من قلتها وضيق ساحاتها ، ذروة الفداء وقمة الشهادة ، وهزت الكيان الصهيوني ، بقياداته ومؤسساته وسكانه .

وهكذا يمكن ان نصف الثورة الفلسطينية في مرحلتها الراهنة التي لا تزال تعيشها ، بانها « ثورة عائدة » لتكون نقيضا للصفة الاولى « ثورة مهجَّرة » ، التي خلقت الصفة الثانية . غير ان « التهجير » قد حدث ومازال واقعا ، اما « العودة » فمازال هدفا تسعى اليه الثورة . ولان الثورة حصلت بعد التهجير وقبل العودة ، فقد برزت الصفة الثالثة كوليد طبيعي في هذه المرحلة .

وهذه الصفة الثالثة هي « قومية المعركة » . ولقد عبرت عنها بالقول انها برزت ، ولم اقل انها خلقت او ولدت ، ذلك لان الثورات الفلسطينية منذ العام ١٩٢٠ وحتى اليوم ، مرورا بثورات ١٩٢١ ، و ١٩٢٣ ، و ١٩٢٨ ، و ١٩٣٥ ، و ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، و ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ ، كانت تتفاعل مع بيئتها العربية ، وبخاصة مع اقطار الدائرة الاولى ، حيث تقع سورية ولبنان والاردن ومصر والعراق ، فبالرغم من أن هذه الاقطار كانت واقعة ، يومذاك ، بين ايدي الاستعمار أو الاحتلال الاجنبي ، فقد كانت راية الوحدة تظللها باهدافها ومعانيها وروحها . وكان من الطبيعي ان تتجسد تلك الاهداف والمعاني والروح بالتعاون الوثيق في النضال ضد الاستعمار . ولقد كانت فلسطين تمثل يومذاك الموقع العربي الذي توضعت فيه اعلى اشكال الاستعمار واعتى ادواته ، وهي الاحتلال البريطاني والاستعمار الصهيوني معا . ولذا كان من الطبيعي ان تتداخل العوامل العربية وتتشابك فوق ارض فلسطين لتصبح القضية الفلسطينية همّ العرب في انقاذ اخوتهم في فلسطين .

لا اود ان استعرض تاريخ مبدأ « قومية المعركة » من حيث مفهومه ووقائعه وادلته في الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، فذلك امر يكاد يكون

معروفا ، وان اختلفت فيه الاراء والتفسيرات والتحليلات . وليس عسيرا علينا ان نتذكر ان حرب تشرين الاول ١٩٧٣ جرت في ظل مبدأ « قومية المعركة » ، وتحت شعار « لا صوت يعلو فوق صوت المعركة » . ولقد تعرض مبدأ « قومية المعركة » لمصاعب وعثرات في طريق مسيرة الصراع، غير ان الكبوة الكبرى التي واجهت المسيرة الفلسطينية ـ العربية هي خروج الرئيس المصري انور السادات على ارادة الامة العربية ، يوم زار القدس المحتلة في تشرين الثاني ١٩٧٧ ، وما تبع ذلك من اتفاقيات كامب ديفيد والمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية . وجوهر الكبوة انالسادات اصطنع نهجا قاومه العرب وسعوا الى محاصرته ثم القضاء عليه . غير ان هذا النهج استطاع ان يمتد ، فكريا على الاقل ، الى بعض الاجهزة الرسمية العربية ، فتراخت ارادة محاصرته . وكان اخطر ما فعله نهج كامب ديفيد بواسطة اطرافه الثلاثة ، النظام المصري واسرائيل والولايات المتحدة ، ان اصطنع ساحة صراع في لبنان ، حيث تلقفت القوى الانعزالية اللبنانية اهداف النهج وروحه ، وتعاونت مع اطرافه ، طالما ان احد أهم الاغراض المشتركة بين اطراف النهج وتلك القوى هو القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية ومنظمات المقاومة وقواعدها ومؤسساتها ، ومن ثم على الشعب الفلسطيني ، واقتلاع تجمعاته التي تتخلق في رحمها نطف الثورة الفلسطينية ، وتولد اطفالا لينشؤوا ويتدربوا فتيانا ثوارا .

من هنا كانت حرب لبنان في حزيران (يونيو) ١٩٨٢ . ومن هنا ايضا كانت الكبوة الجديدة للثورة الفلسطينية ، بخروج قواتها من لبنان وعاصمته بيروت ، بعد نحو تسعين يوما من الحرب والقتال ، ولقد شكلت هذه الكبوة ، بما لها من صفات وخصائص ، وبما أسفرت عنه من نتائج حتى الان ، سواء على الصعيدين الفلسطيني والعربي ، او على مستقبل الكفاح التحرري المسلح الفلسطيني ، شكلت بداية مرحلة جديدة مهمة ، هي نقطة انعطاف في مسيرة الثورة الفلسطينية ، وقد تكون حاسمة

بالنسبة للصراع العربي ـ الاسرائيلي بصورة عامة ، وللقضية الفلسطينية بصورة خاصة . ومن ابرز خصائص هذه المرحلة ، التي ما تزال في بدايتها ولما تتضح معالمها بكاملها بعد ، انها عميقة الاثر والتأثير ، بحيث انطلقت بعض القوى التراجعية الانهزامية التي كانت تنتظر ، صامتة كامنة ، الفرصة المناسبة . حتى اذا حلت نكبة لبنان ، باحتلال اسرائيل لنحو نصفه ، وجدت تلك القوى ان الوقت قد حان لخروجها من عزلتها ولتحركها في اتجاهات مختلفة : فلسطينية وعربية ودولية .

ومهما كانت قيمة النتائج العسكرية والسياسية والاجتماعية التي انتهى اليها ـ والتي قد ينتهي اليها ايضا فيما بعد ـ الغزو الاسرائيلي ، ومهما اختلفت الاراء والاجتهادات حول تلك النتائج ، فاننا لا يمكننا القول ان الفشل كان من نصيب اسرائيل وحدها في عملياتها العسكرية في لبنان . فقد حلت بقوات الثورة الفلسطينية خسارة واضحة ، اذ اضطرت ـ مع القوات المشتركة ـ الى الخروج من المنطقة التي احتلها العدو الصهيوني . كما استطاع هذا العدو ، بعد ذلك ، ن يحمل قوات الثورة ومنظمة التحرير الفلسطينية ، بجميع اجهزتها العسكرية ، ومعظم اجهزتها المدنية والادارية ، على الرحيل عن بيروت ، والانتشار في اقطار عربية مختلفة ومتباعدة في عملية منظمة يمكن اعتبارها بمثابة هجرة رابعة ، بعد الهجرات الثلاث السابقة الكبيرة : عام ١٩٤٨ من فلسطين ، وعام ١٩٦٧ من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وعام ١٩٧٠ من الاردن . وهكذا خرج من بيروت في العشر الاخير من شهر اب (اغسطس ١٩٨٢ نحو ٨٣٠٠ مقاتلا من قوات المقاومة الفلسطينية ، ونحو / ٢٦٠٠ / جنديا من جيش التحرير الفلسطيني،انتشروا جميعهم في سورية والعراق والاردن وتونس والعربية اليمنية واليمن الديمقراطي والجزائر والسودان . أما القوات السورية التي كانت تصد العدو الصهيوني على ابواب بيروت، بالتعاون مع القوات الفلسطينية والمشتركة ، فقد غادرت العاصمة اللبنانية الى منطقة البقاع .

لقد تصور العدو أن الفلسطينيين ، بخروجهم من لبنان ، وتوزعهم الجغرافي المشتت ، قد سقطت آخر معاقلهم ، وهزموا بحيث لا ترتفع لثورتهم بعد ذلك راية ، ولا تشرع بندقية وليس أمامهم سوى باب واحد مفتوح ، يطل بهم على الشروط التي تفرضها عليهم اسرائيل ، فيقبلون ما تعرضه عليهم . وليس هذا التصور مقصوراً على الائتلاف الحاكم في اسرائيل « الليكود » ، ولكنه تصور مشترك مع الائتلاف المعارض « المعراخ » . والاهم من ذلك كله ، أن جوهر هذا التصور قد امتد الى خارج فلسطين المحتلة ، وسيطر على مراكز صنع القرار في الولايات المتحدة الاميركية . وليست مبادرة الرئيس الاميركي رونالد ريغان ، بشأن تسوية مشكلة الشرق الاوسط ، والتي اعلنها في مطلع ايلول (سبتمبر) الماضي ، سوى وليدة هذا التصور . حتى إن اجهزة الاعلام الاميركية ، وبعض الاجهزة الاعلامية الاوروبية ، اخذت تتحدث عن نتائج غزو لبنان ، على انها ادت الى « القضاء على البنية الاساسية لمنظمة التحرير الفلسطينية » ، و « القضاء على الجهاز العسكري للمنظمة » و « إقتلاع الجذور الاخيرة للمقاومة » و « تحول المنظمة الى حركة سياسية » . ولم يوفر النظام المصري هذه الفرصة ، اذ دعا ، علنا ، منظمة التحرير الفلسطينية الى ان تتحول الى مؤسسة سياسية على شكل حكومة في المنفى ، والى أن تسقط البندقية من يدها ، وتكتفي بدور تمثيلي :

واذا ما طرحنا جانباً هذه المقولات المؤسسة على اغراض عنصرية وتوسعية ، تبقى امامنا مجموعة من التساؤلات المتعلقة بالتحولات التي طرأت — وتطرأ — على المقاومة الفلسطينية : فكريا ، وتنظيميا ، ونضاليا ، نتيجة دخولها في المرحلة الجديدة ، ومواجهتها لتحديات هذه المرحلة ومتطلباتها .

لا شك في انه كان لوجود المقاومة الفلسطينية على الارض اللبنانية اهمية خاصة . ذلك ان تحرك المقاومة من لبنان وفيه بصورة عامة ، ومن

بيروت وفيها، خلال ما يزيد على عقد من الزمن ، ادى الى تحقيق انجازات ومكاسب هامة وقيمة على مختلف الصعد ، وبخاصة صعيد بعث القضية الفلسطينية ، في اثر حرب تشرين التحريرية عام ١٩٧٣ ، وتثبيت دعائمها، كما ان نمو المقاومة الفلسطينية ، واتساع قواعد الثورة ، ورفدها بالطاقات والامكانات من بعض الاقطار العربية ، وبخاصة من سورية ، إن ذلك كله اصبح من ملامح عقد السبعينات .

وبالرغم من ذلك كله ، ومهما كانت الاهمية الخاصة لوجود المقاومة الفلسطينية على الارض اللبنانية ، فالحقيقية التي لا يمكن إغفالها ، هي ان المواجهة الفلسطينية ـ الاسرائيلية التي كانت مرافقة لذلك الوجود في لبنان ، لم تكن هي المواجهة الوحيدة ، ولن تكون هي الشكل الاخير من المواجهة ، ولن يكون لبنان هو الموقع الاخير لتلك المواجهة . ذلك أن جوهر الصدام بين الامة العربية بعامة ، والشعب الفلسطيني بخاصة ، من جهة ، واسرائيل والصهيونية من جهة أخرى ، هو التناقض الازلي بين الحرية والاستعمار ، بين الانسانية والعنصرية ، بين الوطنية والاحتلال ، بين الوحدة والتمزيق . ومثل هذا النوع من الصدام ، لا بد له أن يشتمل على انواع عدة من النضال ، بدءاً من خفقة القلب الرافض ، والفكرة المتمردة الآملة ، وانتهاء بالبندقية الفدائية ، التي تسترخص الحياة في سبيل الشهادة ، ومرورا بالحجر يلقيه طالب مدرسة فلسطينية على الجندي الاسرائيلي المحتل ، وباضراب صامت تعبر فيه الجماهير عن رفضها وتمردها .

ولعل أول انواع النضال الفلسطيني هو ذلك الصدام بين النظام الاستعماري العنصري القائم في اسرائيل ١٩٤٨ ، وبين سكان البلاد الاصليين واصحابها الشرعيين والذين بقيت منهم « اقلية » يسمونهم « عرب اسرائيل » . ففي داخل اسرائيل يعيش حوالي نصف مليون عربي فلسطيني يمثلون نحو ١٥٪ من سكان اسرائيل . ولم تفلح جميع

المحاولات الاسرائيلية في طمس هويتهم القومية ، او اضعاف مشاعر انتمائهم العربي . بل على العكس من ذلك ، فقد جاءت حرب ١٩٦٧ ، ثم حرب ١٩٧٣ ، نقطتي تحول بارزتين في بلورة تلك المشاعر وانمائها وانعاشها ، وتجلى ذلك كله في مظاهر كثيرة ، مثل الاضرابات والمظاهرات ، والجهر بتأييد منظمة التحرير الفلسطينية ممثلا شرعيا ووحيدا للشعب الفلسطيني ، وتأييد اقامة الدولة الفلسطينية . ان تجمع معظم « عرب اسرائيل » في حزب « راكاح » وتشكيلهم كتلته الاساسية دليلان على نمو الوعي القومي لهذا القسم من الشعب الفلسطيني وتبلوره حول محاور نضالية جذرية اصيلة . ويمكننا القول إن هذا النضال ، على ضعفه وهدوئه ، يأخذ شكل المواجهة ضد العنصرية الاستعمارية الصهيونية واهدافها .

والنوع الثاني من النضال الذي يعيشه الشعب الفلسطيني هو النضال ضد الاحتلال . وهو ما يجري في الضفة الغربية وقطاع غزة . ولقد شهدت المناطق المحتلة في فلسطين ، بعد عام ١٩٦٧ ، انتفاضات وتحركات مقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي ، كان ابرزها انتفاضات أواخر عام ١٩٦٨ ، وأوائل عام ١٩٦٩ ، وتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ ، وآذار (مارس) ١٩٧٦ . وقد بلغت الحركة الوطنية الشعبية ذروة نشاطها وفاعليتها في الانتفاضة التي قامت يوم ٣١ آذار (مارس) ١٩٨٢ ، بمناسبة ذكرى يوم الارض . وقد بدأت الانتفاضة باغلاق جامعة بيرزيت ، وتصاعدت مع اقالة رؤساء بلديات البيرة ونابلس ورام الله ، ومع إلغاء « لجنة التوجيه الوطني » .

وقد اجمعت معظم الاوساط الحاكمة واجهزة الاعلام في اسرائيل ، على ان المواجهة التي وقعت يوم ٣١ آذار (مارس) ١٩٨٢ وما بعده ، بين سكان الاراضي المحتلة وسلطات الاحتلال ، هي اعنف مواجهة جرت بين الفلسطينيين والاسرائيليين ، منذ ان بدأ احتلال الضفة والقطاع في حرب

١٩٦٧ . كما قيمت الاوساط المذكورة تلك الاحداث على انها صراع مباشر مفتوح على السيادة على الاراضي المحتلة بين منظمة التحرير الفلسطينية والسلطات الاسرائيلية .

وقد اشتد ذلك الصراع ، عندما اعلنت اسرائيل استبدال نظام الادارة المحلية بنظام الحكم لعسكري ، تمهيداً لتطبيق الحكم الذاتي الذي تضمنته اتفاقيات كامب ديفيد . وكانت اسرائيل ، وما تزال ، تأمل في ان يشاركها في مؤسسات الحكم الذاتي شخصيات فلسطينية تكون مؤهلة ، في وقت لاحق ، للتفاوض مع اسرائيل بشأن ارتباط الضفة والقطاع بالكيان الصهيوني ارتباط تبعية ، بحيث تصبح الاراضي المحتلة ، في مرحلة لاحقة ، جزءاً من ذلك الكيان .

ادى الصراع في مناسبة يوم الارض هذا الى استشهاد عشرات من المواطنين المتظاهرين ، والى سقوط بضع مئات من الجرحى . وتم اغلاق جامعة بيرزيت ومعاهد ومدارس كثيرة . وفي الوقت ذاته ، تزايد نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية وتأثيرها ، وانتهى الامر باستقالة مناحيم ميلسون ، المكلف بالادارة المدنية للضفة العسكرية ــ وكانت استقالته هذه احد الادلة على فشل السياسة الاستعمارية الاسرائيلية في الاراضي المحتلة ، وعلى عمق ارتباط الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة بأهدافهم الوطنية وبمنظمة التحرير الفلسطينية ، وبخاصة ان هدف مناحيم ميلسون الذي اعلنه يوم توليه الادارة المدنية كان ، حسب تصريحه ، القضاء على نفوذ منظمة التحرير الفلسطينية في الاراضي المحتلة وتشتيت أنصارها .

غير ان هذا لم يكن يعني ، مطلقا ، أنه لم تكن هناك بعض الثغرات في الجبهة الوطنية المقاومة للاحتلال . فقد استطاع العدو أن يؤسس ما يسمى « روابط القرى » ، وأن يسلح أفرادها ، ويدربهم في معسكرات

الجيش الاسرائيلي ، ويحولهم الى ميليشيات تخـدم سلطة الاحتلال ، وتمارس العنف والارهاب . على سكان الضفة والقطاع بوجه عام ، وضد القيادات الوطنية والشعبية بوجه خاص . واعطت الادارة المدنية هـذه القوى العميلـة رخص اصـدار صحف تحمـل اسـماء « أم القرى » و « التقدم » و « الميثاق »،تهدف الى خلق حملة تضليلية،وزعزعة مكانة منظمة التحرير ، وتبرير تعامل القوى العميلة مع المحتل الصهيوني .

لم تلن الجبهة الوطنية أمام تحديات سلطة الاحتلال وعملائها ، وانما نشطت من أجل رص الصفوف وتعزيز المقاومة على اساس اكبر قاعدة شعبية ، فدعت القيادات الوطنية الى عقد مؤتمر يوم ١ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٢ ، حضره رؤساء البلديات واعضاء لجنـة التوجيـه الوطني ورؤساء المنظمات الشعبية والمهنية (عمال ، فلاحين ، اطباء ، صيادلة) واصدروا بيانا فضحوا فيه خطة الادارة المدنية واغراضها ، واكدوا « أن الحل الوحيد يكمن في انسحاب القوات الاسرائيلية من كل الاراضي المحتلة ، واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس بقيادة منظمـة التحرير الفلسـطينية » (١) . ودعـا البيان الجماهـير الفلسـطينية الى « اضراب عام يشمل جميع اوجه الحياة العامة في الضفة والقطاع ، والى قيام مظاهرات الاحتجاج .

لقد فشلت حكومة اسرائيل في ارهاب القيادات الوطنية عن طريق محاولات الاغتيال (الشكعة ــ خلف ــ الطويل) ، والابعاد عن الوطن (القواسمه ــ ملحم ــ التميمي) ، فتوجهت الى تنحية رؤساء البلديات وحل المجالس البلدية ، كمثل ما جرى في نابلس ، ورام الله ، والبيرة ، وعنبتا ، وجنين ، ودورا ، وبيتونيا ، وغزة ، وغيرها ، لانها رفضت التعامل مع الادارة المدنية . واصدرت سلطات الاحتلال امراً بالغاء لجنة

(١) جريدة القدس ، ٢ / ١١ / ١٩٨٢ .

التوجيه الوطني التي تشكلت في عام ١٩٧٨ ، وفرضت الرقابة المشددة على الصحف العربية (الفجر ـ الشعب ـ الطليعة) . كما اقدمت على اقتحام المدن والقرى والمخيمات ، وعلى قتل العشرات وجرح وسجن المئات . واغلقت المدارس والجامعات العربية ، وفرضت نظام منع التجول . كل ذلك من اجل كسر شوكة الانتفاضة الشعبية التي ، بالمقابل، لم تخمد ، بل ازدادت عنفاً في مواجهة هذه الاساليب الارهابية القهرية .

وكان ينوي وزير الدفاع الاسرائيلي السابق ارييل شارون أن يلجأ الى تدابير اخرى من اجل محاصرة المقاومة الشعبية وعزلها ثم القضاء عليها . ومن هذه التدابير التي اعلنتها الصحف الاسرائيلية (١) :

١ ـ اغلاق الجسور بين الضفة والاردن ، بغية فصل المناطق المحتلة وعزلتها نهائياً عن اية صلة مع منظمة التحرير الفلسطينية والعالم العربي .

٢ ـ قطع مصادر التمويل العربي عن المناطق المحتلة . وقد اصدرت سلطات الاحتلال مؤخراً قراراً يلزم البلديات والمؤسسات بأن تودع الاموال التي تأتيها من الخارج في « صندوق التطوير » التابع للادارة المدنيـــة .

٣ ـ اغلاق الجامعات في الضفة الغربيـــة .

٤ ـ الغاء رخص اصحاب الاعمال الحرة والمتاجر الكبيرة ورخص السيارات ، لضرب الفعاليات الاقتصادية الفلسطينية وشلها .

٥ ـ طرد الشخصيات الوطنية بصورة جماعية ، وبخاصة من هم مؤيدو منظمة التحرير الفلسطينية .

(١) جريدة هآرتس ، ١٢ / ١١ / ١٩٨٢ .

هذا ، بايجاز ، عن النوع الثاني من النضال الذي يخوضه الشعب العربي الفلسطيني . اما النوع الثالث ، وهو الاهم والاقوى والاشد والاكثر اثراً وتأثيراً حتى اليوم ، فقد تمثل بالاستناد الى ارض عربية ، لتكون قاعدة لتنظيمات المقاومة الفلسطينية ، تتم فيها تعبئة المقاتلين وتدريبهم وتسليحهم ، ولتغدو القاعدة اللوجستيكية والادارية والامدادية لقوات المقاومة ، ثم لتصبح قاعدة انطلاق لتلك القوات في عملياتها ضد اسرائيل وفي الاراضي المحتلة . وقد مرت الثورة الفلسطينية في تجربتين طويلتين في هذا النوع من النضال ، هما تجربة الاردن التي تصاعد خلالها النضال الفلسطيني المنطلق من الارض الاردنية نحو الاراضي المحتلة وبخاصة في النصف الثاني من الستينات . وقد انتهت هذه التجربة في خريف ١٩٧٠ ، بعد حرب ١٩٦٧ حين بدأت التجربة الثانية في لبنان . وقد اخذت هذه التجربة الثانية ابعاداً جديدة وواسعة ، سواء في الاطارين الفلسطيني والعربي ، أو في الاطار الدولي ، بعد حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣ ، فانفتحت امام منظمة التحرير الفلسطينية أبواب المحافل والمؤسسات الدولية وتعزّز مركزها الدولي على مختلف الصعد ، واشتد ساعدها العسكري في مواجهة العدو ، ضمن اسرائيل ذاتها ، وفي الجنوب اللبناني ، حينما كانت القوات الاسرائيلية ترد على ضربات المقاومة بغارات او هجمات على الجنوب اللبناني .

شهد هذا النوع من النضال عمليات عسكرية فدائية ، جد كثيرة وجرئية ، تمثلت بضربات سريعة وخاطفة ومؤثرة ، تناولت مجموعة من المراكز القيادية والمؤسسات في اسرائيل . وقد نشطت هذه العمليات الفدائية في النصف الثاني من السبعينات نشاطاً واسعاً . كما ان قوات المقاومة استطاعت أن تواجه الهجمات الاسرائيلية الكثيفة والواسعة على جنوبي لبنان ، مواجهة جديّة ومثمرة ، فاحبطت أهداف الغارات والهجمات والاحتلالات المعادية . ونشير الى نموذجين من العمليات

الكبيرة التي تصدت لها قوات المقاومة واحبطتها ، أولهما غزو اسرائيل لجنوبي لبنان في آذار ١٩٧٨ ، وثانيهما حرب الابادة التي شنتها اسرائيل في صيف ١٩٨١ ، وتطورت لتصبح بداية حرب استنزاف ضد اسرائيل ، وانتهت الى اتفاق وقف اطلاق النار بين المقاومة الفلسطينية واسرائيل بواسطة الولايات المتحدة ، وذلك في تموز ١٩٨١ .

لقد انتهت التجربتان الفلسطينيتان المنطلقتان من الارض الاردنية ، ثم الارض اللبنانية ، الى نتائج متساوية بالنسبة لقوات المقاومة الفلسطينية ، وأساليب نضالها ، وللقضية الفلسطينية بصورة عامة . ولقد حملت التجربة الفلسطينية في الارض اللبنانية نتائج عدة تركت آثارها وبصماتها على النضال الفلسطيني ذاته .

فمن ناحية ، اصبح الوجود الفلسطيني في لبنان وجوداً « مدنياً » بالاساس ، فبعد رحيل ما يزيد على عشرة آلاف مقاتل فلسطيني عن لبنان ، اصبح الوجود الفلسطيني في هذا القطر وجوداً غير مسلح ، متمثلا فيما يقرب من ٣٠٠ ــ ٤٠٠ الف فلسطيني ، حالهم كحال الفلسطينيين اللاجئين في مختلف الاقطار العربية .

ومن الناحية التنظيمية ، اتخذ التشتت الفلسطيني لقوات المقاومة ومنظماتها بعداً جديداً ، ابرز ما فيه ذلك التشتت الجغرافي على اقطار معظمها بعيد عن خط المواجهة المباشر مع العدو ، هذا بالرغم من أن حرب لبنان ، وبخاصة معركة بيروت زادت في تحقيق الاندماج والتلاحم بين فصائل المقاومة ، بفضل ظروف المواجهة الواحدة والمصير الواحد . يضاف الى ذلك ظهور عامل هام ، جوهره ذلك التلاحم النضالي العميق بين منظمات المقاومة وبين الجماهير الفلسطينية التي شاركت المقاومة ، بشكل ما من الاشكال ، حرب لبنان ومعركة بيروت . ويمكن القول إن المقاومين في بيروت ، ما كان لهم ان يصمدوا نحو تسعين يوما امام الجيش

الاسرائيلي وغزوته الشرسة العنيفة ، الا لوجودهـم في وسـط شعبي متجاوب ، يناصر المقاومين ويعاونهم .

واذا وضعنا التشتت الجغرافي الذي تعرضت له قوات المقاومة ، والتلاحم الذي عاشته هذه القوات مع الجماهير في تجربة لبنان ، اذا ما وضعناهما تحت منظار واحد ، لاستنتجنا أن امكانات تحقيق مزيـد من الاندماج والتلاحم الشعبي بمنظمات المقاومة ، وتحقيق مزيد مـن الترابط والتشابك الوثيقين بين منظمات المقاومة بعضها بعضاً ، لا تقل قط عن احتمالات حدوث مزيد من التشتت التنظيمي ، بل تفوقها امكان حدوث وتجسيد . وكل ما يمكن ان نخشاه في هذا الظرف العصيب الذي تجتازه منظمات المقاومة ، واطارها التوحيدي منظمة التحرير الفلسطينية، هو احتمال نشوء منظمات او تنظيمات فلسطينية جديدة ، تتوالد تحت تأثير الظروف الراهنة ، أو تنشق عن منظمات قائمة .

ولعل من اهم نتائج التجربة الفلسطينية في الارض اللبنانية ، احتمال ظهور تغيرات في التوجهات الفكرية والمقومات العقائدية لمنظمات المقاومة . ذلك ان معركة بيروت تركت آثارها وبصماتها عـلى الفكـر الفلسطيني المقاوم ، وإن لم تظهر حتى الآن تلك الآثار بأعماقها ، وتلـك البصمات بخطوطها الواضحة . فنتائج حرب لبنان ومعركة بيروت ما تزال تتفاعل ، ولما ينقشع غبارها بعد . ويمكن القول إن ابرز تلك التغيرات المحتملة هي شعور الجماهير الفلـسطينية وقياداتها وتنظيماتها بالانكفاء على نفسـها . وقد يتمثل هذا الشعور في احد مسارين ، او في مسارين معاً ، أولهمـا إحياء روح الانكفاء والعزلة والغربة عن الاطار العربي ، أو الاطار الرسمي العربي على الاقل ، وثانيهما انتعاش الاتجاهات الراديكالية والمتطرفـة لـدى بعض فصائل المقاومـة . ولسنا ننسى ان شعارات طرحت في الستينات وبعض السبعينات ، كانت تنادي بأن الطريق الى القدس تمر بهذه العاصمة العربية أو تلك .

ولعل الباعث الرئيسي لهذا الاحتمال في تغير يطرأ على التوجهات الفكرية والمقومات العقائدية لمنظمات المقاومة ، هو التجربتان المرتان اللتان مرت بهما المقاومة الفلسطينية في الاردن عام ١٩٧٠ وفي لبنان عام ١٩٨٢ . فقد واجهت قوات المقاومة وحدها مذابح عام ١٩٧٠ . اما في لبنان فقد صمدت هذه القوات مع القوات المسلحة السورية التي كانت متمركزة في الارض اللبنانية ضمن اطار قوة الردع العربية، صمدت وحدها مدة كانت كافية لكي تتحرك الحكومات العربية وتنجد القوات الصامدة في لبنان ، بقوات برية وجوية كافية لوقف الزحف الاسرائيلي ثم صده واخراجه من لبنان . لكن ارادة الصمت وسلبية الموقف كانتا اقوى من نداءات النجدة ودوي مدافع العدو وازيز طائراته .

ومن المنتظر ان يمتد التغير الى نوعية الدعم الخارجي الذي تتلقاه منظمات المقاومة . ذلك ان حركة التحرير الفلسطينية ، مثلها في ذلك مثل اية حركة مماثلة في التاريخ المعاصر ، تتلقى دعماً خارجياً يساعدها على الاستمرار في الكفاح ، وعلى تطوير اشكاله وتنويعها . وقد تلقت المقاومة الفلسطينية مختلف اشكال الدعم ، بدءا بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، وافساح المجال امام مناشطها الاعلامية ، وتأييدها في المحافل الدولية ، وانتهاء بتقديم المعونات المالية او الاسلحة والمعدات العسكرية لها ، او تدريب رجالها على فنون القتال .

وفي إثر حرب لبنان ، يبدو ان تغيراً سيطرأ على نوعية ذلك الدعم ومصادره . فمع تقلص امكانات العمل العسكري المباشر ، في المرحلة الزمنية الراهنة على الاقل ، من المنتظر أن تتقلص المساعدات ذات الطابع العسكري ، وبخاصة الاسلحة المتطورة والمعقدة ، والتي لم يكن استخدامها ممكناً الا في غمار صدام عسكري مباشر مع اسرائيل . وفي مقابل ذلك ، يتصاعد الدعم السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وبخاصة في الاطار الدولي ، وعلى صعيد الرأي العام في كثير من دول العالم .

من بين هذه التغيرات المحتملة ، يبدو التغير الاهم والاخطر والابعد تأثيراً ، هو ذلك الذي يتعلق بجوهر المقاومة الفلسطينية وروحها واداتها : الكفاح المسلح . فبانقضاء الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية فوق الارض اللبنانية ، وبانكفاء قوات المقاومة عن خطوط المواجهة المباشرة مع العدو ، توارت الى حد كبير في الوقت الراهن على الاقل ، احتمالات الصدام المسلح المباشر ، كما تقلصت مختلف اساليب استخدام البندقية الفلسطينية ، بدءاً من غارة على مركز او مؤسسة معادية ، ونصب كمين لسيارة عابرة ، وانتهاء بمواجهة حادة في معركة تستخدم فيها مختلف صنوف الاسلحة ، وقوات مسلحة كبيرة ، كمثل ما جرى في عدوان اسرائيل على جنوبي لبنان في آذار ١٩٧٨ ، وفي حرب ١٩٨٢ .

ولقد تقلصت امكانات العمل العسكري الفلسطيني ، في الظروف والشروط الفلسطينية والعربية الراهنة ، وضاقت منافذ الدخول الى ساحاته . ذلك ان العمل العسكري الفلسطيني مضطر الى الانتقال ، بثقله الرئيسي ، الى الميدان الطبيعي الذي كان لا بد له ان يلج اليه ويركز عليه ، وهو ميدان الارض الفلسطينية ذاتها ، سواء داخل حدود الارض المحتلة عام ١٩٤٨ ، او في تلك التي احتلها العدو عام ١٩٦٧ . فعلى تلك الارض ، وفي اطار هذين الميدانين ، يمثل كل انسان فلسطيني ، بوجوده وهويته وصموده ، تحديا للعدو الاسرائيلي، واداة للتمرد عليه ومقاومته.

وليس هذا التوجه ، اي انتقال العمل العسكري الفلسطيني بثقله الرئيسي الى ارض فلسطين ، بالامر الهين او اليسير ، او ان الابواب مشرعة امامه وليس له الا ان يلجها ، فدون ذلك مصاعب ومشكلات كثيرة ومعقدة ، تمتد من الارض التي يسيطر عليها العدو ، والتي تنوي المقاومة الانتقال اليها او تنظيم نفسها فوقها ، وتصل الى الارض العربية حيث تستمد المقاومة منها نسغ الحياة وترتبط بها شرايينها . وهنا تكرر الصفة التي تحدثنا عنها في مطلع المقالة ، وهي « قومية المعركة » ، تكرر

نفسها بحيث يتساءل البعض عن صدق هذه الصفة واخلاصها ومدى التصاقها بالمقاومة الفلسطينية ، في إثر تجربة لبنان . ولعل ذلك يبدو واضحا في العدد الاخير من مجلة « شؤون فلسطينية »(١) التي يصدرها مركز الابحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .

واذا كان اسلوب الكفاح المسلح هو الوسيلة الرئيسية التي لا تعلو عليها وسيلة من اجل حصول الشعب العربي الفلسطيني على حقوقه ، فان هناك اسلوبا آخر لا بد له من ان ينمو ايضا ويأخذ ابعادا جديدة ، وتخصص له امكانات مكثفة ونشيطة ، وهو أسلوب الكفاح السياسي ، على ان يكون هذا الاسلوب رديفا للكفاح المسلح في فلسطين المحتلة ، وعونا له ، لا بديلا عنه مطلقا .

وليس هذان الاسلوبان هما الوحيدان المتاحان ـ نسبيا ـ امام المقاومة الفلسطينية ومنظمة التحرير في المرحلة الراهنة ، مرحلة ما بعد حرب لبنان . فالثورة الفلسطينية ، كحركة تحريرية ثورية أصيلة ، قادرة على ابتداع اساليب أكثر مواءمة لها ، وصياغة وسائل تعبر فيها عن وجودها وارادتها وكفاحها . فذلك ، دائما ، هو جوهر الثورات التحريرية وسر عبقريتها .

---

(١) راجع العدد الذي يحمل الارقام ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، آب ، ايلول ، تشرين الاول ، ١٩٨٢ .

ملف المعرفة

أراغون:

الرجل المناضل، الشاعر، الروائي،

عاشق إلزا الكبير

صالح العياري

أراغــــون :
الرجــل المناضل . الشاعر ، الروائي
عــاشق الــــزا الــكبير

صــالح العيــاري

□ سيرة الحياة :

* في اليوم الثالث من تشرين الاول سنة ١٨٩٧ ولد لوي آراغون ، وهو القائل بمناسبة مجيئه الى هذه الدنيا : ((وبعد قد جئت انا ، هذه المصيبة)) ويقال في البداية انه من غير ام ولا اب .

تدعى ام آراغون ((مارغريت توكاس)) التي هجرها زوجها ، وذهب ليعيل افراد عائلته وامه .

* ١٨٩٩ ادارت ام آراغون وكالة عائلية اطلق عليها اسم « وكالة العائلة » .

* ١٩٠٢ قرأ آراغون على مسامع خالاته مسرحية بعنوان « أولاد كيلوباترا » .

* ١٩٠٤ استقرار العائلة « بنيللي في باريس وخلال تلك الفترة بدأ آراغون بكتابة محاولاته الروائية (على نهج زولا) .

* ١٩٠٨ دخوله الى الصف الاول الثانوي .

* ١٩١٤ حصوله على شهادة الباكلوريا .

* ١٩١٧ تعرفه الى اندريه بروتون .

* ١٩١٨ وجوده مقاتلا في الجبهة ، حيث تعرف هناك على كل من بول إيلوار ، و « فيليب سوبولت » ، كما انه ايضا بدأ بكتابة اول اشعاره في مجلة « سيك » .

* ١٩٢٠ نشر ديوانه الاول : « نار الفرح » .

* ١٩٢٤ ميلاد البيان السوريالي الذي كتبه اندريه بروتون ، وكان آراغون احد الفاعلين في ميلاد هذا البيان التاريخي .

* ١٩٢٧ محاولة مشتركة مع اندريه بروتون وثلاثة آخرين للانضمام الى الحزب الشيوعي .

* ١٩٢٨ لقاؤه بإلزا تريوليه شقيقة ليلي بريك زوجة ماياكوفسكي .

* ١٩٣٠ انتحار ماياكوفسكي ، ثم صدور مجلة « السوريالية في خدمة الثورة » .

* ١٩٣٢ انضمام آراغون رسميا للحزب الشيوعي الفرنسي ، ثم محاكمته من قبل اندريه بروتون ، وإيلوار وآخرون من السورياليين .

* ١٩٣٤ اصبح آراغون صحفيا .

* ١٩٣٤ أصدر ديوان « الحورا ـ لودال » ، ثم نشر روايته « اجراس بال » وهي مستوحاة من مؤتمر الاشتراكية الذي عقد في مدينة بال السويسرية .

* ١٩٣٥ نشر كتاب « من أجل واقعية اشتراكية » وهو عبارة عن مجموعة من النصوص الادبية والفكرية النظرية .

* ١٩٣٦ انتصار الجبهة الشعبية في اسبانيا ، ثم نشر القسم الثاني من رواية « الاحياء الجميلة » .

* ١٩٤٠ جولة في بعض بلدان امريكا اللاتينية .

* ١٩٤٢ نشرت مجلة « شعر ٤١ » قصيدة « من اجل قصيـدة وطنيـة » .

* فيما بين ١٩٤٥–١٩٤٦ ، نشر آراغون رواية «الرجل الشيوعي».

* ١٩٤٧ نشر رواية « ديان الفرنسية » .

* ١٩٤٩ ظهور أول أجزاء رواية « الشيوعيون » .

* ١٩٥٨ صدور رواية « الاسبوع المقدس » .

* ١٩٥٩ صدور ديوان « إلزا » .

* ١٩٦٦ موت أندريه بروتون .

* ١٩٦٨ صدور « الآثار المتقاطعة » الاعمال الادبية المشتركة بـين إلزا وآراغون .

* ١٩٧٠ موت إلزا تريوليه ، وبعد هذا الحادث غير آراغون من مظهر حياته الخارجية ، وترك شعره يسترسل على كتفيه على الطريقة الهيبية .

* ١٩٧١ صدور رواية « هنري ماتيس » .

* ١٩٧٤ صدور الاعمال الشعرية الكاملة .

* ١٩٧٨ موت ليلي بريك زوجة ماياكوفسكي .

* ١٩٧٩ اجرى الشاعر « جـان ريستا » عدة مقابـلات متلفزة مع آراغـون .

* ١٩٨١ مساندة آراغون لفرانسوا ميتران لانتخابه رئيسـا لفرنسـا .

* ١٩٨٢ قضى آراغون الصيف في توسكانيا مصحوبا بالشاعر جان ريستا ، وقد احتفل به في بلدية المدينة ، وفي احد السهرات التي اقيمت من أجل قدومه ، شعر آراغون بتعب شديد ، فانسحب دون أن يحس به احد ، تاركا الجميع في غناء وانتشاء ....

السوريالية : الحركة التي اثرت في كل النزعات الادبية الثورية :

يقول الناقد الفرنسي « ميشال كاروج » في كتابه أندريه « بروتون والمعطيات الاساسية للحركة السوريالية » : « ان السوريالية قبل كل شيء حركة ثائرة ، ليست ناجمة عن نزوة فكرية ، وانما عن صراع مؤس بين قوى الروح وشروط الحياة ، وبالتالي فهي وليدة يأس مطلق ازاء الشرط الذي يرزح تحته الانسان على الارض ، وهي ايضا أمل لا حد له في التحول الانساني العميق ، ص ٦ » .

ان ما ارادت ان تؤكده السوريالية في رسالتها النظرية هو مسالة سيكولوجية ذهنية هامة الا وعي : مطابقة الحلم بالواقع او الواقع بالحلم ؛ هذه الثنائية التي لم تفلح الدادائية مثلا في تثوير مكامنها الجوانية، ولهذا فان الفوضى التي خلقتها الدادائية حتمت على السوريالية الانتقال ببطء الى العالم الواقعي ما بين ١٩٢٤ — ١٩٣٤ . وهذا ما سبب لها عدة مشاكل اساسية . وقد استندت السوريالية للخروج من مازقها بعبارة رامبو « هل يمكن ان نغير الحياة باعطاء الثقة للغة والعقل لكي يجدا لنا حلولا سريعة لمشيئة الرغبة » .

والسوريالية ايضا ليست مدرسة فنية او حركة شكلية ، بقدر ما هي شكل من اشكال الاشراق الروحي . وحول هذا المعنى يقول « باتريك والدبرج » في معرض حديثه عن السوريالية :«ثمة رغبة تستقطب الفنانين السورياليين ، الرغبة في « الاكتشاف » لما هو أعمق وابعد من المظاهر لايجاد عالم اكثر حقيقة ، ولما هو طباق بين العالمين الخارجي والذاتي ، وان الاهتمام بما هو أعلى من الواقع هو الذي يؤدي دوما الى الدهشة » وما فوق الواقع الذي يصفه السورياليون هو نبع الينابيع الذي يفتح على مملكة الحلم والشعر ، والاسطورة والخيال الرائع ؛ وبالتالي فاننا نلاحظ ان الفنان السوريالي لا يعطي اهتماما أوليا لمعطيات الواقع المادي

منظورا اليه بلغة المنطق والعقل ؛ وانما نجد هذا الفنان يعطي كل قدراته الذهنية للحالات اللامعقولة المتمثلة بروح الاحلام والاستشباحات الذهنية الغريبة التي لا تخضع لمنطق العقل الصارم وعلاقته بالاشياء الظاهرة . وهذا المعنى الاخير لا يعني ان السوريالية محض حركة بهلوانية ترى في الاوهام عالمها الواقعي الوحيد ، بل اننا نجد في هذه الحركة معاني معقولة لعالم معقول تتحرك فيه كافة الافعال الذهنية الساعية الى تحقيق عالم افضل تحكمه ثنائية السوريالية المؤلفة من « الحلم ــ الواقع » ، لكن دون تجاوز أو اهمال الحياة العادية والمادية الملموسة في الواقع المعاش وباختصار فان الحركة المذكورة مرت بمرحلتين هامتين :

١ ــ المرحلة الاولى : تمثلت بهدم الاسس التقليدية والعقائدية الاجتماعية التي سادت قبلها .

٢ ــ المرحلة الثانية : تأثرها اللاحق بالنزعة المادية الماركسية التي دفعت بها الى الانقسام على نفسها في ما بين ١٩٢٠ ــ ١٩٣٥ . في تلك الفترة اهتزت اركان السوريالية ، وكثرت تناقضاتها الداخلية الموضوعية والخارجية ، خاصة وانها كانت تطمح الى تأسيس نظرية علم كوني سوريالي يحقق للعالم طموحات انسانية عليا ، وبالرغم من خطر المادية الماركسية التي حاولت ان تبتلع السوريالية ونظريتها الكونية المفترضة ؛ نجدها على اثرها وقد ربطت العزم مجددا امام شدة تلك العواصف الاجتماعية والاقتصادية ، والسياسية ما بين الحربين . واستطاعت في صراعها ان تتفوق على أزمة النقد الذاتي الذي تولد من جراء تغلغل المنهج المادي الماركسي في شرايينها العضوية .

وهذا « بروتون » مؤسسها البارز يعود من رحلته في المادية الماركسية فيكتب في مقالة : « حدود السوريالية غير الفاصلة » ، ١ شباط ١٩٣٧ : « ان لم يلجأ المرء الى الآلية بجميع أشكالها واليها وحدها فليس له ان

يأمل خارج النطاق الاقتصادي في حل جميع النقائض التي سبقت النظام الاجتماعي الذي نعيش في ظله ، والتي قد لاتزول بزواله . وتستلزم هذه النقائض أن يجهد المرء في دفعها لشعورنا الاليم أنها تتضمن هي الاخرى عبودية اكثر عمقا واشد قطيعة من العبودية الزمنية ، وان هذا الالم او ذاك على حد سواء يجب الا يصادفا رضى لدى الانسان . وهذه النقائض قائمة بين اليقظة والنوم ، الواقع والحلم ، والعقل والجنون ، والموضوعي والذاتي ، بين الادراك والتصور ، والماضي والمستقبل ، والحس الجماعي والحب ، والحياة والموت ذاتها . ص ٢١ » . ــ ميشال كاروج ــ

ان هذه العبارات توضح توضيحا قاطعا ، موقف السوريالية من المادية الماركسية ، فهي لا تنكرها من ناحية ولكنها تحتويها ضمن رؤية شاملة اكثر عمقا وتبصرا . ومن هذا التصور التعبيري في المقطع السابق نستشف الاحتياز اللامحدود لاطماع السوريالية الميتافيزيقية . ثم انه اذا كانت السوريالية لم تجد مايشبع طموحاتها الانسانية العليا في المادية الماركسية ، فهذا بالطبع ليس مرده الى نزعتها المثالية والميتافيزيقية ، او كما يصفها البعض بالحركة الرجعية الطبقية والسياسية ، وانما تكمن هذه الردة في منظورات الشمول اللانهائية التي تغمر حياة الاشياء وتحدد بعدها الوجودي : وهذا مادفعها (السوريالية) الى اعتناق مبدأ الثنائية « القدر الروحي ــ الواقع » ، وهذا كان عكس ماامنت به الماركسية التي جعلت الواقع ومحتوياته المادية والمعنوية الواقعية أساسا واقعيا لهذا الوجود يؤدي باستمرار الى تغيير العالم بطريقة افضل . وهنا نحن لاننفي في الحقيقة المنظور الميتافيزيقي الذي تؤكده السوريالية . ولكننا ايضا نقول بان هذا المنظور ليس مسألة ميتافيزيقية ورؤية فلسفية مجردة عن الواقع . انها وبالاحرى مسألة خلق من صلب الواقع نفسه ، وهــذه العبارة الرئيسية من البيان الثاني للسوريالية تعبر عن هذا المضمون بما يلي :

« نذكر بأن فكرة السوريالية ترمي الى استرداد كامل قوتنا النفسية بهذه الوسيلة ، التي لاتعدو أن تكون الانحدار المدوخ داخل ذواتنا والانارة للاماكن الخفية المنسقة ، والتعتيم التدريجي للاماكن الاخرى والنزهة في قلب المنطقة الحرام ، وانه لاسبيل لتوقف نشاط الانسان طالما اوتي أن يميز بين حيوان ولهب أو حجر ــ ص ٢٩ ــ » ــ ميشال كاروج ــ

وان كانت السوريالية ايضا قد اعادت الاعتبار الى الخرافة والسحر ثم ابحارها في عالم الطقوس السحرية ، فذلك لانها ارادت ومنذ نشوئها ــ معارضة الروحانية المسيحية والعقلانية الديكارتية ، هذه التيارات الفكرية التي اعتمدت الاسلوب الواقعي واستعملت العقل والمنطق سبيلا الى معرفة ظواهر الوجود الكونية والمادية والحسية . لكن السوريالية في نظريتها العالمية الخاصة ذهبت الى عكس ذلك ، اذ انها قالت : ان كل ما يريد أن يحققه المرء في الوجود يجب ان لا يكرر ذاته ، ويصنعها بروح العقل . ان ما يجب على هذا المرء هو ان يخلق نفسه باستمرار وفاقا للثنائية السوريالية (الحلم ــ الواقع) التي تعتبرها المشيئة التاريخية الكامنة في الصدفة الموضوعية الخارجة عن قوانين العالم العقلي والموضوعي وهذه الثنائية السوريالية يقول عنها م. كاروج : « انها تنتزع الفكر من مسالك العادة السهلة وتمكنه من التنقل في كل اتجاه عبر العوالم العقلية الى الاسفل والاعلى ، والامام والخلف والقهقرى وذلك بمطلق الحرية ص ١٣٠ » . وللسوريالية في الحقيقة علاقات وطيدة بمدرسة التحليل النفسي ، خاصة وانها أولت اهتماما كبيرا بمرحلة الطفولة المبكرة ثم بمسالة احلام اليقظة ، وقضايا الوعي ، واللاوعي المركبة . ولكن هذه العلاقة لم تقتصر على مفهوم النظرية الفرويدية من حيث كونها نظرية نفسية وعلمية . انها اقتصرت فقط على الطرائق المنهجية في العلم الفرويدي . والاكثر من ذلك ان السوريالية لم تكتف بالنظرية الفرودية ومنهجها فقط ، بل انها مزجت بين هذه النظرية وبين الفكر الماركسي .

ويمكن القول ايضا أنها مزجت بين العقل واللاعقل وبين الغموض والوضوح ، والحلم والواقع . لقد ربطت الانسان بالكون وحاولت أن تبني وتؤسس نظريتها الكونية . « وبسبب هذه النظرية التي يشمل اتساعها الكلي كامل الحياة الانسانية والكونية تحتفظ السوريالية بوجهة النظر العليا التي تحتوي كل ما سواها بالرغم من اعتراضات « سارتر » و « مونان » . فهي ترمي وحدها الى القيام بهذا النوع من اتحاد قوى الانسانية كافة ، قوى العلم والثورة ، والتحليل النفسي . والمادية التاريخية ، وعلم الاجتماع ، والحياة الداخلية والحب لتقود الانسان عبرها الى النقطة العليا ـ ص ـ ٣٤١ » م . كاروج .

هذه كلمة متواضعة في حق السوريالية ، الحركة الادبية والفكرية العميقة التي ماتزال سبل مؤثراتها فاعلة في سمات الادب والفكر العالمي المعاصر . اذن ؟ كيف يمكن أن لا نتناولها بكلمة ولوي آراغون احد مؤسسي هذه الحركة العملاقة ، زد على ذلك أن روح الشكل والمضمون الفني والادبي عند الشاعر آراغون ومنذ بدايته الى نهايته بقي مخلصا الى الينابيع السوريالية الاصيلة .

✽ مدخل الى ادب آراغون منذ قراءته لمسرحية « اولاد كليوباترا » وحتى « رماد الموت » :

ان اول علاقة قامت بين الفن والادب وآراغون كانت في احد ايـام عام ١٩٠٢ عندما قرا الطفل « لوي » مسرحية « اولاد كليوباترا » امام خالاته في « المبيت العائلي » ، وكانت هذه القراءة نقطة البداية في رحلة الادب الفرنسي المعاصر التي رافقها آراغون اكثر من ثلاثة ارباع القرن .

✽ كيف كانت البداية ؟

بطبيعة الحال كانت البداية قاسية وشاقة بالنسبة لطفل لم يعرف حقيقة والديه الا في مرحلة متاخرة من شبابه ، وخلال سنوات طويلـة اوهموه بأن امه هي اخته ، ولم يخبروه بقصة والده الذي هجر زوجته الى غير رجعة . وهذه البداية الاولى كان لها اكبر الاثر في حياة الشاعر والروائي « لوي » . وفي كنف العائلة المؤلفة من خالاته واخته (اعنـي امه الحقيقية) واقربائه ، وجميلات الحي ، عرف آراغون طعم الحنان وترعرع بعطف الانوثة والدفء والمودة الانثوية . وفي هذا الجو المفعـم بالانوثة ، كان آراغون يقضي اوقات فراغه بين خالاته وامه يقرا عليهـن المسرحيات ، ويقص عليهن الحكايات الشعبية ؛ ولعـل هذه المرحلـة المتلئة بالوجود الانثوي طبعت روحه ، وجعلته لاحقا يضع للمراة مكانة انسانية خاصة ، بل ان المراة تحولت في نظرية عشقه الى خالقة وربة واقعية جميلة وقد لقبها ايضا بالمستقبل . ومنذ بداية طفولته كـان آراغون الطفل يشعر بمحيط من الاوهام والغموض الذي كان يلف حياته (وبتصوري فان النقطة الاساسية التي ولدت لديه هذه الحالة هـو ايهامه بالدور الذي اخذته امه وحلت به محل اخته) وهذه الحـالة اثرت فيه لاحقا وطبعت شخصيته بالازدواجية التي نجمت عن هذا التضليل العائلي المفتعل . ولكن هذا الشعور بالازدواجية - Le Dédoublement -

وصراع النقائض في نفسه لم يحرمه من تحقيق طموحه الانساني الشامل. ولم يقف حاجزا بينه وبين مراتب الابداع . ولقد شاءت الظروف ان تجعل من الطفل الذي حرم من معرفة الحقيقة ان يكون معبرا وفاعلا في ارساء هذه الحقيقة المتمثلة بالعمل ، والحب والالتزام بالمشاريع الانسانية الطامحة الى العدل والسعادة والبقاء الخلاق .

قلنا ان البداية الادبية لآراغون بدات مع قصة « اولاد كليوباترا » . ومنذ ذلك العهد . سار الشاعر ، والروائي والمناضل في درب الخلق الفني والعمل . وبعد حصوله على شهادة الثانوية ، تابع آراغون دراسته في كلية الطب ، ثم اشتغل لاحقا (وقبل ان ينهي الدكتوراه) مساعد طبيب عندما كان عاملا في الجبهة الشعبية .

اما البدايات الادبية الاولى كما قال عنها هو بنفسه : « كان لوتريامون المعلم بالنسبة لنا فهو الذي دفعنا باتجاه الاكتشاف . ان رامبو ، ولوتريامون كانا بمثابة الضوء الساطع الذي بدد ظلمات طرقنا » وفي مرحلة التكون والنبوغ الادبي والفكري تعرف آراغون الى أندريه بروتون، وبول ايلوار ، وفيليب سوبولت ، وتريستان تزارا ، وغيرهم من السورياليون،هذه الجماعة كونوا فيمابعدهذا التعارف«الجماعةالسوريالية» اي في الفترة ما بين ١٩١٧ ــ ١٩٢٤ حيث كانت الدادائية تلفظ انفاسها الاخيرة في بحر فوضويتها الخانق ، وهذه الفوضوية حرمت الدادائية من مواصلة البحث عن صيغ لغوية ومضمونية جديدة تساعدها في الخروج من المازق . لكن كان ذلك دون جدوى . وانطلاقا من موقع احتضار الدادائية ، رات جماعة سوريالية ، أنه قد حان الاوان لاعلان حرب شعواء ، واعلان ثورة شاملة تقوض اسس الكتابة التقليدية السائدة . وبالفعل بدات جماعة سوريال العمل ، واندلعت نار الثورة على الهياكل الشكلية والموضوعية للحركة الدادائية ، وكان البيان السوريالي الاول النتيجة العملية للسوريالية ، ويعتبر لوي آراغون أحد

الضالعين في صياغة هذا البيان الذي اوكلت مهمته الاساسية الى راعي السوريالية « أندريه بروتون » .

ان الدارس لآثار آراغون الروائية والشعرية المبكرة ، يلمس ولا شك في ذلك اثر السوريالية العميق في هذه الاعمال والتمثل كما اسلفنا سابقا في رفض مقولة النظر الى الاشياء بعين العقل . وفي هذا التيار سار آراغون مساندا ركب السوريالية الى ان دقت ساعة التحول .

لقد تحدثت قبل قليل عن مشكلة الازدواجية التي خلفتها مرحلة الطفولة وطبعت بها نفس الشاعر (اخفاء حقيقة والديه وعدم الجهر بها امامه طيلة فترات زمنية) ، هذه الازدواجية تعقدت اطوارها الى درجة التناقض الفاصل بينه وبين الوجود الخارجي ، ثم قست الظروف ، وقست كل المرحلة على آراغون ، فتوترت حياته الداخلية ، واصبحت تقريبا على نقيض تام مع الحياة الخارجية ، وخاصة في لحظات تاريخية حرجة من حياة الشاعر ادت به الى القيام بمحاولة للانتحار اخفق حدوثها .

ظلت الاعاصير والاحداث تعصر استقراره وتضرب بسفينته من هنا الى هناك . وبالرغم من الاتجاه المادي الماركسي الذي وجد سبيلا الى البيان السوريالي الاول الا أن آراغون كان في عذابات وصراعات داخلية مستعرة حتى جاء عام ١٩٢٧ فكانت المحاولة الاولى من طرف بروتون ، وآراغون ، واخرون وذلك للانضمام الى الحزب الشيوعي الفرنسي ، لكن هذه المحاولة انتهت الى الاخفاق وخاصة من جانب « بروتون » الذي لم يستطع ان يتحمل ظروف الحزب وقراراته ولم تلتق معظم افكاره السوريالية مع روح التنظير الحزبي والسياسي ، لم يدم زمن الحيرة والتشتت الروحي طويلا ، وقذف النور في صدر آراغون حيث التقى بالزا تريوليه لاول مرة في باريس . ومنذ ذلك اللقاء احس آراغون بميلاد جديد واكتشف وجه الحياة بمنظار آخر ، وكانت « الزا » هي «الخالق»، وهذه الابيات اعتراف حقيقي بها :

« ثلاثون عاما وانا ظل قابع تحت قدميك
كلب اسود امين يدور حول عقبيك
ويحتمي ظهرا بقدك المشوق
ويخرج ليرقص مع الشمس المائلة على الحقول
ويلفك بخيط المصابيح ويكبر كلما انحنيت » .

وبدأ آراغون حياة جديدة بصحبة « الزا » .

من خيانة المطلق في الواقع الى الاخلاص للنسبية الواقعية :

ان التحول الحديث الذي تم في حياة لوي آراغون ، ثم انتقاله من السوريالية الى الماركسية ، لم يكن في الواقع تحولا قد تم بمحض الصدفة او بنزوة عابرة ادت به الى الانزلاق في مطبات عميقة . عدة مسائل هامة دفعت بالشاعر الى القيام بهذه الخطوة التحويلية وكانت « الزا » اول عامل هام دفع بهذه الخطوة باتجاه واقع جديد ، هذا من ناحية ، واما من ناحية اخرى ، فان اراغون السوريالي وقبل مغامرته الحديثة لم يكن في انسجام تام مع نفسه ولا حتى مع المحيط الخارجي الذي كان يعيش فيه . فقد كان يبحث عن المخارج التي تفضي به الى العمل والسعادة ، ويبدو انه جرب اساليب كثيرة ولكن دون جدوى الى أن ظهرت الزا في حياته وكانت هي السبب العميق في تحول آراغون من موقع السوريالية الى المكانة الشيوعية . نعم كانت تلك البداية الجديدة ! الا انه يجب أن لا نغفل بعضا من العوامل الاخرى ، كمجرى الوعي الذي كان يحمل الشاعر من محطة ذهنية الى محطة اخرى ، اضف اليها أيضا العوامل الفكرية والسياسية والاجتماعية التي كانت تجري في محيطه الاجتماعي . (وقبل ان اتعرض الى قضية اساسية تتعلق بالنمط

السيكولوجي للروائي والشاعر ، هذا النمط السيكولوجي الذي حقق ازدواجيته في نفسية آراغون ، وبات سمة واضحة طبعت شخصياته الروائية) ، دعونا نرافق قليلا هذا التعارف الذي تم بين احد أكبر عاشقين في مرحلتنا المعاصرة ـ « الزا ولوي » . هذا التعارف الذي بدد غيوم المطلق ، وكشف للنسبية صورة الحقيقة الواقعية والوضوح :

« لقد بدات حياتي حقا
يوم التقيت بك
انت
يا من شققت يداها
الطريق الصعبة امام جنوني
لقد ولدت حقا
من شفتيك
انت يا من تبدا حياتي بك . »

وبحلول روح الزا في حياة الشاعر ، هدات نار النقائض التي كادت ان تؤدي بوجوده الى مصير الحتف (محاولة الانتحار) . واقتنع آراغون بضرورة العمل مع الاخرين الطامعين الى السعادة البشرية والعدالة الانسانية سبيلا لا يمكن ان تسلكه الذات بمفردها ، ولذلك دفعه هذا الشعور الى دائرة الانتماء الاجتماعي والسياسي . واثر عودته من الاتحاد السوفياتي اعلن الشاعر « لوي » انتسابه رسميا الى الحزب الشيوعي الفرنسي ، وآمن بالشيوعية سبيلا صالحا لخلق مجتمع انساني افضل يعيش في ظله الافراد بكل معنى الانسانية الفاضلة .

وبعد هذا الاعلان الرسمي حملت جماعة سوريال (وعلى راسهم بروتون) حملة ضد خيانة آراغون للميثاق السوريالي ، وحاكموه باسم

التخلي عن مبادىء السوريالية . وهجر آراغون السوريالية في أصعب الفترات التي كانت تمر بها هذه الحركة : بل لقد حاول لاحقا ان يجعلها في خدمة الاغراض الشيوعية ، وهذا هو ما أثار حمية جماعة سوريال‌الذين شنوا عليه حملة شعواء ضد هذا الانحراف . اذن ومن هذا المنطلق نقول ان السوريالية لم تكن كافية لنجدة آراغون من التيه الداخلي والتأزم الذهني‌تجاه الواقع ، اذ انه ليس الحلم ، ولا السحر ، ولا اللامعقول الذي كانت تمجده السوريالية استطاع ان يقضي على عذاباته الداخلية ويرحل به صوب الفردوس الارضي . وان السوريالية لم تكن الجواب المطلوب عن السؤال الذي كان آراغون يطرحه على نفسه‌باستمرار يا ترى من اكون.انا ؟ وما حجم القدرة التي خلقتني ؟ وما نفعي في هذا الوجود . ان هذا الجواب قرأه في عيون الزا عندما شاهدها لاول مرة . ولكن هذا التفسير شبه البلاغي لا يريد ان يكون المسألة الموضوعية الشاملة في تحول آراغون ، وانما هذه المسألة كما قلت عنها سابقا ترجع الى جملة من الظروف وخاصة منها ظروف الوعي ، والمعرفة والثقافة التي كان يتمتع بها آراغون ، لان اختياره النهائي كان في الواقع اختيارا واعيا الم" بمجريات التاريخ الذي عاش فيه . أما وجود « الزا » اللاحق في حياته فقد كان بمثابة الفتيل او الشعلة التي اوصلت النار الى‌الهشيم وبالتالي فهل نعتبر تحول آراغون من السوريالية الى الشيوعية خيانة ادبية واخلاقية فكرية ؟ وبتقديري فانه ليس من السهولة ان نجيب على هذا السؤال بنعم او بلا ! وخاصة اذا كان الامر يتعلق باختيار الذات لموضوعها ونهجها وسلوكها الحر في الوجود . ومن هذا المنطلق يبقى‌اختيار آراغون مشروعا خاصا به يمكن ان يكون قد حقق الصواب او قد انحرف عنه .

قلت قبل قليل : ثمة مسألة سيكولوجية هامة تطبع حياة الروائي ، وتحدد ماهية خلقه وشخصياته : فهو الباحث بشكل عام عن رأس‌الهرم

لاي شكل من أشكال السلطة ، سواء كانت هذه الاخيرة ممثلة بالفرد . أو بالمؤسسة .

وهذه السلطة التي يبحث عنها الروائي هي « السلطة الخالقة » لاصل الاشياء - L' Etat ou bien La force creative - وكثيرا ما نجد هوية هذه السلطة متمثلة في البحث عن هوية أو صورة الاب . إن مهمة الروائي الابداعية تبحث دوما عن الكائن الخالق ، ذلك الخيط الرفيع الذي يشد الوجود الاجتماعي بعضه الى بعض . وهذا البعد « السيكو ــ ابداعي » يمثل في تاريخ الرواية الغاية العضوية . (واذا اردنا ان نبحث عن النماذج الروائية التي تؤكد هذا الزعم فاننا سنجدها متوفرة في أعمال وروائع عديدة : فمثلا ، سوفوكل ، واديب الملك ، هملت وصورة الانتقام من العم راسكالينكوف والجريمة ، والخ ... كل هذه الشواهد تؤكد صيغة البحث عن صورة الفاعل او الخالق ــ سواء كان فردا أم مجموعة. لكن رُبَّ سؤال يطرح نفسه الان ؟ يا ترى لماذا لا نعثر على مثل هذه الظاهرة في بقية الفنون الاخرى ؟ كالرسم والشعر ، والموسيقى ؟ والاجابة السريعة على ذلك ، كامن في كون هذه الفنون الاخيرة تبحث في مطلق الاشياء اكثر مما تبحث في كينونتها الواقعية ، وان المطلق بالنسبة لهذه الفنون يشكل مفهوم الفاعل الخالق ، فتجد الشاعر مثلا لا يبحث في هوية الشخصيات وظروفها الاجتماعية ، وذلك بقدر ما يبحث في ملامحها المطلقة وقد تحولت الى رموز تلازم في سعيها السمو بالاشياء الى مرتبة البحث عن « المطلق الخالق » .

اذن ؟ يغدو سعي الروائي في النهاية ، متمثلا بالبحث عن الحقيقة النسبية الكامنة في نظام الفرد والاشياء والجماعة ، لذلك نجده يسمي الاشياء بأسمائها ، ويضع النماذج الفردية استنادا الى ظواهر الافراد في الواقع . أما سعي الشاعر على سبيل المثال فهو متمثل بالبحث عن علة المطلق والمطلق فقط ، ولذلك لا نجد في أثره الشعري ، شخصيات حية تتحرك

كما هي عليه في الواقع . اننا نشاهد في خلق الشاعر رموزا وايحاءات ، وتصورات ذهنية تتحرك ما بين الواقع الموجود ونقيضه الممكن . وبالتالي فان البحث عن صورة الاب ، او الفرد ، والمؤسسة الخالق لا تعنيه بحال كثير ــ بل ان صورة المطلق تعد في اثره الشعري الموضوع البارز وفي سواه

وهذه الملحوظة خاصة بماهية كل شعر عظيم) . وباختصار هذا هو الفارق « السايكو ــ ابداعي » المبدئي بين كل من الروائي والشاعر . وهذا الفارق المذكور قد تجسد في آثار آراغون وطبع شخصياته بالازدواجية التي تحدثنا عنها فيما سبق ، ثم شكل ايضا عنده صفة جمع الاضداد (روح الروائي ــ روح الشاعر) او (ظاهرة النسبية ÷ ظاهرة المطلق) وذلك في ذات الاثر الواحد عند لوي آراغون . اننا سقنا هذه الفكرة لكي نبين ظاهرة الانتماء عند كل من الروائي والشاعر . وبما ان آراغون قد جمع النقيض ونقيضه في ايقاع واحد ، فان انتماءه جاء موصوما بهذا التضاد الخاص بالبحث عن صورة الاب (الخالق نسبة الى الواقع) وجودة المطلق (الخاصة بالبحث عن قيمة السعادة المستقبلية المطلقة) . ولذلك فان الجانب الخاص بانتمائه السياسي ، يجسد صورة البحث عن (الاب الخالق) :

« سلاما ايها الحزب يا عائلتي
الجديــدة
سلاما ايها الحزب يا ابي منذ الآن . »

ها هو آراغون وقد اهتدى الى وجود (الاب الخالق) المتمثل بالحزب او التنظيم السياسي . اما صورة الزا فهي الصورة المحرضة والباحثة عن المجهول الذي عبر عنه مرارا ، وهو الزمن الذي يؤرقه . ان كل هــذه العناصر ساعدت الشاعر على التحول من مستوى ايمانه بذاته الخاصــة الى مستوى ايمانه بالاخرين ، من خلال الانتماء السياسي . ان اللانهاية

او المطلق الذي عذّب روح آراغون لم يستطع ان يجلبه الى عوالمه الخاصة، انه بقي على شواطىء هذا المطلق يبحث عن الحقيقة الانسانية التاريخية الى ان وجدها في الواقع وفي علاقته مع الآخرين . والآخرون في نظر آراغون هم المستقبل والحياة في ابهى واحلى صورها . ولكن بالرغم من انتمائه الى الحزب الشيوعي لم يتخل آراغون عن هاجس السوريالية ابدا ، او بالاحرى فان هاجس السوريالية لم يتخل عنه : فاننا نجد شخصياته ورغم ايمانها العميق بجدوى الواقع ، تتحرك بنقائضها ما بين الحقائق المعروفة ، وبين تلك التي لا ندرك عنها شيئا . ولهذا نجد لغته الادبية تعاكس في كثير من اعماله طموحاته النظرية الخاصة بتثبيت اسس الواقع الواقعية بواسطة العقل واللغة . اذ انه وكما نعرف ان الواقعية الاشتراكية التي انتمى آراغون الى عقيدتها السياسية تفرض بالضرورة تبسيط الوسائل الساعية الى كشف الحقيقة التاريخية للوجود والبشر، وبموجز العبارة فان البساطة الفنية وواقعية الحدث الفني التي نظر لها آراغون في مقالاته النقدية لم تحقق رغبته التنظيرية هذه ، بل ان صيغ التعقيد البلاغي اللغوي في معظم آثاره الادبية ، وجنوح لاوعيه الى ينابيع السوريالية كان المؤشر والطبيعة الدالة على صعوبة خلقه الفني (وخاصة الشعري) . وهذه قصيدة « الشعراء » - Les Poétes - اقوى دليل يؤكد هذا الزعم :

« ان الذين يمتهنون الطيبة
الخجل هو الذي ينظمهم ،
هم يمنحون الملاك فستانا
ويعطون للشحاذ خلية ... ص ٨٥ »

ان هذه الابيات لا يمكن ان تكون بسيطة وفي متناول اوسع الناس ، لان قيمة الخلق الابداعي في الجانب الخاص بذاتها هيهات ان تكون

واضحة المعاني وسلسلة المفردات . ان هذه القيمة تبقى في المحصلة النهائية بساطة وغموضها في ذاتها ، وهي دوما بمنأى عن اية علاقة برانية لا تكون قطعة من لحمها وعظمها . هذا هو شأن الخلق الفني العظيم . ومن هذا الاساس يسقط زعم آراغون النقدي حول تبسيط الاثر الادبي وجعله اداة مباشرة لخدمة الآخرين ؛ وبكلمة اخرى اقول : ان لغة السياسة عند آراغون لم تخدم لغة الخلق الفني . ان للموضوع بخصوص هذه النقطة مسألة اخرى لا يمكن ان نعالجها الآن ونحن ندرس آراغون الكبير .

❋ بين لغة الحب والسياسة :

دخل آراغون الى الحياة السياسية من اوسع ابوابها وذلك بعد ان خبرته الحياة واخذ من دروسها الكثير ، دخل الشاعر الى السياسة وهو يحمل في ذهنه مشروعا انسانيا كبيرا متمثلا في « مملكة الحب » وهو القائل ايضا بأن الحياة البشرية المستقبلية في حاجة الى علاقة حقيقية والحب حقيقي يقوم بين الرجل والمراة وهذه العلاقة الثنائية تسمى في اللغة الفرنسية Le Couple ويزعم آراغون مؤكدا حول هذا الموضوع بانه وفي هذا العصر الذي نعيش لا توجد علاقة متكافئة بين الرجل والمراة على مستوى الجوهر الانساني ، وذلك لان المراة ومنذ ازمان بعيدة مازال رهينة في قيود التقاليد الجنسية التي فرضها الرجل على الانثى ؛ وبالتالي فان كل العلاقات التي قامت بين كلا الجنسين لم تشملها وحدة العدالة الانسانية والحنين والحب الخالص ؛ ولعل وضع المراة الفرنسية المعاصرة قبيل الحرب العالمية الثانية ومعاناتها الشاملة، وبؤسها وحرمانها قد دفع فيه مزيدا من التعلق بضرورة خلق علاقة انسانية حرة بين الجنسين ، ومن رحاب هذا الموضوع دخل الشاعر « لوي » الى عالم السياسة متقلدا سيف الحب والعمل والعدالة هذا

الحب الذي كان يحمل في روحه لغته الغنائية الخاصة ، ولذلك فـان الرجل السـياسي ، والرجل الاديب ، والرجل العاشق كانوا متحديـن في روح الرجل الواحد . ان تأثير الخطاب السياسي في ادب لوي آراغون له خصوصياته الخاصة التي قلما نجدها عند ادباء آخرين شملتهم قاطرة الالتزام السـياسي ، وضمتهم قرارات الحزب الى اوامرها . وفي الحقيقة تكمن خصوصيات الخلق الفني عند آراغون في تعددية الاتجاهات الادبية والفنية التي شارك فيها ، ثم الى تلك الروح الغربية التقليدية ، تلـك الروح الطامحة دائما الى تنشق هواء الحرية والليبرالية الفكريةوالابداعية، وهذا العامل المذكور قلل من شأن المباشرة ، والخطابة التي كثيرا ما حفلت بها معظم الآثار الادبية العالمية التي اتخذت قاعدتها الرئيسية ، شؤون الحزب ونظرية الالتزام السياسي ، الى ان نقول في النهاية ان ادب آراغون ينتمي الى كل الموروث السياسي ، والفني الذي عاصره ، انه شيء مـن السوريالية ، والدادائية ، والطبيعية ، والواقعية الاشتراكية (ذات النكهة الاوربية الغربية) . ان آراغون بحبه وطموحه وخلقه كان يشبـه النار الازلية المشتعلة عبر المكان والزمان الابدي، ولهذا فان لغته الابداعية لم تقف عند حدود لغة الالتزام السياسي الضيق ، لان روح هذه اللغة كان لها هاجسان قويان غذيا وجودها : وهما الزمن ، والموت . الزمن كان بالنسـبة للشاعر « لوي » يمثل المحرقة التي ينتهي اليها كل شيء ، هذا الزمن من حالته الخاصة (الذات) الى حالته العامة (الموضـوع التاريخي) يمثل ايضا الخط او السكة التي تؤدي الى الموت . لكـن بالحب وحده يمكن ان نعيش ونتخطى حدود الزمن الذاتي المدمر، وبالحب يمكن أن نفهم حقيقة الزمن الموضوعي التاريخي الذي يقربنا الى الآخرين، ويسهل علينا صعوبات الوجود ويقنعنا بأننا زائلون كأفراد ، لكن الحياة باقية من بعدنا الى حيث لا ندري . وان هذه الشاعر آمنت بها شخصياته الادبية التي اختارت لنفسها انتكون واقعية وسليلة للواقع الذي احدثها،

هذه الشخصيات التي صنعها آراغون دينها كان الحب ، اما نجاحاتها وفشلها فكانت تمثل مصيرها الذي اخذته على عاتقها ، وان لغة الحب عند الشاعر جاءت لتؤكد مشروعية لغة السياسة وعملها التقدمي الخاص بخلق العالم الاجمل .

* ملامح الخلق الفني في روايات لوي آراغون .

كيف تستطيع مثل هذه المقالة في عمق بساطتها ان تلم بتاريخ تركة ادبية فردية يبلغ عمرها نصف قرن من الزمن واكثر وهذا هو نصيب لوي آراغون في تاريخ الادب الفرنسي المعاصر . اذن ؟ فهل نبدأ من « نار الفرح » وننتهي الى « رماد الموت » ام نبدأ برواية « انسيت » وننتهي « بالشيوعيين » (رواية) ام نلتفت بأنظارنا الى ركام الكتب والمقالات النقدية . ولهذا السبب الخاص يعني الادب « الاراغوني » . اعذروا لهذه المقالة اقدامها على دراسة الاثر الادبي والسيرة الذاتية لهذا الاديب العالمي الكبير : ثم دعونا نتناول مباشرة طبيعة الشخصيات في روايات « لوي آراغون » .

من الازدواجية الذاتية الى ازدواجية شخصيات الرواية .

ان غالبية ابطال لوي « آراغون » العظمى من السورياليين او الماديين الواقعيين يتحركون دائما بين دوائر زمنهم الذاتي الخاص وبين الزمن الموضوعي التاريخي العام ، اي انهم يحاولون باستمرار ان يجمعوا بين نسبية الحقيقة الظاهر وبين الحقيقة كموضوع مطلق ، وكذلك نجد ان المتناقضات الداخلية التي تعيشها كل شخصية من شخصياته الروائية تضع العالم الجديد في مقابل العالم القديم وتجعل منها في النهاية عالمين مزدوجين ، فمثلا في رواية « اجراس بال » (الرواية الاولى التي كتبها

في مرحلة انتمائه الايديولوجي الماركسي) نجد الشخصية الرئيسية « كاترين » الفوضوية الشابة ، وبالرغم من مثلها الاعلى في الحرية تفضل العيش من اجل المادة ، من اجل المادة فقط ، وبالتالي فانها تعيش تمزقا داخليا حادا بين ماهو مثالي وذاتي (الحرية) وبين ما هو مادي موضوعي (المادة) ومن اجل ذلك فان كاترين تتمزق بفعل هذا الازدواج المركب بين الاحساس بالشيء من حيث هو قيمة مطلقة وبين الشعور بهذا الشيء من حيث هو قيمة مادية ملموسة .

كما انه لم يكن من السهل ايضا على ابطال « ارمان » في « الاحياء الجميلة » ، « وجان » في « الشيوعيين » ان يتخلوا بسهولة عن المثالية والفردية ، ولكنهم في النهاية كانوا ينجحون كذوات فردية الى جانب الحقيقة الموضوعية التي تربطهم بالآخرين . الا ان هذه النجاحات التي يحققها بعض ابطال آراغون لا يحققها البعض الآخر ، فمثلا نجد « بيار ميركاديه » في رواية « مسافري الامبراطورية » و « اوريليان » في رواية « اوريليان » يخفقون في مهمتهم التي تحاول ان تؤلف بين الذاتي والموضوعي ، وبين النسبة والمطلق ، وهذه الشخصيات الروائية يحطمها في الواقع التناقضي او الازدواجية التي تحملها في ثنايا ارواحها : وانا بهذا الصدد التقي مع راي الناقد الفرنسي « ميشال ريمون » حول اعمال آراغون الروائية : « ان روايات آراغون عموما لم تبلغ ذروة الرواية الواقعية (بلزاك — ستندال — فلوبير ، زولا . .) . ان معظم روايات آراغون يمكن ان نقول عنها بانها اشباه روايات ، وذلك نظرا للتناقضات الحادة التي تعاني منها ابطالها ، فهم وكما قدر لهم سلفا احيانا يكون النجاح حليفهم واحيانا اخرى يكون الفشل ضد طموحاتهم . وان هذه الشخصيات تلهث تحت سماء منيعة لا طائل للوقوف تحتها طويلا ، وهم ساعون بذلك الى ربط الذاتي الخاص ، بالموضوعي الواقعي وغايتهم المثلى اثبات ان المطلق ، هو النسبي في الواقع .

وهذا الزواج الذي سعى اليه آراغون ليكون رابطة بين رغبة المثل الاعلى المطلقة ، وبين الشعور المحدد في الواقع ، حتم على ابطاله أن يبقوا دون الوصول الى مرتبة هذه الرغبة المطلقة ، فأين هم اذن ؟ من أبطال الوحش « البشري لزولا » ، وما كبث ، وابطال احدب نوتردام ، وابطال الملك لير وغيرهم ، وهنا لا اريـد ان اربط مقارنة تعسفية بين أبطـال عصر ثم ابطال عصر آخر ، لكنه في نظري تبقى مسألة اساسية سائـدة عبر كل العصور ، انها روحية الفرد المطلقة ، هذه الروحية التي تمثـل الهاجس الاكبر والحيرة الفردية الكبرى الهاربة دوما من قبضة الفكـر والمناهـج .

وانطلاقا من هذا الزعم المتواضع اقول أن مسألة ومسلكية الالتـزام الاديولوجي والسياسي المعاصر ، ضيقت الخناق على هذا الهاجس المذكور ، وضربت بصيغة المثل الاعلى في المطلق ، هذه الصيغة التي كانت وباستمرار الغذاء الروحي الذي يغذي الابداع الخالق ويدفع به صوب الاعالي المجهولة حيث تقبع مملكة الحلم . وبهذا الكلام فانني لا اريد ايضا ان اقلل من شان « لوي آراغون » الابداعي ، بقدر ما اردت ان اتحدث بالتلميح عن هذا المطلق الذي يعذب ارواحنا اينما سرنا واتجهنا .

ان ما أراد آراغون ان يحققه لابطاله ببساطة ، هو وعيهم الواقعي والتزامهم بجدوى البحث عن سبيل الحقيقة التاريخية الموضوعية . ولذلك فانهم يقعون في تناقض قاتم بين ماهو وهم كامن في عمق هذه الحقيقة ، وبين ماهو واقعي حقيقي ملموس . وبالنهاية فان هؤلاء الابطال يبقون نصف ابطال يحملون في داوخلهم صراع الاحداث ، وكما قـال « جوزيف كيسنيل » عن « الاحياء الجميلة » (١٩٣٦) :

« اننا سنعيش في مرحلة تاريخية التي ربمـا ستتحد في يوم مـا بالرجال المزدوجين « - Les Hommes dou bles - كلمة اخيرة نقولها في هؤلاء الابطال : « انهم يبحثون عن الوحدة وهم يخافون من انفسهم اكثر مما يخافون من الآخرين . »

❋ الحب ، والشعر ، والزا

في الحقيقة انه لمن الصعوبة أن ندرك متى ينتهي عالم الرواية ويبدأ الشعر عند « لوي آراغون » ، ذلك لان الكتابة بالنسبة له تمثل شكلا من اشكال التغذة العضوية ، التي تمد شرايينه بالصدق والاحساس والالفة والمحبة ، وحول هذا الموضوع يقول « ان تحديد الفكرة بالكلمات شيء طبيعي كالتنفس الذي تقوم به رئتاي : واذا لم اقم بذلك فهذا يعني موتي واختناقي » . لقد أعطى آراغون للكتابة شانا عظيما وخاصة في مرحلة حياته الثانية التي أحدثها وجود الزا الى جانبه . وكانت الكتابة ايضا تمثل عندهُ عمق الحيـــاة المزدوج باليأس ، والحب ، وبالصدمة والغش ولكن دون أن تفقد هذه الحياة وجهها المشرق الايجابي ، ودون أن تضيع منها اشكال الواقعية الاكثر حضورا ومباشرة . وفي نظريـة التزامه يذهب آراغون بعيدا ، ويعطي للوجود ايقاعا آخر ، يصعب حتى على هذا الالتزام أن يتمثله بكل الفواصل والحالات الدقيقة : ونتيجـة ذلك ان الشاعر « لوي » كان يرى هذا الوجود في أكثر من مرآة وحدة . هكذا علمته التجربة وهكذا علمه الحب ، هذا الحب الذي من خلالـه يستطيع الانســان أن يحيا به ويصارع الموت ، ويقاتل النسيــان : « والزا » كانت هذا الحب بـل انها في نظر حبيبها تحولت من حالـة المرأة المعشوقة ، الى حالة المرأة المعشوقة الخالقة . ولكن كما قال عنها عشيقها هذا انها : « امرأة عادية من لحم ودم » وبالتالي فهي ليست من ذلك المثال الذي صور به الشاعر « بترارك » حبيبته « لور » ، أو كمـا فعل العديد من الشعراء العشاق بمعشوقاتهم اللواتي صعدوا بهن الى مرتبة الربة المثالية ، ربة النور والسماء . وكما قلنا ان آراغون أنـزل ربته الشعرية أو هي التي انزلته من السماء الى الارض ، وهي في نظره الاخير (الزا — الربة) امرأة عادية من نساء الحي الباريسي ، تعمل في

الصباح ، وتنام وفي المساء وتعد فناجين القهوة للزوار ، وتكتب في الادب والرواية والترجمة كسائر اية امراة مبدعة مثقفة ، ونحن هنا لن نناقش موضوع الربة والالهام لان هذا الموضوع له شأن واسع وعظيم . والسيد آراغون في هذا المجال يسهل علينا تقديم ربته الشعرية كشخص عادي يعيش بيننا ولكنه مصدر الهام وابداع ولم يجعل منه مثالا فذا وملهما خياليا . « الزا » ليست « لور بترارك » ، ولا « جوانيا اندروميد » ، ولا غيرها من الربات الملهمات المثاليات ، ان الزا مجرد امراة وفقط .

« بترارك » ينشد في وصف « لور » في ديوانه الشهير « الكانزونير » وفي الموشحة الثانية والخمسين بعد المائة :

« اجهد نفسك نحو السماء
يا قلبي المتعب !
واقتف من خلال ضباب
شمسها العذب جدا ، أثر
خطاها النبيل
والشعاع الالهي لتينك العينينْ . »

أما لوي آراغون فهو ينشد في قصيدة الزا :

« اين انت يا متعة ليلي
يا عابرة سبيلي الهاربة
يا مليكتي ذات الشعر السرسخي
والعينين بلـون المطـر
انتظر لحظة مرورك
كما تنتظر الارض الربيع . »

وكما نلاحظ فان غناء آراغـون الشعري في هـذه الابيات موجـه نحو تمجيد قيمة الجسـد والروح معا متجسدين في لحظة الانتظار ومتعة الليل . وهذا التقديس الشعري لم يكن عينه في ابيات بترارك . الذي سكن في مطلق عشقه واتحدت روحه اتحادا خالصا بروح ربتـه « لـور » :

(اجهد نفسك نحو السماء

يا قلبي المتعـب .)

وهنا يبدو ان بترارك قد حطم القيمة الجسدية في عشقه واحب حتى الموت روح محبوبته . لكن آراغون لم يفعل ذلك في وصف حبه الذي اتحد بالجسد والروح :

(اين انت يا متعة ليلي .)

والحب عند آراغون كما اسلفنا سابقا يمثل محرك الحياة النابض ، هذا الحب الذي نهل منه منذ عهد طفولته المبكرة في (بانسيون العائلة) ، حيث عرف الدفء وذاق طعم الحنان الانثوي ، وفي شارع كارنو ذاق ايضا حلاوة الصحبة مع الجميلات : ان كل هذه العوامل لعبت دورا اساسيا في تكوين الميثولوجيا الحقيقية حول المراة التي تطورت من اثـر ادبي الى اثر فني اخر . والمراة عند الشاعر « لوي » هي مصدر الحب ومصدر للحياة ، اذ بدون وجودها لا يمكن تصور الوجود الانساني في حالته الطبيعية . وتدعيما لهذا الراي نجده يقول حول معنى الحب « جاء الزمن الذي يجب ان نتحدث فيه دين الحب » فلاح باريس » ، أما بلوغ السعادة الانسانية فهي في نظـره تكمن في موضوع اللقـاء بـين اثنـين ، بـين الرجل والمراة : وهـذا الثنائي ، يرى فيـه آراغـون المفتاح الاساسي الذي يفتح أبواب المستقبل . لكن شريطة أن يكون هذا الحب مسوغا بالسعادة الجماعية : (ان كل الناس الذين حلموا بسعادة الاخرين كانوا عاشقين) . الا أن شاعرنا يصرّح معلنا بأنه : « ما من حب

سعيد » بين عاشق ومعشوقه ــ JL n'ya pas d'amour - Heureu -
فقساوة الحياة ، وبطش الزمن يبددان ذلك الشعور السعيد .

اذن من أين يجيء خلاص هذا الحب ؟ وعلى هذا السؤال يجيب آراغون ان الحب السعيد لا يظفر بالسعادة الا في عمق الالام الجماعية - Les maux Communs - وهذه السعادة المنشودة لن تتنشق الهواء الخالص الا من احزان الاخرين ، هذا هو الخلاص الذي يقره الشاعر كمخرج يؤدي الى سعادة الثنائي Le Couple ولقد تناولنا هذه النقطة في بداية الموضوع : ثم يضيف « لوي » قائلا :

« ان الظروف الموضوعية للسعادة الخاصة بشخصين اثنين (الرجل والمراة) لم تعد تتحقق في المجتمع الحالي . والدليل على هذا الراي نجد ان « اورليان » و « بيرينيس » يفشلان في محاولتهما اليائسة للوصول الى المطلق ، وذلك مثلما فشل « بيار » و « بلانش » في (مسافرو الامبراطورية) .

ان التعبير الذي وصف به آراغون استحالة السعادة الخاصةبالثنائي (الرجل والمراة) في المجتمع الحالي لها بالطبع عدة اسباب ومنها بالذات التجربة التي عاشها الشاعر مع « الزا » وفي فترة تاريخية معينة . اذ انه وخلال الحرب العالمية الثانية وفي غمرة الحب العارم ، حاولت « الزا » أن تفترق عن حبيبها . وذلك لعدة ظروف كانت تتطلبها شؤون الالتزام السياسي الخاصة بالحفاظ على الحياة الرفاقية أثناء الحرب المضادة . وهذا القرار سبب لاراغون اختناقا شديدا هذا الذي كان يعبد « الزا » واستنادا الى هذه الحادثة جاء البيت الشعري الصارخ المذكور : **« ما من حب سعيد »** . أضف الى هذه الحالة أيضا بعض المسائل الذاتية الكبرى كفكرة الموت التي تؤدي الى نقيض الحب .

* آراغون ــ الزا :

ان في العشق الخالص تكمن فكرة اعادة الخلق والبعث من طرف المعشوق ، وهذا يعني ان العاشق يولد من عشقه الموجه الى معشوقه . ولا يدرك وجوده الروحي الخاص الا عندما يبلغ كعاشق التوحد المطلق بمعشوقه ، وتتحقق بينهما فكرة الروح الواحد ، وبهذا المعنى التعبيري الخالق تتحقق اعادة الخلق . ان اصول هذه الفكرة جذر اساسي ، من جذور الفكر الصوفي وفي النظريات المذهبية الباطنية والفلسفية .وانسياقا مع هذا الاعتبار يتوصل آراغون الى اكتشاف خالقه (الزا) ويعترف بقدسيتها كربة او كآلهة قادرة على امتلاك فعل الخلق الذي ظل مقتصرا على القدرة الخاصة للمثل الالهية العليا .

كانت (الزا) كل شيء في حياة حبيبها ، فاجمل الصلوات قام بها عند اقدامها ، واجمل الابتهالات قدمها باسم روحها : « لقد حان الاوان كي نرجع الاعتبار لقدسية المرأة التي تتم تكريسها للرب طيلة عهود طويلة . » . و « الزا » الخالقة اعطت لاراغون ، ديوان الزا ، ومجنون الزا ، بل ان كل بطلات رواياته يحاولن ان يكن « الزا » ذاتها وبهذا الصدد يقول ميشال ريمون في مقالته النقدية عن روايات آراغون :

« ان كل هذه البطلات صرن لاحقا اكثر من مرآة حيث حاول آراغون من خلالها تملك الوجه الحقيقي « لالزا تريوليه » ، لكن كل هذه المحاولات الفاترة لهذا الوجه بقيت دون البلوغ الى رسم وجهها المتوحد والبعيد . ان الوصول اليها صعب ، وهي لا تترك الحصول الا على المظاهرة والانعكاسات ... » ويقول آراغون نفسه عن الزا : « خلال اثنين واربعين عاما بحثت عن الزا ، وها انا مازلت في طريق البحث عنها . ان الذي ابحث عنه هو كل شيء (....) ان الزا لم يعرفها احد بشكل صحيح ، لقد كنت ظلها دائما (.....) وكل رواياتي تعتبر مقدمات ، انها مقدمات لمحاولة معرفة ،ما لم اعرفه ولم افهمه، وهي ايضا مقدمات لمعرفة مابحثت عنه ، وما ابحث عنه الان » :

« المسك واري جسمك وتتنفسين
لم تعد اياما نحياها علـى فـراق
هذه انت رائحة غادية وانا دنياك
في الخـير والشـر ... »

※ آراغون والشعر :

ان الشعر في نظر آراغون هو الحياة بأكملها ، وليس للشعر موضوع آخر اذا لم يكن هذا الموضوع هو الحياة نفسها ـ بسعادتها ونجاحاتها ـ وفشلها وآلامها . لقد كان طموح الشاعر « لوي » الاكبر (ومنذ عهد القراءات الشعرية الاولى وحتى رماد الموت) ، وهو ان يجعل من الشعر غذاء الروح الواقعي . وجاهد لتحقيق هذه الغاية من خلال رواياته وشعره :

« خلقنا لنكون احراراً
خلقنا لنكون سعـداء
خلقنا كالزجاج من اجل الجليد .
وصلوات العصر من اجل الاعتراف » .

ان هذا التعبير المباشر ، وبهذه اللغة الشعرية الشفافة والمحكمة البنيان ، حاول الشاعر ان يؤكد من خلالها شعبية القصيدة وموضوعيتها العقلية . وقد حدى به كل ذلك الى محاربة كل التيارات الشكلية التي تحاول ان تخلق من الشعر ضربا من الهذيان التعبيري ورصفا للمفردات والمعاني في صور باهتة :

« سأفضي اليك بسر عظيم اخافك
أخاف ما يصحبك مساء عند النوافذ
أخاف الزمان المسرع المبطىء اخافك

سأفظي اليك بسر عظيم أغلقي الابواب
الموت اهون من الحب
لذا اتكبد عناء الحياة
يا حبيـي »

ان هذه المعادلة الذكية الصعبة بين فكرة الموت، والحب ينجح آراغون بتجسيدها في صور شعرية ناطقة بلغة الوحي الشعري الصادق ، دونما تعقيد في المعنى ؛ والمفردة ، والصورة الشعرية . إن الشعر في نظر آراغون يشبه الشلالات العائلية التي لا ينتهي خريرها ، ولا يتبدل ايقاعها . والشعر هو ايضا وسيلة جماهيرية وشعبية من وسائل التثوير المعرفية القادرة على فعل التحريض ضد تركيبة الواقع اللانساني . ولا فرق هنا بين الشعر والمعرفة ، عن طريق الشعر نفهم لغة الثورة ونعلم الثائرين معنى الحياة العميق ، كما أننا بواسطة المعرفة نفتح العقول ونربي الاذهان على حب التضحية والعمل ؛ ولاجل ذلك نرى الشاعر لوي يمزج ما بين الفكر والشعر محاولا القيام بزواج الإثنين معا تحت ستار المعرفة البدئية - La Connaissance Primaire - الساعية الى خلق الوضوح والشمول الشعريين :

« انا امنع بعض الناس من الحيـاة
أؤرقهم بما ليس في العلم من ضروب الندم
وكأن نظمي القوافي يطلق الابواق
فيحدث ضوضاء تقوم لها الموتى »

أما على صعيد التجديد الشعري الفرنسي المعاصر فان لوي آراغون يعتبر آخر المجددين في بنية القصيدة الفرنسية . إذ وبفضل حساسيته بعمق اللغة وموهبته الابداعية ، قدم رنينا خاصا وإيقاعا جديدا للقصيدة الفرنسية الحديثة ، كما انه وبالرغم من تجريبيته الرهيبة ، توصل

الى تجسيد مستويات الكتابة الشعرية المتعددة في القصيدة الواحدة ؛ حيث الف بين البحور الكلاسيكية ، والبحور الحديثة ، والنثر الشعري، خالقا بكل هذه التنوعات التقنية ايقاعا شعريا متناغما تحكمه قوانين « الشعرية » - Poëtètique - التي دعمها في كل قصائده بطراوة المفردة ودقة جرسها الموسيقي وعمق دلالتها اللفظية والفكرية . بل لقد حقق للشعر الفرنسي اضافات جديدة وذلك عندما اخضع قوالب الشعر الفرنسي وبحوره الى قالب الشعر المنثور (كما كان يحلو لآراغون ان يسميه بهذه التسمية) .

والشاعر « لوي » هو من اولئك الشعراء الذين استغنوا عن استعمال التنقيط والفواصل في القصيدة ، ويقول آراغون ردا على بعض ناقديه حول هذه النقطة : « لو يرجع المرء الى الشعر الفرنسي الكلاسي في عهد راسين وبوالو ، سوف لن يعثر على حضور التنقيط والفواصل ، وعلامات الاستفهام والتعجب ، ذلك لان هذه العلامات لم تكن موجودة من قبل لكن مع حدوث الطباعة ظهرت هذه التقنيات الثانوية لتسهل قراءة النص على القارىء اما ما عدى ذلك فليس لها من اهمية بالغة على مستوى الكتابة الابداعية خاصة » . والمهم في نظره هو ان تضبط القصيدة بنفسها إيقاعها الخاص ونغمها الموحد بروح فعل الخلق والالهام :

« اتعرفون الوردة ـ القمر
اتعرفون الوردة ـ الزمن
الاخرى تشبه إحداهما
كما تعكس إحداهما الاخرى
في مرآة البحيرة »

وفي معرض رده ايضا على بعض النقاد حول موضوع النثرية في الشعر احد الاشكالات الشعرية المعاصرة التي دار حولها نقاش عميق . وفي هذا الرد يدعم آراغون رؤيته المؤيدة للقصيدة النثرية ، مستشهدا في

شرحه الدقيق بنصوص القرآن الكريم ، حيث يقول بما معناه : « إن القرآن الاسلامي مثلا ، تمثل كتابته طاقة شعرية هائلة ، ويتمتع كلام القرآن بغنائية فياضة مع أن نظم (السورات) لم يخضع للاوزان والقوافي التي احدثت قبل او مع كتابة الشعر الكلاسيكي » . وهذا الآراغون يذهلنا حقا عندما يعطي لكل سؤال منطقي جوابه المنطقي . ومن جهة ثانية وجه اليه ناقدوه مسالة وقف شعره وحصره في الغنائية دون ان يكسر الحدود الغامضة التي ضربها سابقوه (رامبو ملارمية) وبالتالي فان معظم اشعاره كرست نفسها للوصف ، لوصف « الزا » ويرد آراغون على ذلك قائلا : « إن الخالق هو الذي يخلق اشياءه وفق إرادته ، وإلزا الخالقة هي التي خلقتني . إن « إلزا » هي الشعر ، الشعر الذي كتب نفسه » .

ذات يوم يا « الزا » اشعاري ستكون تاجك
وستبقى من بعدي لحلمك اياها
سيجيدون فهمها وإن تنوعت
من اجل ذلك هذا الذي يضفيه عليها شعرك
ذات يوم يا الزا سيجيدون فهم اشعاري »
لعينيك النافذتين الهادئتين اللتين عرفتا كيف تريان
غدا عندما تنطفىء آخر ومضات المساء
ذات يوم يا إلزا سيجيدون فهم أشعاري »

ليس ابهي ولا انقى من هذه الصلاة الحية المدوخة ، إنها حركات التعبير التي يمتلكها روح الشعر . ونحن هنا مع آراغون في شعره ، طالما ان شروط الابداع متحققة في شعره . لكن هذا لا يمنع من معارضتنا ضد ما كانت تذهب اليه تنظيراته حول مواضيع مباشرة الشعر ، وواقعيته وجماهيريته ، ومنفعته المعنوية المفروضة عليه ؛ إن كل هذه الاطناب التي دعى اليها الالتزام السياسي باسم الفن ، لم تخدم الفن مطلقا ، بل إن الفن نفسه لم يستجب لها ولم يتقيد بفروضها . ان التنظير الذي خص

به آراغون الشعر لم يحققه شعره نفسه ولعلنا نقول ان قصيدته فعلت شبه العكس بذلك ، فالغموض وصعوبة مرامي القصيدة كانت متجلية في أشعاره :

« لا شيء ينم عن غاز العطر وانفجار
الجنون او التآمر اليانع
او تنفس الالوان ومنه ستكون الوردة »

إن هذه الكيمياء اللغوية من قبيل الشعر ولا شك في ذلك ، ولكن اية واقعية ، وأي التزام بقضية ما يمكن أن نستشفها من بين الابيات المذكورة — وإن هذه الابيات لم تفعل شيئا سوى تحقيق بعدها الشعري وحسب !

إن سطورا قليلة مثل هذه لا تكفي حول رؤية آراغون الواسعة لمسالة الشعر ، فربما يحتاج هذا الموضوع الى دراسة اكثر شمولا وتبصرا نقديا .

آراغون والزمن :

إن عبارة آراغون التي أوردتها في بداية الموضوع : « إنني لا استطيع ان اموت ، وذلك لان الذي يموت ينسى » هذه العبارة كافية لإثبات فكرة الزمن كقيمة موضوعية وفلسفية خالصة يؤول اليها كل شيء في النهاية . وهنا يصبح الزمن محرقة المحارق :

« الزمان شعر لا ينتهي
مهشط
او مرآة تعكرها الانفاس وتصفيها ..... »

الزمن في هذه الابيات هو المطلق بذاته « الزمـان شعر لا ينتهي » فهذا الشعر اللانهائي من حيث هو قيمة مادية ملموسة قد حوله الشاعر الى قيمة زمانية خالصة في عمقها السرمدي . ومنذ البداية اقول : ان قيم الزمان المختلفة تتداخل في بعضها عند لوي آراغون وتشكل في النهاية الابدية المطلقة او ذلك اللانهائي المجهول الذي يعذبنا باستمرار :

« يا طفلتي ليس الزمن على قدرنـا
ما اقل الف ليلة وليلة للعشاق ... »

ان الف ليلـة وليلة او مليون ليلـة لا تكفي لارواء ظمأ العشـاق مثل لوي آراغون . الرجل الزماني الخالص ؛ ومثل هذا الشعور نلمسه في الحقيقة عند كل المتصوفة من الفلاسفة والعشاق الكبار . لان هؤلاء يتحدون بالافعال الخالقة ذات الصفات الابدية . وفي نظر المتصوفة الوجود هو المطلق ولا حقيقة اخرى سواه ، الانسان فان والمطلق لا فان — لكن وباختصار فان آراغون يستعير من الصوفية ما يتماشى ويتطابق مع تطلعاته العقائدية ، فهو يعيش الحاضر من اجل المستقبل ويأخذ من الماضي ما يساعد الحاضر على الاستمرار . وفي آثاره الشعرية حاول الشاعر ان يعقلن الصوفية الروحية ، ويخضعها بسلام الى الحياة الواقع إلا انه لم ينجح في ذلك نجاحا كليا ، وهذا بتقديري الشخصي لا يقلل من جدارة هذه الصوفية الجديدة المتسمة بروح العقلانية والذهنية المرنة ؛ وفي المحصلة النهائية يمكن القول : ان الزمان برمته يتحول الى امراة . ففي روايته : (البيضاء او النسيان) ما يدعم هذه النظرة . إن هـذا التركيب اللفظي بين البيضاء (رمز الى اسم شيء او كائن) ثم بين النسيان (قيمة ذات بعد زمني) تتمحور ازدواجية واضحة بين قيمة الشيء وقيمة المعنى الذهني الزمني ، ويشكلان في النهاية قيمة موحدة (المراة) . وآراغون نفسه يقول حول روايته (البيضاء أو النسيان) بعـد مـوت « إلزا ترىوليه » :

(إن البيضاء - Blanche - هي النسيان - L'oubli - نعـم !

إنها النسيان ؛ لان الزمان الذي ينهش حتى الروح يحدث الفراغ) .

إن الاصالة الابداعية ليس لها من نهايات محدودة ، واصالة آراغون ظلت مخلصة لمواقفه الجديدة . بالرغم مـن تأثير الحركـة السوريالية وتعمقها في روحه ، لقد ظل اصيلا لعقيدته الماركسية الجديدة ، كما أنه ايضا لـم يخن السوريالية التي اسرت لاوعيه الخاص . انـه عشـق روح السوريالية ، واحب الفعل الواقعي في الواقع . وهذا التعبير المذكور عن فكرة إيمان آراغون بمطلق الزمان شهادة لصالح اصالته .

وفي هذا السياق لا نستطيع ان نتفق مع راي الروائي الفرنسي « الان روب غرييه » في آراغون حيث يقول بما فحواه « ان آراغون كان يعاني من انفصام في دماغه . فآراغون الماركسي ظاهريا لم يكن نفس آراغون ذو النزعة المتطرفة بتمجيد عسكر فرنسا ، وليس أدل على ذلك تمسكـه بالتقاليد الكلاسيكية الادبية الفرنسية في شعره» . لن نستطيع ان نقول نعم او لا بمثل هـذه البساطـة التي تناولهـا « آلان روب » . إن آثـار آراغون هي الشاهد الحقيقي لمعرفة حقيقة آراغون ــ فالرجل الـذي قـال :

« الزمان شعر لا ينتهي » لا يمكن أن يكون في مثل هذه المرتبة التي وضعه فيها الروائي « آلان روب » .

اذ كيف نتحدث عن آراغون وقد تحول الى « زمان » ثم نقول عنه بأنه رجل فصامي يدعي بظاهره على عكس ما في داخله . فلو كان خلق الروح هزيلا عند الشاعر « لوي » لما ادت به قرارات الحزب الى الشموخ الابداعي الذي حصل عليه .

آراغون وموروث الثقافة العربية :

لآراغون الِمام محمود بموروث الثقافة العربية ، نبداهـا من تأثره بمجنون ليلى ونصل به الى بني العبد الله آخر ملوك الطوائف في اسبانيا العربية ابان النهضة العربية الاسلامية . وربما يرجع الِمام آراغون بالتراث العربي الثقافي الى فترة الاحتلال الفرنسي للجزائر . في تلك الفترة تعاطف آراغون مع القضية العربية الجزائرية ، وكمثقف عضوي ثوري انكب على مطالعة ما تيسر له من كتب التراث المنقولة الى اللغة الفرنسية . مما دفعه آخر الامر الى معارضة بعض المستشرقين الاوروبيين الذين حاولوا من خلال دراساتهم تشويه بعض الحقائق التاريخية (تاريخ الاسلام العربي في اسبانيا) .

وفي مجال الادب حصراً يظهر ديوانه « مجنون إلزا » الملحمة الشعرية الغنائية التي استوحاها من سقوط غرناطة المدينة التي سحرته بأهلها ، ونمط عيشها وفلسفتها وشعرها الذي ما زال يزداد مرتبطا الى حد هذه الساعة بالشعر العربي الحديث . وهذا الديوان وثيقة ادبية كبرى تشهد على تأثر آراغون ــ بروح الفكر والخلق العربيين في الاندلس الاسلامية . والشاعر ذاته يقول لنا اكثر من ذلك . حيث يؤكد أن الشعر الفرنسي نفسه وبالاخص شعر الجنوب لا يخلو من سبل مؤثرات الشعر العربي في اسبانيا ، وهـذا التأثر يوعزه آراغون الى شعراء التروبادور الذين يتمتعون بصفات الغنائية التي يتسم بها ديوان شعرنا العربي . ثم انه من ناحية اخرى لا يخفي ايضا تأثره العميق بالتصوف العربي الاسلامي ، فهو يعترف بقدرة الخلق عند كبار المتصوفة العرب كالشيخ الاكبر ، والحلاج ، وجلال الدين الرومي ، وابن الفارض ، والشيء الذي اخذه آراغون عن هؤلاء المتصوفة العباقرة هو اخلاصهم المذهل لافعال الخالق والاتحاد بها حتى عمق الابدية أي انهم يصبحون الخالق والمخلوق في شيء واحد .

ويذهب آراغون مرة اخرى ليختلف مع بعض دارسي شخصية ابي العبد الله آخر ملوك الطوائف ، لان بعض المؤرخين الاسـ ـن والاوروبيين منهم الذين عاصروا سقوط غرناطة ، تحاملوا على ابي العبد الله هذا ثم لقبوه بالشخصية الهزليـة والطفوليـة ، لكن آراغون وبعضا آخر من الباحثين الاسبان المعاصرين عكسوا هذه الصورة التاريخية المشوهـة للبطل العربي التاريخي الذي انصف من قبل المنصفين من امثال آراغون ، بانه بطل من ابطال التاريخ الانساني والذي كرس جهدا كبيرا من اجـل البحث عن الحقيقة التاريخية ومدافعا عنيدا عن الاسلام . روح امته العظيمـة .

٥ ـ آراغون وفهمه « لصيغة زمن المستقبل في اللغة العربية » :

يذهب آراغون الى القول زاعما : « ان صيغة زمن المستقبل في اللغة العربية ليست صيغة مباشرة تحقق نفسها بواسطة الفعـل ، وانما لا تتعدى هذه الصيغة الزمنية نفسها الا باستعمال ادوات متعدية تؤدي بها الى قيمة الفعل الزماني المتحقق » ، وهذه الادوات في نظر آراغون تقلل من القيمة النفسية المترية لصيغة زمن المستقبل . لكن آراغون في تحليله هذا ينطلق من فهمه لصيغة زمن المستقبل في اللغة الفرنسية . فمثلا يعبر عن زمن المستقبل عند الفرنسيين بهـذا النحو الخالي من الادوات والوسائط ـ فعندما نعبر عن فعل القيام بالقراءة في المستقبل - Je Lirai - في هذه الجملة استعملنا الفعل والفاعل دون تدخل حرف او اداة اخرى توضح الصيغة الزمنية المستقبلية لهذا الفعل . اما في لغتنا العربية ، فان هذه الجملة نعبر عنها مستقبليا : سوف اقرا (مستقبل بعيد) او سأقرا (مستقبل قريب) واظن انه ثمة ما يقابل هذه الصيغة الزمنية المستقبلية العربية في اللغة الفرنسية لكن مع الفوارق الاستعمالية

اللغة ، ولو كان آراغون يجيد اللغة العربية التي صعب عليه اتقانها لفهم بشكل اعمق مسائل الفوارق والقوانين التي تختلف من لغة الى أخرى . ورأي الشاعر « لوي » لا يعد قصورا معرفيا بمشاكل لغتنا القومية وانما الرؤية اللغوية الاوربية الفرنسية هي التي حلل من خلالها رأيه الخاص حول صيغة زمن المستقبل في لغتنا الأم .

ماذا استطيع ان اقول بعد عن رجل عاصر رحلة الادب الفرنسي المعاصر طيلة نصف قرن من الزمن . ماذا استطيع ان اقول ايضا عن هذا الرجل الذي لم يستطع ان يموت خوفا من النسيان .

اغفروا لي هذا الحديث المتواضع عن المناضل ، والاديب والشاعر والعاشق الكبير « لوي آراغون » :

« ارقد يا سيدي بسلام

انت ايها الميت الذي لا يموت » .

مقطع من قصيدة الشعراء - Les Poétes -

فاصل

مقطع غنائي :

مركب يسير فوق الماء
فوق الماء

كما تفعل ورقة السوحر
كخدك على كتفي
كرمش العين المغلقة
مركب يسير فوق الماء
فوق الماء

كما تفعل ورقة السوحر
وهو يشق دون اصطدام
دون ضجيج
دون ضجيج

النهر الاسود العميق
الذي يشبه الذاكرة كثيرا
وكما تهرب الذاكرة

(١) ملاحظة : الاشعار ترجمها كاتب المقالة . وهي القصائد التالية : مقطع من قصيدة فاصل ـ عيون إلزا ـ الوردة والإسليخ ـ المجنون ـ .

يشق دون اصطدام
دون ضجيج
دون ضجيج

النهر الاسود العميق
وضحك خافت ينطفىء
ينطفىء

واغنية فساتين صافية
ليست من اجل البحث عن الاعجاب
هل هذا هو الصباح ام المساء
وضحك خافت ينطفىء
ينطفىء

واغنية فساتين صافية
المركب يميل ويسير
ويسير

بوداعة نحو الخليج
باحثا عن مداعبة الاوراق
حيث يخفق القلب
فاشد نفسي
المركب يميل ويسير
ويسير

بوداعة نحو الخليج
ومن فوق ظهره
يمد يد صبية

رقيقة ومزينة
المركب يهتز بصالبه(١)
كتخت طالع من لحافه
ومن فوق ظهره
يمد يد صبية
رقيقة ومزينة
وشعر الاخرى واقف
واقف

وعند اقترابه لامس الأغصان
والصبية علقت يدها البيضاء
الأولى منحنية على طرف المركب
وشعر الأخرى واقف
واقف
وعند اقترابه لامس الأغصان
اما الثالثة التي تراني
تراني

ماذا اقول عنها
وإلا فهي التي احبها
أسمع صوتها وهي تغني
إنها الثالثة التي تراني
وترى
الذي اقوله عن هذه الثالثة

(١) الصالب : عارضة رئيسية تمتد على طول قعر المركب .

عيــون إلــزا

عينــاك عميقتــان
حينما انحنيت لأشــرب
رايت الشموس وقد جاءت
تتراى وارتمى اليائســـون موتــا فيهمــا

عينــاك عميقتان حيث اضعت فيهما ذاكرتي
وفي الظل عصافير والمحيط مضطرب
ثم ينهض الطقس الجميل فجــاة
فتتبــدل عينــاك
والصيف يرسم غمامة على وزرة الملائكــة
والسماء لم تكن زرقاء مثل ما هي على القمح
الرياح تطرد دون جدوى أحزان الزرقة السماوية
وعينــاك اصفى عندما تلمح فيهما دمعــة

عينــاك تجعلان السماء تفي بعد نزول المطــر
والبلور ليس اكثر زرقة من فتاتــه
يا ام الالام السبعة آه ! يا ضوء مبللا
سبعة سيوف ثقبت موشور الالــوان
والنهار اكثر وجعا طالع من بين الدمــوع
قزحية العين مثقوبة بالسواد وهي اكثر زرقة
من ان تكون في حــال الحــداد

عينــاك في الالــم تفتحان الثغرة المزدوجـة
تلك التي تتكرر فيها معجزة الملوك
وعندما يخفق القلب يذهب الثلاثــة
معطف ((مــاري)) المعلق في مذود المسيح
وفي شـــهر آيار ثغر واحــد
يكفي الكلمــات والحسرات والاغــاني

عينــاك واســرارهما التوأميــة
تتسعان لملايين النجــوم اكثر من السماء
والطفل الملوك بالصــور الحلــوة
يحملق في صوره بافراط اقل ادهاشا
وعندما تفتحين عينيـك بكل وسعهما
لا ادري ان كنت تكذبين
إذ كان زخة مطر تفتح ازهارا وحشية
فهل هي تخبىء بروقا في هذه اللاوندة (١)
حيث بعض الحشــرات
تجــدد عشقهــا الوحشــي

---

(١) اللاوندة : نبات بري عطر / المنهل / .

الوردة والاسليخ(١)

« الى غابرييل بيري وابستيان دورف وغي موكيت وجيلبر دروي » .

الــذي لا يعتقــد
والــذي يعتقــد في السماء
الإثنــان يعشقان الحلــوة
اسيرة العســاكر
فمن ذا الذي يصعد السلم
ومن ذا الذي يترصد في الاســفل
الــذي لا يعتقــد
والــذي يعتقــد في السماء
لا يهـم مـا هـو اسـمها
هــذه البهجـة في خطوهمـا
احدهمـا يــذهب الى المقلى
والآخـر فيـه يختبـىء
الــذي لا يعتقــد
والــذي يعتقــد في الســماء
الإثنــان كــان مخلصــين
ايــد وقلــب وشــفاه
والإثنان قــالا بانهــا ســوف تعيش

(١) الإسليخ : نبات ذو لون أخضر ضارب الى الصفرة .

ومــن يعش ســوف يــرى
الــذي لا يعتقــد
والــذي يعتقــد في السماء
وعندما يكــون القمــح تحــت البــرد
مجنــون مــن يكــون هشــا
ومجنون مــن يتامــل خصوماتــه
في عمــق المعركــة المشتركــة
الــذي يعتقــد في الســماء (١)

(١) ملاحظة الى القراء الكرام : ان آراغون لا يستعمل التنقيط والفواصل في شعره ، وانما يترك لايقاع القصيدة النغمي الكامل ان يقوم بهذه المهمة ـ ولقد وضحنا ذلك في الدراسة ـ كاتب المقالة ـ .

من ديوان «مجنون إلزا»

المجنون - MEDJNOUN - (1)

يـا اسـما لـم اعـد اردده
وقـد توقف على لسـاني
كشيء مطهـر يقطـع صوتـه الخاص
وكزهـرة الزيزفون
نشتـم عبيرها قبـل المشـاهدة
يـا اسـم ثمـرة «الونيلية» والنـار
آه وكالعصفـور عـلى الغصـن
وكالزجـاج المكسـر الـذي يشـبه
لمسـة مداعبـة
وكتمنـي حضـور في طـرف ظـل مغـو
يـا اسـما مـن الكريستال بعيـد عـن المدينـة
او قـريب يـا وشوشـة عاشـق
يـا اسـما يصبغـه الاحمـرار عـلى شـفتي
وانـا نادرا مـا ارتـده
ثـم ليس لـي مـن رغبـة سـوى
ان ابقـى كعطرهـا او
ذيـل ثوبهـا الطويـل
وليس لـي مـن رغبـة سـوى ان اكـون
ذكـرى غبـار خطواتهـا الرقيقـة

(1) Medjnoun هي نفس كلمة مجنون في اللغة العربيـة ، وقد استعملها آراغون بذات المعنى .
ـ كاتب المقالة ـ

المراجع بالعربية :

(١) أندريه بروتون والمعطيات الاساسية للحركة السوريالية ، ميشال كاروج ، ترجمة : الياس بديوي .

(٢) إلزا وعيون إلزا ، لوي آراغون ، ترجمة : الدكتورة سامية سعيدة ، منشورات الهيئة المصرية للنشر والتوزيع .

(٣) ديوان مجنون ليلى .

(٤) دراسات في الواقعية الاوربية ، تاليف : جورج لوكاتش ، ترجمة : امير اسكندر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

المراجع بالفرنسية :

(1) Lonis Aragon , Les Poétes Edition : Gallimard

(2) Michel Raimond Le roman contemporain

(3) Arogon, entretien avec Francis Crémieux,Edition: Gallimard

(4) Revue : L'arc, Numéro spécial : Aragon

(5) Revue : L'Action poétique 1968

(6) claude Bonnefoy, Anthologie de la poésie francatse ,

(7) Revue : Le Revolution , numéro spécial : Aragon

(8) Henri Lemaitre . La poésie francaise depuis Beaude laire, j'usqua nos jours .

(9) L'anné poétique . 1977

(10) Etienne Julson L'Ecole des muses .

(*) تعريب : الدكتور عادل العوا .

(11) Le monde , 4 Janvier 1983 .

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي



شعر

أعشاب

شعر: خليل الموسى

قصة

الوجه الآخر

قصة: قمر كيلاني

شعــر

أعشــــــــاب

شعر: خليل الموسى

١ ــ العشب الابيض

هو ذا العشبُ يجلس فوق صراخٍ أبيضَ . . .
مختلطاً بأرائك دخانية /
ومساراتٍ تبحثُ في أعصاب النحاس .
وفي الشفتين الذهبيتين
يتفيأ خيّاشيم الضباب /
ويسقط في حضنِ قصيدةٍ :
قبضِ الريح
ونباحِ الأسماكْ :

– ١ –

هاتِ اقرأني ، . .

يقرأُ :

– ١ –

أضعتَ وجهَكَ فأخذتَ تبحث عنه /
كانت الشوارع رماديةً كمشاجرةٍ بين
المصابيح والسكارى / والفنادقُ
تمجدُ آلهةَ النعاس / وكانت السماء
طرقاتٍ يملؤها المتسكعون . . .

– ب –

هاتِ اقرأني ، . .

يقرأُ :

أضعتَ اسمَكَ فأخذتَ تبحثُ عنهُ /
كانت الكتبُ صفراءَ والمقالاتُ
بحجمِ الباعةِ ودور النشر / وكانت الحواشي .
تنبض دون عناوين . .

- ج -

هات اقرأني ، . .

يقرأ :

ضاعَ وجهُك / ثمّ ضاع اسمُكَ /
ثمّ ضعتَ وأضعتَ الكلمات ولم
يبقَ سوى وجهِكَ الملفّع بالشيخوخة
والغياب . . والكتبِ الصفراء . . .

- د -

يسقطُ نصفُكَ الأكاديمي . . . تنهضُ
فتنفض عن ثيابِكَ غبارَ الطباشير /
والألواح السودَ والحقائبَ
وعقولَ الصِّبيةِ / وخبرَ كانَ وأخواتها .
وعصورَ الانحدار / والرثاء وسلالمَ
المديح . . . . / وتقرأ .

« لأجلك يقرأ مزاميرَ شعره / ثمّ
يقرأ رماداً موسيقياً ومتاريسَ
من ثلج / ثم . . يسقطُ مُضَرَّجاً بقداديسَ
وألحانٍ تأكلها الجهاتُ . . »

« لأجلكِ يقرأ / أو يسقط مُعلّقاً
بنشيجِ امرأةٍ ، متذ الأنهار ملابسَ
والأعيادَ صراخاً . . »

هاتِ اقرأني ، . .

يقرأ :

« سماؤكَ عيونٌ أضاءها الفزعُ الجميل /
والأرضُ لها طعمُ امرأةٍ تأكل ثدييها . . .
. عيناكَ عادتا من سفر الفجائع / وصراخُكَ
أعيادٌ تجري من مرافئ وتحرثُ في أذُنيَّ

موسيقى الشيوخ :

ــ احذروا موسيقى القبور ، أيها الأطفال ؛
فانها تلطّخ ثيابكم بالقاذورات ، وترسمُ
على أجسادكم الأشعار الملوّثة بالبيانات
الخبيثة والخُطَبِ الجوفاء ، وتترككم بين بقايا
الشهوة والعار . .

ــ احذروا اللغاتِ الصفراء ، فانها تجاويفُ في الخُطَا
التائهة / تسكن في الجهات / تربط ألسنة

الصبايا / ثمّ تهبُّ على الفضاء والسواحل /
تسرق العصافير وصغارَ الأصدافْ . . .

— احذروا موسيقى الشيوح ، فانها .
محشوّةٌ بجثث الأسماك والدلافين
أيتها الأسماكُ : أين ملاعبُ الأمواج؟ . .
أيتها الأمواجُ : أين تختبيء الوجوه ؟ . .
أيتها الشواطيءُ : أين يذهبُ العشاق ؟ . .
أيها العشاقُ : أين فرحُ الأشجار ؟ . .
أيها الفرحُ : متى تذهب الأعياد التي تخبئُ
في جيوبها السِّيَاط ؟ ؟ ؟ . . .

— ه —

هاتِ اقرأْني ، . .
يقرأُ :
« سقطتْ مناقيرُ الذئاب
واهترأتْ أنيابُ العصافير »
يقرأ :
« أرانبُ تتمرغ في غاباتِ الصدر
ونهدان يحلمان بالرضيع . .

تحلمين وعيناكِ غيرُ قادرتين على الإغراء » . .

يهبط أفقاً ويقرأ :

« يالغةً تزنين من أصابع الكهّان

وتمارسين منذ مطلع الفجر

العادة السرّية . .

تسبّحين في الرمل

وتضاجعين زرقة الفضاء . . . »

يرسمُ أفقاً ويقرأ :

« يالغةً تنهش الكلابُ أصابعك السود /

وتعلّقك الذئاب أيقوناتٍ في صدور الأرامل

ها أنذا أقدمِ إليكِ قداديسي

وأشعلُ في أشيائكِ نذور عشتارْ . . »

يشعل ويقرأ :

« إنفرجْ أيها الفضاءُ الضيِّقُ :

ماذا تريدُ من الغيمةِ غيرَ الرحيلْ ؟

وماذا تريد من الأشعار غيرَ

تحطيمِ المسافات ؟ ؟ ؟ » .

– ٢ –

أسألُكَ أيها البحر : ماذا تقدّمُ
للقصائد الملتجئة إليكَ غيرَ الأحجار ؟ ؟ ؟ . .
ماذا تقدّمُ لامرأةٍ تصرخُ بجنون في أعصاب
الشعراء / وتجلس عند شواطئ قصائدهم وتغنّي :

هلّلويا
هلّلويا
هلّلويا . . . . ؟ .

أسألُكَ أيها البحر : ماذا تقدّم لامرأةٍ .
تغسل بشعرها قدميْ سيّدها
وتعطّرهما بالودّ والكتمان ؟ ؟ . .
يا امرأة مازال الجنود في المرافىء / وأنتِ
تهرّبين قصيدةً يغطّيها الثلج / وصوتُها
من رياح البحر . . أيها البحر :
مَنْ يلبس النهرَ ويصادر أشعاري ؟
أيها النهرُ : من يشربُ الغيبَ ويقرأ أسفاري ؟
أيتها الغيمةُ : قرأتِ جهاتِ الأنهار .
محوتِ مساراتِ الأسماك . . .

– ٣ –

هكذا يصنعُ الوباءُ المقدَّسُ مدارسَ
في مساءاتِ الترهُّلِ / وقُبّعاتٍ في
شهاداتِ العمر / يجعلها دريئةً
للموت / وتصنع الرغبةُ أسئلةً
مُعلّقةً باليباس / تفتحُ دفاترَ الحضورِ
والغياب وتُغلقُ صفحةً / وأفتحُ صفحةً
ثمَّ أطلقُ رصاصةً / ثمَّ أطلقُ رصاصةً
وأفتحُ صفحةً وتصرخين :
يأتيك الحيضُ يقلّمُ أظافرَ النباتْ . . .
هكذا يجعلون من الوقت عيونَ التربةِ
ومن الرمال ملكوت الجسور العاهرة /
تسقط المسافاتُ ويبدأ الكلام :
من عينيكِ صوبَ العتمةِ ومن حواجزكِ
حتى النباتْ . . .
هكذا يسقط الضوء وأعلنُ فوق شفتيكِ
حضوري وغيابي : نهبط في العشاء الأخير /
نتسلّق طبقات الفصول / مسبّحين

أقنوم الدينونة مرنّمين :
المجدُ للنهدِ في العُلى وعلى الأرض الفصول
وفي الناس الرمادْ . . .

هكذا يجيءُ الوقتُ ملكاً يخبزُ لكِ .
الوعود ويقدّم لكِ الشرور /
مسيحاً ليس قادراً على غفران الخطايا /
حبيباً لا يمنُحكِ سوى صكّ الذنوبْ . . .
وأجيءُ أجلس حيثُ لا أراكِ
وتجلسين في فرح الكتب واللغة الصفراء /
أجلسُ ونقيمُ محاكم لتفتيش العينين /
ومحاكم لتفتيش القلب / ومحاكم لصكّ
البراءاتْ . . .

وتجلسين حيث لا تريني / تقيمين
حواجز لتفتيش الوقت / وحواجز لتفتيش
اللسان / وحواجز لتفتيش القلوبْ . . .
وأجلسُ حيثُ أراكِ : السواحلُ جنازاتٌ
لعينيكِ / الشواطيءُ مراسيمُ في
دروس الغيابْ . . .

هكذا تفتتحُ الأعشاب البيض سقوطَ اللعنة /
ويبدأ المهرجان بانسحاب الترابْ . .

هكذا يصنع الوباءُ مدارستَهُ : جسراً
لعينيكِ الجاهزتين / ونظّارتين
لأعمدة الصواري . . .

هكذا تسقط المسافات ويسقط الضوء
وأعلن فوق شفتيكِ حضوري
وغيابي . . .

— ٤ —

هات اقرأني :
لأجلِكِ يقرأ . أو يسقط . أو
يسمع نبض قُبّعةٍ وحذاءْ . . .

هاتِ اقرأني ، . .
يقرأ .
مناجلُ للحبِّ وأكفانٌ للثلج
وأحزانٌ للعشب الأبيض . .

هاتِ اقرأني ، . .

يقرأُ :
الخناجرُ والعينان والوطنُ المحمولُ
على أكتاف الكلماتْ . .
يشربُ ثمّ يقرأ :
أيها الوطنُ / أيها المسافر حين أراك /
يارجلاً يتسكّع في لعنته / أو في رمّانة
الألقابْ . .
أيتها الغربةُ : تجاعيدُ الفصحِ تملأ قاعاتِ الامتحان
والعشب الأبيضُ ينبضُ هنا وهناكْ . .
أيتها المساقاتُ : خرائطُ لا يعرفها إلا المبتدئون
وأشعارٌ لا رصيدَ لها
وأسماكٌ بلا ماءْ . . .

٢ ــ ابتهــالات العشب الابيض

تتقدّسين يا أبخرة الحبّ حين تطاردين
خياشيم المعادن وتسكنين حضورَ الخمور . . .
تتقدّسين أيتها الخطايا حين انتقيتُكِ من بين
أعشابي وحينَ تلبسين سياطكِ وتخرجينَ
أبّهةً في الوقت . . . وأبّهةً في الرماد . . .
مباركٌ أنتَ أيها الأفقُ حين تمطر

الخطايا على رؤوس الأبرار . . .
مباركٌ أنتَ حين تزني في كلماتي
وتحرث قصائدي وتزرع في حناجرها الصُراخ . . .

– عشتارٌ يداكِ باردتان وتموز يلهث
فوق نهودٍ مطفأة .

مباركٌ أنتَ أيها الصراخُ علّمْني كيف أتبعُكَ . . .
مباركٌ أنتَ أيها الصراخ علّمني كيف أتعرّى مثلَ نهرٍ
يغسل امرأةً متعبةَ الشفتين ثم يعمّدها بلغة التراب . . .
مباركٌ أنتَ حين تزرع في أحشائها
صراخَ الدلافين والأسماك . . .

– عشتارُ يداكِ باردتان وتموزُ يلهث
فوق نهودٍ مطفأةٍ /
لا يسمعُ إلاّ التعبَ الملوَّنَ
وسوادَ الدعوات . .
يسمع العشب الأبيض ينعى الورد
ويباركُ أحزانَ الحدائق

– ارفعْ صوتَكَ أو إخفضْهُ . .
– ارفعْ : وحدَكَ من يجوزُ على الريح
وحدَكَ من يقرأ الماء . . .

– ارفعْ صوتَكَ أو اخفضْهُ

– ارفعْ : وحدَكَ مَنْ يعرفُ البغاءَ المقدَّسَ
وحدَكَ من يزني في هياكلِ عشتار . .

– ارفعْ صوتَكَ : مفاتيحُ صراخِكَ أسماكٌ
وشفاهُكَ صالحةٌ لإبحارِ نهودٍ مطفأةٍ .

– ارفعْ صوتَكَ :

دَمُكَ المنفي / يغمرُكَ الحيضُ / تسكنك
الصرخةُ : يا صراخاً بلا رُعْبٍ / يا لعنةً
تسقطُ من فوقِ باردةً مثلَ جنازةٍ من
رملٍ / دافئةً مثلَ نهدٍ من جحيم . . .

– عشتارُ يداكِ باردتان وتموزُ يدخِّنُ
فوق شفتين من طين وينفث أشعاراً . . .
أنقلُ إليكِ غيمةً من عطر وأبدأ بافتتاح
ميراثكِ السمكي :

تتناسلُ أسماكُكِ في حوض نار / تعبر في
نكهة الجنس / تطلعُ من أبخرة الرماد / وتضيء حضوري . .
أنقل إليكِ قداديسَ الرماد واحتضان الورد .
لجنازة الريح : يا رائحةً تخرج من عواصم لا أسماء لها /

يا سمكاتٍ سوداواتٍ تصعدُ من نغمٍ مشبوهٍ
وتملأُ فماً يخرّبُ قصائده :

التجاعيد تنبتُ في أسنان الثلج / وعندما يمسحُ
الرماد ظهره بفجائع الأسماك / وتنزلقُ الرغبةُ
من أفقٍ إلى أفقٍ / أستعيدُ أحزان الشواطيء
وأستسلمُ للنعاس وأسكنُ أوراماً تنبض
من الأعشابْ . . .

هاتِ اقرأني ، . .
يقرأ :
لا يقرأ شيئاً / الصفحاتُ سيّجَ عليها العنكبوت /
والغيمةُ تمطر أحزاناً فوق رؤوس الكلمات . . .

هاتِ اقرأني ، . .
يقرأ :
لا يقرأ شيئاً / الصفحاتُ سيّجَ عليها العنكبوت /
والقراءةُ ممهورةٌ بالتحريف والتصحيف والشُّبُهَاتْ . . .

هكذا يرتدي الوقت ما يشبه صراخ الأسماك
ويعلنُ أنه الأنهار / ويرتدي العشب الأبيض
أكواماً من السّمَكِ المجفّفِ والدلافين / ويعلن
أنّ الصيادين قادمون من الجهاتْ . . .

٣ ـ الاحلام الخضر

في الأرض التي تشبهُكِ عبدتُ خيالَكِ المميت /
وفي الأشعار التي تعبر الضفاف قرّرتِ الأسماك
أن تغتسلَ بالحروف وتستظلّ الكلمات / وعندما
يكفُّ الشتاء عن أغانيه / وتسكنين الظلال /
ويتبعك الغاوون من رصيفٍ إلى رصيف / ويتبعُكِ
الشعراء يسألونكِ ابتسامةً ما / أردُّ حلمي
على أعقابه وأسألكَ أن تمنحيني لحظة الألفِ الشذيّ /
وعندما أنقل إليك تهاني الرمل وبركات الرماد /
وأشرع بافتتاح ميراثكِ السمكيّ / أعلنُ
خروج همْليتْ من لغة إلى أخرى . . .
يخرجُ هملتْ من قبو إلى قبوٍ / ويُقْبّلُ ملحقاً سريّاً
في سرايا الحروف / ثم تتقدّمين : أبّهةً في
غياب الفجائع وأبهةً في حضور الترابْ . . .
تتقدّمين وتسحبين قصائدَ تسبّحُ
في عينيكِ وأسماكاً ترتدي
جواربَ الأمواج . .
تتقدمين وأسمع هُتافَ دمي

وتسمعين أناشيد الترابْ . . .
لأجلكِ يقرأ الحاضرون الغيب / وينتظر المتفرجون
خروج هملتْ من المسرح . .
يخرج هملتْ من المسرح شاهراً سيفه /
فنتقدَّمُ معاً :

« لأنَّ لكِ الملكوت وحضور الورد أقرأ
وأسبِّحُ : تعاليْ يا عروساً فصدري سريرُ
معرفة الآخرين ، وتفاحُك السرّيّ
طعامي الجديد . » .
ونخرج عاريَيْن : أفعى محمّلةٌ بالطهر
وحارس الجنّةِ رضوان .

نخرجُ ويخرجْ هملت . نخرج أو ندخلُ :

الموسيقى فتياتٌ يَعْبُرْنَ من شارع
إلى شارع ومن نهرٍ إلى نهرٍ يسقينَ عشتار /
وأنتِ تهرعُ من نهرٍ إلى نهرٍ ومن حرف إلى حرف
تحرق النذور وتشعل الأشياء :

— إيه عشتارُ / الموسيقى فضاء لنا /

الأغاني أذرعٌ / والخطايا سرير . . .

تخرج ويخرج هملتْ :

– إيه عشتارُ / لم يبقَ سوى لحظتين /

يتدفّقُ الدم ويصبح الكون

شبقيّاً / نصبحُ دلفيناً وامرأةً . .

تخرج ويخرجُ هلملتْ :

– إيه عشتارُ / لم يبقَ سوى لحظتين /

نصبحُ دلفناً أو إمرأةً . . .

يخرجُ هملت وندخل :

– إيه عشتارُ : . . .

ويندفقُ السيل

وأرى عشتار تركض من حقلٍ

إلى حقل / تملأ السلال

من تفاّحها السّرّيّ

لآدم الجديد .

قصة

الوجه الآخر

قصة : قمر كيلاني

بكت ... وخشعت ... وصلت واصبح من رأتهم عالقين بأهدابها ... يسدون عليها النوافذ والابواب . صارت تراهم في اللقمة الشحيحة التي تأكلها وفي شربة الماء كما لو انها تقتات لحومهم وتشرب من دمائهم . دخلوا الغرفة المغلقة حيث اختبأت والتصقوا على الجدران وكلما داهمها النوم هبطوا فوقها مثل ثلج رمادي . آه ... يا برد شتاء لم يقبل بعد . كيف لها ان تنس اذرعهم الممدودة فوق الارض المحروثة والارجل التي انغرست مثل اوتاد الخيام ؟ كيف لها ان تنس الاثداء المعجونة بالتراب وافواه الاطفال يشدها فراغ الموت ؟ كيف لها ان تجفف دموعا تمطر في الاعماق . دون عيون سفحتها ... وارتدت القشعريرة ... وابتلعت ريق الجفاف .

في سرها اقسمت للوطن الذبيح ... عاهدته ان تفعل ... ولكن ترى ماذا تفعل ؟ الوطن حروق مزمنة وجراح تنزف وكلمة في الاعالي حيث الله . والآن ... هو نار وموت . من النار يهربون الى النار ... ومن الموت الى الموت ترتسم الخطى .

الليل مـرآة وشمعة . تلطخ المـرآة بالسواد وتغمس بالدم بياض الشمعة . صارت المرآة سوداء ... وسنوات العمر تقطر سائلا لزجا له حرارة الجسم البشري ورائحة الدم . وفي ثنايا آخر ثوب ترتديه صورة باهتة مقصوصة من صحيفة يومية . تمسك بها بيد ... وباليد الاخرى تمسك بيهوذا . لا تقدر ان تحتفظ بالصورة ولا ان تخنق يهوذا. تهاجمها اسماء مرعبة اصبحت تملأ اذنيها : شارون ، بيغن ، شامير ، مردخاي ، ايلياهو ... ولكن ؟ لم تحاصرها هذه الاسماء ؟ المسيح صلب منذ قرون ... والوطن صليب تدق فيه المسامير. من صدرها تطير حمامة بيضاء ... تقبض عليها دافئة مرتعشة ثم تطلقها في سماء مجهولة. آه يا مصعب ... اين انت ؟ اعدادنا تتساقط كأوراق خريف تجتاحها عاصفة ... صغارنا اصبحوا يحملون السلاح ... وفتياتنا قصصن شعورهن وجازفن بكل شيء من اجل المصير .

تحاول ان تفرد اعضاءها المتيبسة ... ان تحرك عضلات وجهها ... ان تطلق ولو كلمة واحدة . تفشل . هل هي ميتة ؟ ام منومة ؟

يا عيون الليل الجاحظة المرعبة ... يا اشباحه وخفافيشه وثعابينه السامة ... ياشقوق الارض المتفجرة بالهلاك ... يا السنة النار . انت جميعا معي ... هنا ... وفي السرداب المجاور حيث يقبعون منتظرين . حتى متى سينتظرون واللحظات هي الحاسمة وكل لحظة تاريخ ؟

ملامحها ضاعت منها ... مع اللحم والمهزوم مع الاصوات المعلنة على اسلاك الكهرباء وفي زوايا الشوارع وبين الانقاض والخرائب والاغطية المتربة . هل تستطيع يداها ان تلملما خيوط المأساة ؟

والحزن يهبط بها ... الى وديان سحيقة ... طفل فوق سرير من المسامير تهزه يد الشيطان وينقط دمه قطرة قطرة وجدتها تقص الحكاية (كأن طفلا دمشقيا ... وسحبوه الى حارتهم السوداء ... ومنذ ذلك اليوم لم تطأ اقدامنا حينهم القديم ... ومع ان المدينة كانت حصينة مثل قلعة فقد نبهنا اطفالنا الا يبتعدوا عن اعتاب البيوت) . لكنهم يا جدتي اليوم يفتحون المدن ... يقتحمون البيوت ويمزقون لحوم الاطفال فماذا نفعل ؟ صرخنا ... احتججنا ... قاومنا ... وحملت الريح اصواتنا في جهات الدنيا الاربع ولم ينجدنا احد . لم نجد الا ان نرتدي ثياب النار. طمروهم بالمئات وعين السماء تنادي كل الاديان .

الخبز الذي عجنوه بدم الطفل الدمشقي كان طعمه مرا ... وغصوا بـه كلقمة الزقوم ... واحاطت بهـم عيون مسنونة كالحراب فشلت ايديهم . ولما فضحوا وذاع امرهم ناموا على الهوان والذل لكن الذيـن ياكلون اليوم خبزا يوزع على الجميع لا يعرفون ماذا ياكلون .

الليل وصمت تعرف انه مؤقت يفترسها. هذا الصمت ... ما وراءه. ساعات مضت ولم تنطلق رصاصة . هل معنى هذا انهم اقفلوا بوابات الجحيم ؟ لا ... لا تصدق . قبل يومين كان الامر كما هو الآن ثم انفجر كل شيء من جديد . وتحت زخ الرصاص تسللت لتلتقي جواب الرسالة التي بعثت بها الى مصعب ... وفوجئت ان مصعب عاد وزمجر مثـل وحش يقع في قفص .

ــ لا ... لا استطيع ان اكون الا انا نفسي ... لا اريد ان ازور ولا ان اصبغ اي خيط من نسيجي. لن اكذب عليهم واقول انني انا (قاسم). ضائع انا كما تسمينني ... ومنحرف ... وربما خائن والدم في عروقي لا ينبض معكم فماذا اكثر ؟ انا شربت مأساتي وانتهى الامر . لفظني المخيم وطردني مثل كلب لانني سرقت . انا لم اسرق بندقية ... ولا معلومات سرقت خبزا لامي التي جاعت . وماتت امي قهرا وانا هربت ...

تصرخ به :

ـ كفى ... ارجوك ... لا تعد على اسطوانتك السخيفة هذه . انت لم تهرب ... ولم تكن خائنا ... انتهينا . لكننا لم نكن نحتاج اليك. ومبرراتك تلك لم تقنعني ... ولا تخطف بصري كل مناديل الحواة المهرجين التي تخرجها الآن من جيوبك .

بضحك مقتسر جاف يرد :

ـ وها قد عدت بينما القتال هدا ... والمقاتلون انسحبوا ... فماذا تريدينني ان افعل .

تقترب منه ... تغرس عينيها فيه :

ـ وجه آخر ... وجه آخر اريدك . ان تكون بديلا . هل تفهم ما معنى ان تكون بديلا ؟ هل تفهمني ؟

ـ بل انت افهميني ... من آخر العالم جئت . حين وصلتني رسالتكم من المخيم كنت لا ازال اعلق على جداري قرار اتهامكم لي . كنت لا ازال امضغ المرارة التي ملأتم بها حلقي . ومع هدا جئت .

ـ ايام العذاب كانت طويلة ... شهر ... بل اكثر من شهر ... هل كان يجب ان ندعوك لكي تأتي ؟ اما سمعت ؟ اما علمت ؟ الم يتحرك الغضب فيك ؟ والحزن ينفض فوقها ضبابا رماديا مشبعا برائحة الجثث ... تتهاوى البيوت الضيقة المرصوصة مثل علب الكبريت ... يتبعثر الصراخ وتسقط اشجار صغيرة زرعوها على اكتاف الشوارع . حاصروهم ... وهاجموهم ... رغم ان المقاتلين لم يكونوا بينهم .

مصعب لابد ان يصبح الوجه الآخر ... البديل . انهم ينتظرونها . مجموعة المختبئين ولقد وعدتهم ان تعود بقاسم ... وقاسم تناثر لحمه امام عينيها وسحقته جرافة ضخمة .

مجموعة المختفين عن الانظار المنتظرين لقاسم يزداد عددهم . اكثر من عشرين اصبحوا بين اشبال ونساء واطفال . كلهم مقاتلون ... او يستطيعون ان يقاتلوا لكنهم ينتظرون ظهور قاسم . وقاسم لن يظهر . مصعب اخوه ... ويشبه في كل شيء ماعدا الروح المقاتلة المندفعة الى القتال ... مصعب شوهته احداث صغيرة وقعت في المخيم وآثر الفرار. هو في رايها انهزم ... واخطأ . لكن الوطن لا ينهزم في الاعماق بهـذه السهولة ... وهو يستطيع الآن ان يكفر عن خطئه ... وان يكـون البديل . ما افظع فكرة البديل ... تمقتها حتى ولو كانت لمثل وترى فيها اذلالا وشناعة . ان يلعب المرء دورا ليس دوره ... او أن يكـون الظل . حتى الاضواء لا يستطيع ان يواجهها كي لا ينكشف ... لكـن مصعب وقد فقد فرص اختياره ما عليه الا الاذعان .

دافع لا يقاوم يملي عليها ان تأخذ اليهم (مصعب) . يضج في عروقها حماس انقاذ من نوع ما لهؤلاء الناس الذين يريدون قاسم ... او بديلا لقاسم . تنظر الى مصعب ... تتفرس في ملامحه ... تخترق مجاهل عينيه ... هذه النظرة الزجاجية الباهتة التي اطفأت اغوارها الغربة . هذا الجسد الذي لا يزال يفوح بعطر لا تعرف اسمه ... هذه العضلات المتراخية التي خدرتها اطعمة الحضارة وسمومها . كم تمقت هذا فيه ... كم تحقد عليه . كان غائبا ... وكانوا وحدهم . هذه هي الحقيقة التي تجرح كحد السكين ... الا ان هذا ليس وقت الحقد . تحتاج اليه ... وسوف يغدو منقذا . ولعل في هذا انقاذا له مما هو فيه .

— وشارباك ايضا ... لم حلقتهما يا مصعب ؟

— وهل هذا مهم ؟

ملعونة تلك الافكار التي تهاجمها كأسراب الدبابير . يمكن الا يصلح مصعب لهذا الدور ... بل لاي دور . يمكن ان تفجع المجموعة به فتزيد

في آلامهم . مصعب اضاع ملامحه الحقيقية وصوته الحقيقي سقط منه . حتى ولو نبت شارباه ووضع على راسه (الشملة) وحمل السلاح هل تستطيع ان تخرج به الى حيث اخوته ونساء الحي من ثكالى وارامل وتقول لهم :: جاء قاسم ليحمل صخرة النضال ؟ سيعرف الجميع انه مصعب وليس قاسم . ولكن ماذا يهم كل ذلك ؟ المهم انه رجع اليهم ... وانه يقف معهم في خط المواجهة مع الذئب الاسرائيلي المتخفي وراء اكثر من جلد ... واكثر من سحنة .

الليل ... والموت طائر خرافي يخفق بأجنحته عن قرب ... ايها الموت ... ايها الموت . ابتعد عن هذه الرؤوس المفجوعة حتى الدماغ... عن هذه الاذرع والايدي المتعبة حتى النخاع .

ـ مصعب ... الا ترى ما ارى ؟ اضواء مخيفة تسلط على المخيم ... ليتنا لم نختبىء هنا في هذا الوكر المهجور ... ليتني لم اتخذ قراري المشؤوم بذلك ... والصمت الذي نحن فيه اعرف ما وراءه .

صوتها الراجف يغيب ... يبتلعه سكون اصم كالنحاس :

ـ مصعب ... مصعب ... الا تسمعني يا مصعب ؟

تتلفت حولها ... اين ذهب ؟ انه آخر طلقة في مسدسها الفارغ المكسور . آخر حبل يمكن ان ينتشلهم جميعا من بئر العذاب هذا .

الرصاص ... الرصاص ... ورشقه يثقب كل خلية في جسدها . لم يعد لها قدرة على ان تحتمل اكثر . ومصعب ... هل يمكن لبيروت مدينة الموت ان تبتلعه بهذه السرعة ؟ منذ قليل كان الى جانبها ... وكان من منطقة الحياد بين لا ... ونعم . لم يعطها قراره الاخير في ان يكون البديل . هل اختفى مرة اخرى ؟ لا ... لا يمكن . مصعب فرع من شجرة البؤس المتهاوية تحت الفؤوس . يقدر ان يقوم بعملية مراجعة للذات

ويصل الى القناعة التي كانت تسطع في عينيه وهو صغير . اليس ابن المخيم ؟ الم يولد على سرير العذاب وفي اكواخ الظلم ؟ تذكر جيدا كم كان يفور نقمة وحقدا كلما عيره احد انه من ساكني المخيم ... او احس ان اسرته يمكن ان تبيت بدون طعام . كم قست الايام عليك يا مصعب ... وعلينا جميعا . والحادث المشؤوم ذاك الذي كان سببا في هروبه ... الم يكن مظهرا فاجعا من مظاهر القسوة ؟ افكارها شرارات من خواطر سريعة تحرقها بين رصاصة ورصاصة ... والرصاص خافت كما لو انه يحتضر . هل يمكن ان توقف تيار افكارها هذه ؟ تلذعها ... وتجعل جسدها ينتفض كما لو انها تمس تيارا كهربائيا ... ولكن هل باستطاعتها ان توقف هذا التيار ؟ هل هي النهاية عندما يسترجع الانسان في لحظات كل شريط حياته ؟ حارقة كانت حياتها وطعمها مر .

الاضواء الكاشفة تعيد لها الصور اكثر تجسيدا ووضوحا ... تضعها عارية في منعطف المدينة الجريحة . هناك ... حيث اهلها وابناء وطنها في المخيم . احساسها بالعري يشحنها برودة وبوخز كالابر . يغسلها بمطر الاوجاع . تصرخ : مصعب ... مصعب ... الصوت في حلقها مخنوق ... وعيناها تغيمان في دخان رمادي . ايتها الاصوات المجنونة ... يا اصوات القنابل والصواريخ . فجري هذا الصمت . ويا شمس العالم الحمراء اكنسي الدخان واجعلينا نرى الاشياء على حقيقتها . وليكن الموت الذي ما بعده موت .

ـ مصعب ... مصعب .

صوتها يخرج هذه المرة كما لو انه من اعماق بئر . لا تدري كم من الوقت مضى . تعرف انه كان الصباح ... وانه الآن على تخوم صباح آخر .

هل احساسها بالزمن قد تخدر ؟ وجماعة المختبئين ماذا يفعلون الآن؟

لابد ان تهبط اليهم لتقول أن (مصعب) ضاع كما ان قاسم مات .

تخفق خطاها في سكون مقتسر والركام تحت اقدامها يئن . . . والزجاج المحطم يفري لحمها .

فجأة يبرز شخص ملثم ... العينان تمطران حزنـا ... والقدم تضرب الارض بهدوء واثق عنيد . تصرخ : قاسم ... قاسم ... كان قاسم كما عرفته في لحظات ما من الاحباط واليأس . تقترب منه . تهز كتفه كما لو انها تهز شجرة ضخمة سقطت كل ثمارها . تكلمه . لا يرد . يطرق بوجوم مفجع :

ــ قاسم ... لم لا تكلمني يا قاسم ... ماذا جرى .؟

تفزع . تسري رعدة في اوصالها . هذا ليس قاسم ... انه مصعب. هل يمكن ان تخطيء الى هذا الحد ؟ قاسم ... مصعب ... مصعب ... قاسم . وتهزها نوبة بكاء .

ــ دموع العالم لـن تكفي نساءنا . لكنك لست المرأة الآن . انت الانسان المقاوم الذي سوف يظل يقاوم .

ــ انت اذن مصعب ... لست قاسم ... لست قاسم .

ــ لم يعد يهم ان اكون قاسم ... او مصعب ... المهم ان يعرف العالم ما الذي وقع . نوشك ان نقول له ان اللوثة في عقلها قد وقعت ... وانها لم تعد تفرق بين قاسم ومصعب . لكن دمعة الرجال التي تنبجس من عينيه قطرة من دم تجمد الكلمات فوق شفتيها .

ومثل طفل مفجوع بأمه يشهق مصعب :

ــ قتلوهم ... ذبحوهم ... مثـل النعـاج حزوا رؤوسهم ... وبالسكاكين قطعوهم وبقروا بطونهم .

لا ... لا يمكن ان يكون هو الآخر قد اصيب في عقله . هل هو يهذي؟ عمن يتحدث ؟ ومن هم هؤلاء ؟

مصعب يضرب الجدار بقبضة يده ويلطم راسه ... ثم يبعثر ما حوله من بقايا اثاث محطم .

انذارات مجهولة تقرع في داخلها . شيء ما غامض يشد أعصابها مثل اسلاك ممغنطة . انه الاحساس المسبق بالفاجعة . ولكن ... هل عاد احساسها متيقظا بهذه الصورة بعد كل تلك الفواجع ؟ قلبها يهوي في قاع سحيق ... هواء بارد رغم لفح الحر ورائحة لحم ودم ... ورؤوس مسبلة فوق ارض محروقة بالقنابل والصراخ . يا آلهة جهنم ؟ هل هناك من مزيد ؟

ـ مصعب ... قل لي شيئا واضحا محددا افهمه ... انا لم اصب في عقلي ... انت ايضا ... قل .

صوتها صغير يدوي في خلجان مجهولة ... رياح وبروق ورعود . البحر من بعيد لم يعد يزمجر ... والعالم لوحة فارغة سوداء .

تهبط الى القاع ...

ومصعب امامها يخرج من ثقب ابرة .

رسائل مجهولة لعبد الباسط الصوفي

«عثر بها وقدم لها وعلق عليها»

ممدوح السكاف

مقابلات

صوتان أبيضان من جنوب افريقيا: ضد سياسة التمييز العنصري

ترجمة وتقديم: كمال فوزي الشرابي

الابداع والتجريب في مسرح السيد حافظ

اسماعيل الامبابي

رسائل مجهولة لعبد الباسط الصوفي

«عثر بها وقدم لها وعلق عليها»

ممدوح السكاف

وحين تعوي الريح في حقد الشتاء
انطوي في غرفتي وحيـد
الجدر والكتاب والاشباح في وليمتي والحلم الشريد
والمطر الضارب في نافذتي اغنية رتيبة النشيد
ويلهث السطر وتكبو الكلمة
وتلعق الشموع وجـه الظلمة

« عبد الباسط الصوفي »
من قصيدته (احزان قديمة)

١ ــ مقدمــة :

تشكل الرسـائل الادبية التي خلفها الشـاعر الراحل عبد الباسـط الصوفي ونشرت في (آثاره) بعد فاجعة انتحاره في (غينيا) عـام ١٩٦٠ مصـدرا اساسيا ورئيسا لا يمكن الاستغناء عنه وعن الاطلاع عليه ودراسته بعمق ومتابعته لمن يشـاء ان يعرف ابعاد شخصيته ونفسيته وثقافته وبيئته الاجتماعية ووسطه الادبي واصدقائه وبعض مجريات حياته في بلدتـه (حمص) وفي غربته بالقارة السوداء ولمن اراد بالتالي ان يكتب عنـه محللا ناقدا ، لانها تمده بالاضافة الى شعره الغزير ونتاجه القصصي ومقالاته النقدية ــ بفيض زاخر ومفيد من المعلومات والافكار والحوادث والمشـاعر ما كان المرء ليدركها لو لم يترك لنا الشـاعر هذه الصفحات الحافلة التي ترسم له صورة شبه متكاملة في خطوطها والوانها وظلالهـا وبؤرها الضوئية ومناطق العتمة فيها لعوامل تكوين شخصيته الانسانية والشعرية والمؤثرات الاساسية الفاعلة فيها .

واذا تفحصنا هذه الرسائل نستطيع ان نقع على النتائج والملاحظات التاليــة :

١ ــ ان عبد الباسط كتب عام ١٩٥٤ وكان له من العمر ثلاث وعشرون سنة ثماني رسائل الى « صديقته وحبيبته » بأسلوب مركز وعبارة رشيقة وايغال في المعنى ورهافة في الشعور مما يدل على انه احب كمـا يقال ان يضرب عصفورين بحجر واحد : ان يراسل ملهمته ليكسب ودها واعجابها وحبها أولا وأن ينشر رسائله اليها بعدئذ في كتاب كما سنبين في حينــه ثانيــا .

٢ ــ ان هذه الرسائل عندما نشرت في (الآثار) لم ترتب وفق تسلسل تواريخها ، وانما وفق مقتضيات ادبية وتقنية ارتآها الدكتور ابراهيم

الكيلاني الذي اشرف على جمع (الآثار) وكتب دراسة وافية عنها كمقدمة ومدخل للاحاطة او الالمام بعالم الشاعر ومعرفة نبذة عن حياته والمدرسة الفنية التي ينتمي اليها ، ولو شئنا ان نرتب الرسائل تبعا لتواريخ كتابتها لخرجنا بالنتيجة التالية : الرسالة الاولى /٧/ آب والثانية /١٦/ آب والثالثة /١٨/ آب والرابعة /٢٤/ آب والخامسة /٩/ ايلول والسادسة /١١/ ايلول والسابعة /١٦/ ايلول والثامنة /١٨/ ايلول ، من العام المشار اليه في الفقرة الاولى وهذا يقودنا الى الاعتقاد ان عبد الباسط كان يراسل صاحبته كقارئة اكثر مما كان يراسلها كصديقة او حبيبة ، اذ ان هذا التلاحق المبين اعلاه في كتابة الرسائل وارسالها ليس طبيعيا ومالوفا في العلاقات العاطفية المتعارف عليها في البيئة الشرقية المحافظة التي نشأ فيها وعاش الشاعر المرسل والمرسل اليها ايضا ، فالهدف من كتابتها اذن هدف ادبي واضح اكثر بكثير من كونه هدفا عاطفيا غراميا في رأينا .

٣ ــ اننا لا نقع في هذه الرسائل على صورة المراة التي يكاتبها عبد الباسط ويبثها حبه في ثنايا سطورها فلا تظهر لنا شخصيتها كمتفاعلة بهذا الحب متجاوبة مع محبوبها ، وانما نقع على امراة هلامية غامضة الملامح منعدمة التصرفات فاقدة المواقف ، مجهولة التفكير ، خيالية ، سماوية ، كأنها ليست من لحم ودم ومشاعر وأحاسيس او كأنها لا تمت الى عالم البشر والانثى منه خاصة بصلة ، يخاطبها الشاعر فيعرض امامها بالاضافة الى بث حبه لها امداء ثقافته فيحدثها عن أصدقائه من شعراء حمص وقصاصيها ومثقفيها كوصفي قرنفلي وعبد السلام عيون السود ، ومراد السباعي ومحمد روحي فيصل واحمد الحاج يونس الخ ويخبرها بشروعه في دراسته بشكل جدي لبرنامج فحصه الجامعي ويصف لها فوضى حياته وقلقه النفسي ويعبر لها عن رايه في الجمال وفلسفته للحب وعن تصميمه على الصمود امام عواصف الحياة والقدر وتصاريف

الزمان التي تلطمه ويصل به الامر الى أن يكتب لها رسالة مؤلفة من احدى عشرة صفحة من قطع (الآثار) الكبير هي المؤرخة في /١١/ ايلول يشرح فيها موقفه من برنامج (اللجنة التحضيرية لمؤتمر الكتاب العرب) الذي عقد في دمشق عام ١٩٥٤ : ان هذه الرسائل باختصار ادب اعترافات رومانسية من طراز رفيع وموهبة عالية ونبوغ مبكر .

٤ ـ أما الرسالتان المؤرختان : لابي ١٩٦٠/٥/٤ ولابي ١٩٦٠/٦/٥ فهما موجهتان الى صديقه المحامي الاستاذ غسان طه وقد قرأتهما شخصيا عند وصولهما الى حمص وهما تدوران حول عالم الغربة الذي يعيشه الشاعر في (غينيا) التي سافر اليها في بعثته التدريسية ولقي مصرعه بالانتحار فيها .

وحدث انه في اثناء شروعي بتأليف هذا الكتاب(١) عن عبد الباسط الصوفي ودراسة شخصيته وتراجيديا انتحاره وشعره الرومانسي مضمونا وشكلا كان لابد لي ان اتصل بمجموعة من اصدقائه في مرحلة أواخر الاربعينات ومطالع الخمسينات من هذا القرن لأستكمل جوانب بحثي وفعلا قمت بهذه المهمة وكانت لي اتصالات نافعة وايجابية بمجايلي عبد الباسط ورفقائه في المدرسة ومراحل التعليم وكان على رأسهم صديقه الحميم الاستاذ احسان ارناؤوط حيث وجدت لديه اصول ثماني رسائل بخط الشاعر وجهها لصديقته (س) اما التاسعة فهي موجهة لاستاذه المرحوم سامي الدروبي واكثر من عشرين قصيدة من شعره الجيد غير المنشور اطلاقا ظل يحتفظ بها جميعا هذا الصديق الحريص قرابة عشرين عاما وقد ذكر لي في سياق الحديث ان عبد الباسط كان يزوره في منزله

(١) هذه الرسائل هي الفصل الاخير من كتاب مخطوط أعده الكاتب بعنوان (عبد الباسط الصوفي : الشاعر الرومانسي ـ دراسة في حياته وانتحاره وشعره) .

ويجد في غرفته جوا شاعريا موحيا وملهما فيروح يأخذ بكتابة القصائد او بتدوين الرسائل وبعد أن ينتهي منها يترك صورة عنها بحوزة صديقه المذكور (الذي كان يطلعه على بعض اسراره ويثق به الى حد كبير) للذكرى وللتعبير عن مدى الصلة الحميمة التي تربط بينهما فما كان مني والحالة هذه الا ان استسمحت الاستاذ ارناؤوط بتصوير هذه الرسائل واحتفظت بنسخة منها ومن خلال تدقيقي بها امكنني ان اعثر بالنتائج والملاحظات التالية اجملها مختصرة فيما يلي :

١ ـ ان هذه الرسائل مغفلة جميعا من التأريخ ما عدا واحدة وقد حاولت في تعليقاتي على كل منها ان أحدد جهد المستطاع وكلما امكنني ذلك تأريخها التقريبي من خلال مجريات الحوادث فيها .

٢ ـ ان المرأة المخاطبة في هذه الرسائل امرأة حقيقية ماثلة لها تصرفاتها ومواقفها وافعالها ، فعبد الباسط هنا في هذه الرسائل يكاتب محبوبته كانثى ، كانسانة كواحدة تشبه بنات جنسها ، يتقرب اليها بشتى الوسائل ومختلف السبل لتتعاطف معه ، وليس كقارئة يهمه منها على الإخص ان تعجب بأبعاد ثقافته ووعيه الفكري المبكر لذا كانت صراحته فيها مطلقة لانه لم يكن لينتوي أن ينشرها كسابقتها المار ذكرها آنفا ، فاطلق نفسه على سجيتها وقلمه على حريته ، وحبه على مداه .

٣ ـ من واقع تمحيصي في اصول هذه الرسائل صادفت بعض الاخطاء النحوية والاملائية الطفيفة التي كبا بها قلم الشاعر من جراء السرعة في الكتابة على الاغلب كما يوحي بذلك الخط المشوش المتعجل فقمت بتصحيحها كما لاحظت ان اسلوب عبد الباسط فيها ليس على درجة الجودة والنقاء التي شاهدناها في الرسائل المنشورة في (الاثار) والمعدة بالاصل للنشر فهو يكرر مثلا تكرارا زائدا ولافتا للنظر في الصفحة الواحدة وبين السطر والاخر كلمات بعينها ك (عميق ـ عنيف متألم الخ .)

بحيث بدا انها فقدت مدلولها وتأثيرها وفاعليتها من جراء هـذا التكرار المؤذي الدال على فقر معجم الشاعر اللفظي في مرحلة كتابته لهذه الرسائل.

٤ ـ لا تشير هذه الرسائل شأنها شأن الرسائل المنشورة في (الآثار) الى ان الشاعر كان يتلقى ردودا عليها من محبوبته ؟ .. او انه يتلقى منها جوابات ولكن لم يجد فيها ما هو بحاجة الى الرد او التعليق .

٥ـ بعض الرسائل منته وبعضها الاخر ليس منتهيا ولعله يكون قد انهاها في مبيضة الرسالة .

٦ ـ حاولت ان ارتب هذه الرسائل قدر الممكن ترتيبا متسلسلا تسلسلا زمنيا مستعينا بما توحيه مواقفها واحداثها اولا وبما يذكره الشاعر من تحديد لسنوات علاقته بمحبوبته ثانيا .

٧ ـ يبدو في الرسالة الاخيرة من هذه الرسائل والموجهة الى استاذه سامي الدروبي ان الشاعر كان يفكر في ان ينشر رسائله السابقة التي تضمنتها (الآثار) في كتاب مع بعض من شعره بعد ان خيل اليه ان صلته بحبيبته قد انتهت حيث نراه يوكل هذه المهمة الى الاستاذ الدروبي لانه اعرف بها واقدر عليها .

وبعد ... فعسى أن يكون في نشر هذه الرسائل ما يلقي ضوءا جديدا وانارة كاشفة لجوانب غامضة ومناطق معتمة من حياة شاعرنا الراحل عبد الباسط الصوفي وشعره ولعلي بتقديمها في هذا الفصل اكون قد اديت خدمة لدارسي ادبه اولا ولقرائه ثانيا ، والشكر يبقى اولا واخيرا للاستاذ ارناؤوط الذي ساعدني وسهل مهمتي ولم يضن علي بشيء .

٢ ـ الرســـائل :

« رسالة اولى »

صديقتي ..

ربما تدهشين لكثرة رسائلي اليك ولكنك لو تطلعين على ما يجـول في اعماقي لوجدت لي العذر في ذلك . طالما تمنيت أن اتسلل من نفسي لاشعر بالهدوء والراحة . طالما تمنيت ان اندفع بقوة نحو المجتمع ولكني لا استطيع كانما خلقت للالم وللوحدة . كلما رجعت على جناح الذكرى احلق في الماضي واتصفح حياتي ترفرف اشباحه الغائرة وتحتضن ـ ظلامه الدامس فأعود لاحمل قلبي ولاحاول النسيان انها نتيجة رهيبة تلك التي وصلت اليها . انني اسخر من كل شيء حتى من وجودي انني استهتر بكل شيء حتى بنفسي . آه لو تدرين يا صديقتي ، اني اعيش في بوهيمية قاتمة اتأمل واسخر واغوص في مجاهل الفكر والوجـدان لأرجع باللاشيء ولكنها بوهيمية الروح اذا جاز لنا التعبير لا تظني بهـا الادمان على اللذات البهيمية والاستهتار بكل القيم الاخلاقية والانكباب على الجسد بل هي تعبير قوي عما تشعر به روحي ، أعني قواي الروحية تلك التي اكتسبتها من انعزالي . هكذا انا احيا حياة صوفية عميقةضمن هذا التأمل البعيد ... الالم الداخلي هو تلك القوة الخالدة التي تجعلنا نحس بقيمة انفسنا فلنبارك هذا الرباط المقدس الذي ربط قلبينا . يقول الفرد ديموسيه :«لا شيء يجعلنا عظماءكألم عظيم ». لعلك لاتضيقين بحديثي . رأيت في وجهك العزاء ولمست فيك التضحية الكبيرة وثقـي يا (س) ان هذا الشعور النبيل ـ ولا اظنك الا تعتقدين انه نبيل ـ احمله لك من سنين طويلة منذ ان كنت طفلة ... عشت معككطيفوالان اعيشي معك كحقيقة ، كنت لا اتوقع ان اكتب لك بشيء عن هذا ، ولكنه

القدر بمنطقة الغريب . اجلسي يا (س) لاقص عليك قصة شاب حمل اكبر مأساة .. شاب شاذ في تفكيره وعواطفه ، ذي حساسية عنيفة وشعور حاد .

يقول « هيجل » « ان اصدق لمحة في طبيعة الكون انما هي المآسي العظيمة » . وامامك مأساتي : جاء الي اخي الكبير منذ ايام وقادني الى والدي ثم قال له : (ما سبب سعاله الشديد اني ارتبت في امره لقد بدات اشعر ان رئتيه تتمزقان وابصرت كأن هناك بقعا من الدماء في بصاقه وقد شكا الي احد اصدقائه سعاله الحاد ، وقال انه هو الاخر يرتاب في الامر) .

كنت ادرك ان قواي الجسدية ستنحل وكنت اعلم ان لمقاومتي حدا يجب ان تقف عنده فهل مشى الي الفناء بصمته الرهيب يجر وراءه مصيري التاعس ؟ والحقيقة انني شعرت انني تحت وطأة سعال شديد وان احشائي تتمزق ... « انه مسلول ... يجب ان تأخذه الى الدكتور » قالاها بحزن عميق . ولكني تشجعت وقلت ليست الا (رشحة) بسيطة عابرة لا تستلزم كل هذا العناء ، ولكنهما أصرا وقاداني بالرغم مني الى الدكتور .. الى الرجل الاخر الذي يسدل الستار على المأساة .

ومشيت في طريقي .. اني لم اكن خائفا ولا آسفا ، وكل ما كان يبدو علي سخرية عميقة .. وتراقصت امامي صورة ،« شوبان » ذلك المسلول الخالد .. وتناهت الي من آفاق الذكرى البعيدة الحانه التي يصور بها نفسه وهي تحتضر على فراش الالم وتستشري فيها جراثيم السل الفتاكة . كنت اشعر كأنه يمد الي يديه من وراء السنين يصافحني ان صدى انغامه يملأ نفسي .اشباح رهيبة تعصف براسي وها انا امضي كما يمضي الشعاع الضئيل الخافت من سراج الحياة ولكن لامض كالعاصفة تزمزم في الفضاء وتترع الزمن بأصواتها المخيفة وتجعل الاجيال تهتز

خشية ورهبة .. لن اكون موجة صغيرة من مويجات الحياة بل تيارا ضاجا يجرف امامه العصور منحدرا من اعلى الجبال الى الرمال المبعثرة فيعصفها بوحشية عنيفة . لا ... لن امضي بهدوء .. وافنى بصمت !؟.

واخيرا وصلنا الى الدكتور ، واسر ابي باذنيه بضع كلمات ، فنظر الي نظرة طويلة وطلب مني أن انزع ثيابي وبدأ يجس نبضي ويمعن ويدقق في فحص هذا الهيكل العظمي النحيل ، وبعد مشقة رفع راسه ليدلي بالنتيجة الحاسمة وشعرت بابتداء المهزلة او بانتهائها من يدري ؟! .. واذا به يقول : ان القلب سليم والرئتين سليمتان ولكنه بحاجة الىالراحة والاستجمام ونظر في وجه والدي نظرة ذات معنى فابتسم في طمأنينة وعدنا ادراجنا يخيم علينا الصمت ولم استغرب وكل ما تذكرته قلبك الكبير فاذا بدموعي تتساقط بغزارة فأحاول اخفاءها . ان الاخرين لا يفهمون الدموع اما انت فتدركين من خلالها اني ابكي لطيفك الجميل ، اهنئه بالنتيجة . ان الانسان عندما يشعر بوجوده يغنى ضمن وجود اخر قد تأخذه نشوة علوية ولا يستطيع أن يعبر الا بالدموع . الدموع لغة النفس الخالدة وابتسام الاله ،هذه دموعي يا (س) تعبر بصمت مريع عن آلام سنين طويلة حملتها في اعماقي . انت المراة الوحيدة التي عشت لها واشعلت عبر قلبي الاحساس القوي بقيمة الجمال الحي . الجمال نغم سماوي يملأ النفوس الشاعرة ويبعث الحياة في قلب الطبيعة فتدفق زهورا ساحرة وتندفع ظلالا قدسية يلفها غروب الشمس وترتعش همسة عميقة بين حفيف الاشجار .

ما زلت اتذكر ... كنت هائما على وجهي .. اعاني كبتا قاسيا من جراء صدمة عنيفة واذا بي اراك تسيرين . لا ادري لماذا التقت نظراتنا البريئة العابرة ؟ .. لعلها المصادفة .. ولعله القدر الساخر العابث ؟ شعرت بالاطمئنان .. وابصرت في وجهك الهادىء الصغير الطهر والبراءة .. اردت أن اطرد بقسوة صورتك من مخيلتي لكنني لم استطع .. كنت أجد فيها العزاء والسلوى لي انا الطفل المتألم ..

كان الوطن والامة كل شيء يحتل تفكيري . انصور آلام الامة وصراعها مع قوى الاستعمار فلا املك الا البكاء وكان ذلك دافعا لما انتجته في طفولتي الادبية لم اكن انظم الا في الاغراض القومية فاصور آلام امتي بما يستطيع الطفل تصويره ولا ازال اذكر هذا البيت :

ابناء يعرب هبوا من سباتكم　　الله اكبر بيت القدس نادانا

لم اكن اعلى ان تلك الحادثة البسيطة(١) التي يمكن ان تقع دائما ستكون سببا في خلق اكبر مأساة وجدانية في نفس ذلك الفتى الهزيل الحساس الرقيق الشعور . لقد حاولت ان انساك بكل ما استطيع فلم افلح لقد عهدت في نفسي قوة الارادة فما بالها تضعف وتخور ؟ .. في وسط هذه الفوضى العاطفية كنت اهرب من نفسي واتكب على المطالعة بشدة لعلك تذكرين كذلك تلك الحادثة . ارجعي بذاكرتك الى سنين ثلاث او اربع خلت وتذكري جيدا عندما جريت وراءك واسمعتك بطريقة بضعة ابيات من الشعر سخيفة ، لقد ابديت كل شجاعة واحتقار فلم تنصتي وكان عملي جريئا بالنسبة الي خارجا عما الفته من نفسي . انطويت على ذاتي ورحت اؤنبها بقسوة وشهدت صراعا عنيفا من جراء ذلك ؛ ومررت بتجربة قاسية لكوني مثاليا ومرت الشهور والاعوام وهذا الشعور يقوى ويملأ كل وجودي وابدا كنت المراة الوحيدة التي ترامیت على طيفها . وكم كانت تمر الساعات الطوال وانا في غمرات عنيفة من الالم المرير اتقلب على الفراش و ... في سكون الليل عندما يرتد القطيع ينبعث من اعماقي صوت خافت محموم ينادي (س ... س) والدموع تنهمر بغزارة فتبلل وسادتي الملتهبة وكنت قلما اراك فلا اظفر الا بنظرة حائرة وكثيرا ما يدفعني الحنين الى البحث في عيونك عن سر تلك النفحة الروحية

(١) لعله يقصد ب « الحادثة » لقاءه المصادف بمحبوبته ...

التي جعلتني اقدسها واعبدها ولعلك كنت تدهشين من تصرفاتي الغريبة وكثيرا ما احاول الابتعاد عن هذا الذي ابتدأ فيه هذا الشعور يشتد ويقوى علي اظفر بشيء من السلوان ولكني اعود الى عذابي الاول بصورة اعنف من قبل .

تعليقات على الرسالة :

١ ـ نغمة العزلة والوحدة والالم والضياع وعدم التلاؤم مع المجتمع غالبه على الرسالة ، مسيطرة على سطورها وهذا مما يؤكد منزعا من اهم منازع عبد الباسط الرومانسية وهو الشعور بالغربة الروحية .

٢ ـ يلحظ من الرسالة ان عبد الباسط يحاول ان يستميل عواطف صديقته اليه عن طريق الشفقة عليه والتلهف على صحته من خلال ظن اهله وظنه بانه مريض بالسل ويقرن نفسه مع العظماء كشوبان « ذلك المسلول الخالد » حسب تعبيره . انها ظاهرة من ظاهرات رومانسية شاعرنا : الاحساس بتضخم « الانا » وانتفاخ الشخصية .

٣ ـ تطلعنا هذه الرسالة على حادثة هامة جدا توضح لنا بداية قصة حب عبد الباسط يرويها بلسانه وتدل على جراته ومراهقته معا ألا وهي جريانه وراء فتاته في الشارع واسماعها ابياتا من شعره يتغزل فيها بها ومن ثم تأنيبه لنفسه بعد أن صدته « حبيبته » بقسوة لانه يعتبر شخصه مثاليا فكيف حدث واقترف عملا يخدش مثاليته .. ؟! . هذا ما يؤلمه .

٤ ـ يحرص عبد الباسط على ترشيح نفسه عند صديقته محبوبا عن طريق اظهار ثقافته امامها من خلال رسائله اليها فيذكر فيها أسماء العباقرة من الفلاسفة والادباء والفنانين ليوهمها بوعيه المبكر كذكره في هذه الرسالة الفرد دي موسيه وهيجل وشوبان .

٥ ـ بالدموع والبكاء ابتدات الرسالة وانتهت ولا يوحي نصها بأنها منتهية ـ انها حالة العواطف الرومانسية المتهالكة التي طبعت عبد الباسط بميسمها .. تراه كان يبكي حقا أم انه يتظاهر بذلك ليستجلب نظر الحبيبة الصادة ويلفت اهتمامها اليه ؟! .. لا ندري ؟! ..

رسالة ثانية

صديقتي ...

هذه بضعة ابيات من الشعر الوجداني أقدمها لك كما وعدتك ذات مرة مطمئنا الى تلك الروح الجميلة التي غمرتني بها مدة اقامتك في « فيروزة » وانا اقاسي ازماتي الوجدانية ويوجد فيها قصائد قديمة وحديثة ولعلك قد تلمسين الفرق الواسع بينهما الذي هو نتيجة لتطوراتي العنيفة .

سألتني ذات مرة فيما اذا كنا نستمد من خيالنا تلك الصور الشعرية فنتخيلها ثم نبدأ بنظمها أم هو دافع نفساني جبار وقلق عنيف ملح في أعماقنا نحن الفئة التعسة البائسة الذي يجعلنا (اوسكار وايلد) رمزا لأسرار الحياة ؟.. هذه المشكلة هي من اخطر المشاكل التي نعانيها نحن الشرقيين في ادبنا الهزيل المجدب ، وان الشيء الذي ادعو له وأتفانى في الدعوة اليه هو انتصار (النزعة الوجودية) في الادب العربي المعاصر .

لم يزل شعراؤنا يضيعون وراء الالفاظ ويميتون كل مادة غنية خصبة الروح والعاطفة ذلك لبعدهم عن هذا النوع الوجودي الذي نلمسه جليا في ادباء الغرب . انظري مثلا الى « شيلي » و « بايرون » هذين الضميرين اللذين حملا أعنف واقع (سيكولوجي) نفسي وتعرضا لنقمة المجتمع وامعني النظر في تلك الحياة المضطربة العنيفة التي عاشاها والتي كانت

مادة خصبة دفعتهما الى التعبير عنها بانطلاق قوي ، بعيد كل البعد عن ذلك الانطلاق الهزيل الذي تنطلقه الروح الشرقية والذي يضيع ويتلاشى وراء الالفاظ .

ولعل الوجدان العربي بدأ يستيقظ ويتفتح لنقطة الانطلاق الجوهرية من جفافه الروحي وجدبه العاطفي الى عالم أوسع مفعم بالخصوبة الذاتية وان الدافع العميق الذي يكبل الروح العربية ويمنعها من الانعتاق لكي تفهم الحياة فهما صحيحا كاملا هو عدم اشراك المراة في صراع الوجدان العربي والى الانطلاق من واقعنا الفقير المقفر . ومن المؤسف ان نجـد المراة العربية اليوم والتي جاهدت لتحصل على نصيب وافر من الثقافة والوعي ـ لم تتمكن من أن تؤدي الرسالة الملقاة على عاتقها فهي لم تزل الى اليوم مقيدة بسطحية التفكير مبتعدة عن الحياة كل البعد وهذا بدوره ما ابعدني عن المراة وجعلني انفر منها بقسوة فكل المجتمعات النسائية من ثقافية واجتماعية لا تتعدى تلك الاشياء التقليدية فهذه تقص قصة فستانها الجديد واخرى تتكلم عن الوان الطبخ وتلك تتحمس لأحد الافلام واخرى تغتاب معارفها ، وانت ادرى مني في هذه الامور . اذ ... لم يؤد تثقيف المراة في مجتمعنا الى اي نفع يذكر ، ولكن هنالك كلمة حق اريـد ان اقولهـا لك بصراحـة : انك شاذة بعض الشذوذ باعتبـارك (بروتستانتية) أولا ثم انك قد قاسيت كثيرا من المجتمع ، وتحررت بعض التحرر عن مستواه وان تلك الفترة القصيرة التي قضيتها معك كانت كافية لتجعلني المس منك هذا الشيء ولكنك ما زلت الى حد كبير عبدة لتفكير مجتمعك المريض وهذا ما فهمته من عدم استيعابك لتلك الابيات التي قراتها لي بالرغم من انني لست ذلك الذي يستحق كل هذا العناء لأني ما زلت ناشئا وينقصني الشيء الكثير ، فقصيدتي ـ (امراة) كما قلت لي لم تستطيعي ان تستوعبيها مع انك اقرب الناس الى فهمها .

لست ادري تماما وبوضوح اي دافع جبار دفعني لأخط اليك هذه السطور فقد تكون الصداقة ولو بهذا الشكل العفوي الذي كان طبيعيا بعد تلك الحادثة المشؤومة او لعلها السعيدة ؟ أو لعل السبب في ما لمسته منك من استعـداد لكي تكوني الصديق العميق الذي يشاركني في تلك الازمات الحادة المزمنة التي تنتابني والتي اظل منها في هذيان مستمر . انني بحاجة الى ذلك القلب الذي التجيء اليه عندما يعصف بي الحنين ، حنين الضمير المتالم الشاعر المتفتح على يقظة الجمال الحي في الوجود . فهل تجدين الثقة الواعية في نفسك لتقويمي بدور الممرضة الروحية في حياتي . ها انذا امد اليك يدي من بين الضباب لاصافحك المصافحـة الودية العميقة تحت ظلال صداقتي البريئة .

انني لم ازل افنى في تلك الدائرة المغلقة وهي ذاتي دون ان انطلق الى الحياة لأشارك الآخرين في ماساتهم الوجودية . آه يا (س) لقد ضقت بوحدتي الخرساء وبعزلتي الوجدانية التي جذبني اليها (طاغور) بخيوطه السحرية ولكن الفوارق الابدية بين الانسان والانسان هي التي تدفعني الى الوحدة « هكذا يقول نيتشه » « الخالد » ولعله تبرير عميق لوحدتنا نحن الفئة البائسة في الحياة . اجل اننا في جوهرنا نعيش في وحـدة مخيفة لا تقدر كما يقول (ريلكه) .

هل تجدين الثقة في نفسك لتنطلقي من مجتمع المراة الشرقية في هذا العالم الذي خلقته انا من دموعي وآلامي الى تلك المثل العليا التي وجدتها في اعماقي ؟ اليس الألم هو ينبوع حي من ينابيع الحيـاة كما يقول : « نيتشـه » ؟ هل تمدين يدك الي انا التائه الضارب في بيدائي لأجد في صدرك الحنان ، الحنان العميق حنان الأم نحو طفلها المريض وحنـان الصديق نحو صديقه المتالم ، وحنان الاخت نحو اخيها الحائر ؟.. انني في اضطراب جامح وقلق مستمر لا أجد ذلك التركيز المنطقي في عواطفي وهذا هو مركب النقص الذي اقع فيه والذي يلمسه كل من اعجب بي .

انني في جميع قصائدي قد فقدت كل انسجام وتركيز لأن حياتي نفسها في هذه الفوضى الوجدانية وقد لمست بنفسك ما اعانيه في اسرتي التي هي صورة مصغرة عما اعانيه من هذا المجتمع . لم اجد الى الآن الصديق الذي يفهمني حق الفهم لعلك يا (س) هذا القلب المنتظر الذي أحن اليه بلهفة ، على ان حياتي لم تخل من بعض القلوب التي شملتني بعطفها وحبها . تكلمت اليك ذات مرة عن الاستاذ (سامي الدروبي) ذاك القلب الذي فهمني او الم بي بعض الالمام . لم انس منــه ذلك الموقف الجميل اذ كنا نسير وانا اسمعه بعض الابيات بصوت متهدج فاذا بدموعه تتساقط بغزارة فتناول منديله يكفكفها ، واذا بي لا استطيع المقاومة فراحت دموعي تنهمر انا الآخر والناس يمرون بنا متعجبين . كان كل منا يعرف ان الآخر يبكي ولكن لا أحد منا ينظر الى صاحبه . لقد كانت لحظة خالدة مليئة بالعواطف والمشاعر السامية . الا ان الاستاذ سامي ابتعد عني وكان هنالك ثمة ما يشغله : امرأته وبيته ومهنته كاستاذ في الجامعة السورية .

اما القلب الثاني فهو (انعام)(١) ذلك القلب العنيف الذي شملني كذلك بحبه وانا سوف اذكر دوما تلك اللحظات الجامحة التي كنا نعاني فيهــا الازمات القوميــة . الا ان انعــام لم يستطع ان يستوعبني تمام الاستيعاب اذ ظلت هنالك نقطة غامضة لم يتمكن ان يفهمها في نفسي مما دفعني الى البحث عن قلب آخر لكنني لا يمكن ان انسى انعاما فهو انا حينما تنتابني ازمات قومية حادة .

ان قلب الشاعر قطعة من الله ... انظري في تجدي آلام سنين طويلة كنت أعانيها وحدي تريد ان تنطلق الى قلب يفهمني حق الفهم ، قلب

(١) المقصود (انعام الجندي) .

الصديق المنتظر ومع الاسف كانت آلاما كلها سلبية غير منتجة لاني لم ازل في انطوائيتي العنيفة اصطدم بصخور نفسي قال لي انعام ذات مرة : انك لم تعبر الى الآن عن قلقك . انت تعاني فردية مخيفة . لماذا لا تخرج عن عزلتك ؟ ولكن انعام بالرغم انه قد اكتشف بعض النواحي الغامضة المظلمة في نفسي الا انه لم يستطع ان يتبين الاجزاء الاخرى بوضوح فهو يرى في مظهري السذاجة القائمة وفي اعماقي الالم الذي اقلقه بنفسي ، على حد تعبيره ، ولكني لم احسن التعبير كما اني قد لا احسن التعبير امامك ولكني قد اجبته بكل بساطة وهدوء : مهما يكن يا انعام فهو نوع من الخصوبة العاطفية ولو انها سلبية الاتجاه لم تخرج من ظلالها الدامسة . لا اريد ان اقع في الفقر العاطفي . ان هذا هو الموت بعينه فما كان الا ان سكت وامعن في سكوته .

اما القلب الآخر فهو عبد الفتاح(٢) الذي هو اسم غريب عنك ــ لقد ظل هذا القلب يراسلني لمدة سنتين واراسله دون ان يعرف احدنا الآخر. لقد كانت صداقة غريبة من نوعها . لقد كنا نعاني اشد الازمات القومية كذلك واذا عدت الى رسائلنا لوجدت فيها هذا الالم العميق وكان عبد الفتاح معجبا الى حد الجنون (؟!....) .

ثم كان لقاؤنا بعد ذلك غريبا حينما ذهبت الى دير الزور وكان اخي (صاحبنا)(٣) يدرس هناك . لقد شهدت دير الزور أقسى مراحل حياتي عنفا وازمة ولكن قلب عبد الفتاح جعلني اشعر ببعض العزاء ومنعني من الاتيان بعمل جنوني هناك ولطالما داعبت مخيلتي فكرة الانتحار في مياه الفرات . كنا مرارا نقف على الجسر الضخم حيث يلفنا الصمت والنظر الى الافق البعيد .

---

(٢) لم اعثر بالاسم الكامل له وواضح من خلال السياق انه لم يكن من سكان حمص ..

(٣) يقصد بـ (صاحبنا) شقيقه اسماعيل الصوفي .

ما اسخف فكرة الانتحار يا (س) انني امقتها اشد المقت بعد ان كنت اقدسها في الماضي . لماذا اقف امام الحيـاة ذلك الموقف السلبي الانهزامي ؟.. علي ان أقتحمها واهتف بلسـان « زرادشت » « اذا كانت هذه هي الحياة اعدها مرة اخرى » . لقد بعث في نيتشـه قدرة غريبـة وبث غريزة الصراع في اعماقي فلن استسلم ولن انهزم . ارجو عـدم المؤاخذة لاني تكلمت عن نفسي كثيرا . ان نفسك كذلك يا (س) قامت على عنصر المأساة قبل كل شيء حدثيني عن نفسك . عن آلامك لأحدثك عن نفسي وآلامي لعلهما ترتبطان برباط مقدس ورباط الألم العميق وامامك الآن تلك القصائد التي ارسلتها لك بالبريد وكنت اريد ان ارسلها لك مع (جودت)(٤) ولكن رأيت البريد افضل ؛ فماذا ترين انت ؟.. ربما يكون هذا التحرير عملا جريئا فيه شيء من الوقاحة بنظرك كامرأة تعيش في هذا المحيط المغلق الجاف ولكني رأيت منك بعض التشجيع البريء ولعل هذا التشجيع لم يكن الا بدافع المجاملة الاجتماعية أو واجب الضيافة ومهما يكن لقـد فتحت امامك الطريق فامـا ان تسلكيه بجراة وتسخري من التقاليد واما ان تظلي بهذا الفقر الروحي ولا تنسي انك بروتسـتانتية وانت تعلمين بدون شك ما تحوي هذه الكلمة (البروتستانتية) من تمرد وعنف امام التقاليـد البالية وانا قـد نذرت نفسي لأكون البروتستانتي الاول للبروتسـتانتية وربما كان فهمي يختلف بعض الاختلاف عما يفهمه الآخرون بل والبروتستانتيون انفسـهم وربما بدا ذلك غريبا في نظرك ....

واخيرا هذه هي الرسالة الاولى تنبىء عن فجر حضارة جديدة في قلب شاب شاعر متمرد وقلب فتاة قسا عليها المجتمع لا لشيء الا لانها تحررت بعض الشيء .. وانا امنحك الفرصة الكافية لتفكري ... فربما

---

(٤) هو شقيق (س) .

تمزقين هذه السطور وتقذفينها في وجهي بشراسة وقسوة ولكني انا الذي كنت اطلب منك (القسوة) وربما تجدين فيها شيئا من القبس في الظلام الدامس فتسرعين اليها وربما تحاربن من هذه وتلك ولا عجب فانك امرأة حملت مأساة التوزع وانا الذي عبر عنك باسم (المرأة) ومع الاسف لم تفهميها حق الفهم او هكذا تتظاهرين .

وقد ارسلت اليك قصيدة (توبة)[١] وهي حديثة العهد وتعبر بعنف عن واقع نفسي جبا لك فيه اوثق الاتصال ثم القصائد الباقية وكلها قديمة منذ سنة او اكثر . انعمي النظر فيها وكوني جريئة . اريد ان ارى رايك فيها ، والحقيقة انها ليست جميعا مما يطرب لها الانسان ولكن فيها نوعا من الحقيقة ، حقيقة نفس متألمة قلقة .

انظري في الملحمة[٢] وقد نظمت فيها (٥٠٠) بيتا في اسبوعين وهي نصف الملحمة تقريبا وكان المتفق ان يقدمها (ابو ريشة) . انظري مدى عنايتي فيما انتجته بل انظري اي عالم كنت اعيش فيه محلقا في الميثولوجيا اليونانية بعيدا عن الواقع الذي اجد الآن عناء كبيرا في التلاؤم معه ثم انظري الى راهبة الليل في هذه التراجيديا القومية ثم الى ذلك (الحائر) ثم الى التوبة الصارخة التي تعبر عن عذاب الضمير ولعل هذا ما يقربني الى الرومانتيك[٣] امثال بودلير وكيركجورد . ولكن هنالك نقطة جوهرية تبعدني عن الجو الرومانتيكي وهو اني اكره الماضي بينما نجد الرومانتيكية تتعلق بأذيال الماضي وتقدسه وهذا ما يجعلني اقرب الى السريالية (السيرياليزم) والى « بروتون » .

---

(١) موجودة في (آثار عبد الباسط الصوفي الشعرية والنثرية) ص ١١٥ .

(٢) موجودة بحوزتنا وسنعمد الى نشرها في كتاب مستقل مع مقدمة تحليلية لها .

(٣) واضح ان الشاعر وقع في الخلط المذهبي في هذه العبارة ، فبودلير احد زعماء المدرسة الرمزية في الشعر الفرنسي .

واذا لم تستطيعي ان تفهمي بعض النقط فأنا مستعد لان اشرحها لك ولكن كل شيء فيها سيبدو امامك واضحا فيما اذا شرحت لك نفسي شرحا مستفيضا ولعلك لا تمانعين في ذلك وختاما أرجو عدم المؤاخذة فقد أطلت كثيرا وتقبلي اسمى تحياتي يا ممرضتي الروحية .

(ص) ....

اطلب منك بحرارة ان تفهمي نبل الغاية التي ارجوها من صداقتنا . امامك (زرادشت) لنيتشه اقرئي فيه بعمق موضوع الصداقة واعيديه مرة ومرتين وثلاثا الى أن تفهمي ما أقصد ، واذا كنت غير محتاجة اليه فخذي منه موضوع الصداقة ثم ارسليه الي لأني بحاجة اليه وربما أهديتك نسخة منه اذا سمحت بذلك .

المخلص
عبد الباسط

تعليقات على الرسالة :

١ ــ يظهر عبد الباسط في هذه الرسالة أمام صديقته داعية متحمسا للادب الوجودي ويحارب « اللفاظية » في الشعر العربي الحديث ويدعو الى ادب قومي عميق الفكرة .

٢ ــ يعزو عبد الباسط التخلف العربي في جانب من جوانبه الى عدم اشراك المرأة في « صراع الوجدان العربي » حسب تعبيره ويطالب بتحريرها من عالمها المغلق واهتماماتها السطحية ويأخذ على صديقته عبوديتها لتفكير مجتمعها المريض على الرغم من محاولتها الظهور بمظهر المتحررة من قيود المجتمع .

٣ ـ ان بحث عبد الباسط عن ذاته دائم الغليان وشعوره بالضياع مستمر . والرسالة تنبىء بانه يفتش عن صديق من جنس الرجال يفهمه فلا يجد لذلك يلجأ اليها لتكون صديقته وتقوم بدور « ممرضته الروحية » لانها قد فهمته بعمق وهذا مما سيخلصه من ازمة صدامه مع الواقع ويجعله يتلاءم معه .

٤ ـ يعترف عبد الباسط انه في جميع قصائده قد « فقد كل انسجام وتركيز (لان حياتي نفسها في هذه الفوضى الوجدانية) ومع ذلك يأخذ على صديقته انها لم تفهم قصيدته « امرأة » قائلا : « بالرغم من انني لست ذلك الذي يستحق كل هذا العناء لانني ما زلت ناشئا وينقصني الشيء الكثير » ويعود فيذكر ان صديقه (عبد الفتاح) كان معجبا به الى حد الجنون . تلك هي تناقضات ومبالغات عبد الباسط الرومانسية .

٥ ـ ان حديث عبد الباسط عن « الانتحار » في هذه الرسالة يوحي بانها مكتوبة عام ١٩٥٦ وهو العام الذي تخرج فيه الشاعر من الجامعة السورية وعين مدرسا للغة العربية في دير الزور .

٦ ـ يلحظ المرء ان عبد الباسط في رسائله الموجهة الى صديقته والمنشورة في (آثاره) بتاريخ عام ١٩٥٤ ينمي نفسه الى الرومانتيكية كمدرسة ادبية وها هو في هذه الرسالة المكتوبة الى (س) يضرب عن مدرسته السابقة ويلحق انتماءه الشعري الى (السيريالية) وبروتون بعد سنتين من رسائله تلك ؟.. اهي نزوة ام طموح ..؟.. على أرض الانتاج الشعري لا نجد اي ظل للسيريالية في اعمال الشاعر .

٧ ـ ما يزال عبد الباسط يحاول اقناع صديقته بأن تحبه عن طريق عرض قدراته الثقافية امامها فيجعل رسالته تحفل باسماء : اوسكار وايلد ، شيلي ، بيرون ، نيتشه ، طاغور ، ريكله ، بودلير ، كيركجورد ، بروتون .... علها تتحول من مرحلة الاعجاب به الى مرحلة حبه .

« رسالة ثالثة »

عزيزتي (س)

حينما تنطلق العاصفة من الافق البعيد او يسرع الراعي بقطيعه الى كهفه المظلم تسرع نفسي كذلك الى كهفها السحيق وتنزوي في ركن بعيد تناجي اشباحها الثائرة .

حينما تنطلق العاصفة تختفي تحت اجنحتها ذكرياتي خائفة مذعورة حاملة قصة حياتي الى الاجيال ... لقد حملت ذاتي افتش لها عن وجود عميق وانطلقت باحثا عن الابدية هناك لم اجد في مخيلة الزمن الا صورتك تنطبع على صفحات روحي فتملؤه كما تملأ الالحان ارواح الهائمين .

منذ سنوات اربع بينما كنت اسير هاربا من نفسي والوحشة المخيفة تعصف بي اذ برزت فتاة صغيرة نحيلة تمشي بهدوء وفي وجهها الرقيق كل معاني الالم والشقاء ... نظرت الي نظرة عابرة بريئة ثم تابعت طريقها .

لم ادرِ لماذا انحدرت دمعتان حارتان على وجهي الشاحب الصغير واضطربت نفسي ؟ لعل ذلك من تأثير الصدمة التي تلقيتها في ذلك اليوم أو لعله منظر تلك الفتاة الغريبة ... او لعله شيء مجهول لم ادر معناه ، ام لعله جميع هذه الاشياء .

كنت طفلا شاذا غريب الاطوار بعيدا كل البعد عما يحيط بي وكنت بحاجة الى صديق أركن الى حبه وحنانه ولكن لم اجد من يجدر بصداقتي فانطويت على نفسي اعاني مرارة الوحدة وكانت تملؤني اشياء عظيمة : الوطن والامة والشعب وكثيرا ما خرجت اتجول في البراري والقفار وبين الدموع الغزيرة كنت اصيح : وطني ، امتي ، شعبي .. انها لحظات انسانية خالدة كان يحياها ذلك الغلام الصغير ولا شيء يثير اهتمامه الا

هذه الاشياء النبيلة فيرتعش ارتعاشات عنيفة ويمضي .. وكثيرا ما كان يخفي دموعه عن الآخرين انهم لا يفهمون الدمعة ولا يدركون جلالها وروعتها واذا راوها تنحدر على وجنتيه يصيحون ويسخرون ويبحثون في قاموسهم عن كلمة يطلقونها عليه فيقولون : مجنون ايها العقلاء ... ربما كان من القرابة او من الوقاحة لا ادري الا يمضي على تحريري الاول مدة الا وارسل تحريرا ثانيا ولكن لا استطيع الكبت لقد رايت منك بادرة من التشجيع البريء الصادق والواعي في الوقت نفسه فانطلقت انطلاقا غريبا غير عابىء بالتقاليد الاجتماعية او البروتوكول الاجتماعي الذي امقته كل المقت .

حقا يا (س) اني الآن في امس الحاجة الى قلب صديق . لقد بلغت الازمة اقسى مرحلة ... اني بحاجة الى صديق يهديني سواء السبيل انا الضارب في بيداء الحياة فهل انت الصديق المنتظر ؟ ولكن ما هي الصداقة ؟ ... لقد عبر نيتشه عنها احسن التعبير كما اظن.وان كان في تحامله على المراة شيء من المغالطة ولكن ربما كان موقفه صحيحا فمن يدري ؟ .. والح في الرجاء مرة ثانية ان تقرئي موضوع الصداقة . بكل تمعن وروية .

البارحة .. استيقظت من نومي ورحت اتثاءب ببلادة سائرا الى النافذة وفتحتها لاطل على الطبيعة النائمة في احضان الفجر كانها عذراء يحضنها عاشق مدنف ... اشرقت شعلة الإله من اشعة الشمس التي افاقت على الكون وانسكبت شعاعا خافتا ضئيلا من النافذة على ارض الغرفة كأنه قبس الرجاء بين اسداف الظلام العابس ظلام اليأس المخيف ... شعاعا خافتا ضئيلا يعانق وحدتي الكئيبة فبعثت في اعماقي لذة عارمة وملات ذاتي ثقة واملا فانتصب كالجندي المتحفز واطبق على شفتي باصرار ... ها هو البلبل يغرد وتتناهى الحانه الجميلة فتطرق اذني فلا املك نفسي فارقص على النغمة الساذجة الفطرية التي لم تعبث بها يد

الانسان في مدينته الكاذبة .. بالله .. ان نغمة الطائر نغمة سماوية مقدسة ينطق بها جمال الطبيعة الخالدة وهي تضم ابناءها الى صدر من اللهفة والحنين . ان نغم الطائر ومضة خاطفة مشرقة في الفجر النائم الفاتر نغمة الطائر بعيدة عن تلك الآلة الصماء التي ابتكرها الانسان والتي خلت من كل عاطفة سامية وشعور ملائكي .

ما اجملك أيها الطائر الفرح .. لاتكن حزينا كقلبيَ القاتم . اجل ان لك قلبا كقلبي مليئا بالمشاعر والعواطف ولكن عواطفك اسمى من عواطف الكثير من ابناء الانسانية المعذبة . أيها الكون الحالم على عروش النور ... أيها الفجر المرفرف بأجنحة الضياء أيتها الازهار المتفتحة المطلة بحياء على همسات الندى العميقة أيها القدير الراقد في الوادي حيث ترقص الفراشات المرحة سوف انسى نفسي في هذه اللحظة السامية لعلها تنطلق بقوة وتمتزج مع انغام الوجود لحنا خالدا وتذوب مع أنفاس الرياض دفقة علوية وتمرح في نشوة البكور أمام الله العميق .

لا تصمت أيها الطائر سوف افتح دوما نافذتي لاسمع اناشيدك السحرية لا تطبقي ايتها الازهار اجفانك بفتور سوف اصلي وسوف تسيل صلاتي حلما رائعا بين اهدابك ينبض طيوفا بيضاء ناصعة وها انذا اسير اليك أيها القدير .

تعليقات على الرسالة :

١ ـ يبدو في الرسالة احساس الشاعر بتفرده وخلوه الى نفسه يستقي تأملاتها ، وبحثه الدائب عن المجهول ، عن الابدية عن المطلق و (تنفلش) « أناه » الرومانسية الى حد المرض عندما يقول : ان العاصفة تخفي تحت اجنحتها ذكرياته خائفة مذعورة « حاملة قصة حياتي الى الاجيال » وطبعا نحن نعلم ان قصة حياة عبد الباسط قصة عادية يمر

بها كل العشاق الحساسين وليس فيها شيء غريب صاعق سوى مأساة انتحاره التي تمت عام ١٩٦٠ في (غينيا) اي بعد كتابة هذه الرسالة بسبع سنوات تقريبا اذ ان ما جاء في سطورها يوحي بانها مكتوبة حوالي عام ١٩٥٣ .

٢ ـ ما يزال عبد الباسط يبحث عن نفسه من خلال بحثه عن صديق يفهمه وما تزال الدموع والعزلة والآهات هي سلاحه في الحياة وما يزال الحب او الصداقة ملجأه الاول والاخير .

٣ ـ في الرسالة انغمار في الطبيعة وتقديس لها وتصوف في عبادتها (الفجر ، الشمس ، البلبل ، الغدير ، الازهار ...) انها ملجأ اثير يلجأ اليه الشاعر بعد ان يئس من تحقيق الحب او الصداقة في واقعه وعالمه .

رسالة رابعة

عزيزتي (س) :

ياله من منطق هزيل لا يمكننا ان نواجه فيه قلوبنا التي تحس وتشعر وتؤمن ؟... وكم تمر بي الليالي وانا عاكف على نفسي اسألها اين انا.. والى اين اسير ؟.. اهكذا امضي واعيش مع طيف امراة ؟.. ايها الليل العميق ... انها الارواح القلقة هي التي تخفق في سكونك الابدي . الارواح التي لم تجد بعد ما يبرر وجودها غير الالم... الصامت الدفين.. ايها الليل العميق ، الضمائر المعذبة هي التي تنطلق باحثة عن الوجود الذي تركن اليه وتنفث فيه الحياة والخلود ، انها النفوس الشاعرة الحزينة التي تفتش عن الطيف المقدس وتجد في مناجاته العزاء . ليس العقل وليست الغرائز ما يجعلنا نشعر بالحياة الحقة، ان الحياة هنا، في الاعماق،

هنا في القلب النابض الزاخر بالحنين . قال « جيته » : لقد كانت شاعريتي تافهة طوال ان كنت اسعى الى سعادتي ولكنها صارت جذوة عاتية حين كنت افر من تهديد الشقاء . ان الشعر كقوس قزح لا يرتسم الا فوق سطح معتم ولهذا كان الحزن عنصرا مناسبا كل المناسبة للعبقرية الشعرية آه .. لماذا ابحث عن الحقيقة رباه ولماذا اتذرع بالمنطق ؟.. اين اجدها؟.. كلما غصت في اغوارها المظلمة احار بين ضبابها الكثيف واضيع . ايـن وجودي ؟.. لمن هذه الدموع الحارة ، لمن هذه الصلوات الملتهبة ؟.. انها من اجل امراة .. رحماك ايها المنطق .. انها امراة لم تهبني الا طيفهـا الشاحب وهكذا مرت علي السنون وانا في صراع عنيف تعس بين عقلي الذي قدس الطيف وكثيرا ما يدفعني الشوق فاسير هائما وامر أمـام بيتك الساجي في احضان الظلام وفي فيض من الدموع ينبعث صوت خافت محموم ينادي : (س .. س) ولازلت اتذكر ايضا تلك الليلة العاصفة المظلمة .. لقد رحت اهيم والسماء تقذف الى الارض بالصواعق والامطار ... والرعد يومض كانه يعلن غضبة الالهة بالسنة الجحيم .. رباه .. كل شيء يسخر مني حتى العقل حتى الطبيعة ، حتى نفسي . مسكين انت يا قلبي لن اتركك وحيدا في مهب العواصف ها اندا اسير معك ولن اسمع الا نداءك الحار .. ها أنـذا انطلق الى المكان الذي ترقد فيـه امراتك الخالدة .. وهكذا سرت أجرّ خطاي الحزينة والمطر يهطل بغزارة والريح تعصف بوحشية والدموع تسيل ... وكأن في صدري اتونا يشتعل وأمام بيتك لم استطع الوقوف فاذا بي اقع واتحامل فانهض واطبع على الباب قبلة طاهرة محمومة وبين العواصف وغضبة السماء ينبعث صوت خافت محموم ينادي (س .. س) ثم اعود متعثرا في طريقي .

كانت كل مقاومة ابديها تتحطم بسهولة .. كل ذنبي انني خلقت رقيق الشعور منطويا على نفسي متأملا في اسرار الحياة قبـل ان اعرفك كنت اعيش في فراغ كبير . لا لن يستطع قلب الشاعر الا ان يعيش على قلب

امرأة او طيفها على الاقل أو على ذكراها الهاربة لا لن يستطيع ان يظل بعيدا عن قلب المرأة محروما من عطفها وحبها . اية ارادة جبارة تقوى على الوقوف في وجه الحرمان العنيف ، حرمان السنين الطويلة التي حملها الشاعر المتألم في اعماقه ؟ ان قوى العقل ستتحطم امام قوى الشاعر . . ليذهب المنطق وليسخر الوجود ويتحطم الجسد . اني سوف اعيش وامضي ولو في ضباب الحرمان ولو على الطيف الساحر . وهكذا يا (س) عشت تلك الاعوام القاسية . كانت مرحلتان في حياتي وكلتاهما اشد انواع الحرمان ، مرحلة الابتعاد عن المرأة ومرحلة طيف المرأة ، ابتعدت عن المرأة ظنا مني اني سأحقق المثالية ثم ارتطمت على صخور الواقع واذا بي أعود بالطيف منها فقط . عشت معها هذه الاعوام الاربعة واذا المرأة لم تعد في نظري شيئا تافها بل زهرة ندية يؤذيها لسنا النهم الوحشي وقد حملت مأساة التوزع في اوضح أشكالها وفي اعمق صورها . المرأة مرآة الوجود الذي انعكس عليها قلق التوزع بين المثل الاعلى والواقع ، في دموعها وفرحها وبكائها وغيرتها وعندما تصبح راهبة وعندما تعيش في تهتك وفجور انما تعبر عن مأساتها الخالدة .

تعليقات على الرسالة :

١ — يبرز في هذه الرسالة بدء شعور عبد الباسط بالقلق النفسي العارم من جراء فشل تجربة حبه ، انه لا يعيش مع امرأته « الخالدة » التي يعبدها وانما يحيا على طيفها .

٢ — وهكذا تتفجر مأساة الصراع في كيانه ووجوده بين العقل والمنطق اللذين يدعوانه الى هجر المحبوبة طالما انها لا تعيره اهتماما وبين العاطفة والخيال اللذين يزينان له الاستمرار في حبها على الرغم من صدودها وعزوفها عنه وترجح كفة الاخيرين على كفة الاولين .

٣ ــ المنظر الرومانسي المراهق المؤثر يتجلى في الصورة التالية : الشاعر العاشق يدرج في الليل المطري البارد اللاسع الى منزل حبيبته الهاجعة في نومها المستغرقة في احلامها ليست دارية بعذابه ولا بمواجعه ويطبع قبلة طاهرة محمومة على بابه وينادي بصوته المتهالك المحطم باسمها ويبكي ...

٤ ــ تراجيديا التوزع الفكري والعاطفي تتأزم الى منتهاها في نفس الشاعر بين المرأة الحق الجسد ، الانسانة ، الماثلة ، وبين طيفها الهارب البعيد الضبابي .

٥ ــ واضح ان الرسالة ليست مكتملة ومن خلال سطورها يتضح انها كتبت حوالي عام ١٩٥٣ .

« رسالة خامسة »

صديقتي (س) ..

هاأنذا اعود وفي اعماقي ثورة صاخبة .. أعود لاقتات بهذه اللحظات الخالدة لحظات اتصالنا الروحي فافتحي الي ذراعيك وضميني الى صدرك المحموم .. واطبعي على جبيني قبلة طاهرة ملتهبة تعبر عما في نفسك من عطف وحب .

أعود .. وقد جمعتنا المأساة مرة ثانية فانصتي الى صلواتي الحزينة وانا اشيع ذلك الانسان الراحل الى القبر وقفي بخشوع أمام جلال الالم المقدس فتحت ظلاله ترقد نفسك الان وقد انطلقت في اجواء اللاوعي .

هاك شاعرك العميق يعزف اليك الحانه ويقدمها قرابين خالدة فان أوتار الحياة تهفو الى انامله ... دعي شاعرك يتألم من اجلك ويقدم اليك

العزاء .. العزاء العميق ، دعيه .. لقد وهبك وجوده ومافي هذا الوجود من عبقرية جامحة وجمال مشرق .

لقد سمعت بالنبأ الفاجع فلم أملك دموعي من السقوط وكنت مصمماً على ان انساك .. وان انساك بقسوة . ولكن مالي اضطرب واسرع ثم اتهالك على الفراش واسترسل في بكاء طويل وفي فيض من الدموع حيث السكون والصمت والليل الموحش والارواح الراقدة الهاجعة كان الشاعر يتمتم : مسكينة انت يا (س) . و(س) نغمة خالدة من انغامه .

كان يخيفني منه يا (س) ذلك الهدوء العجيب وكنت اقرا على جبينه المتغضن ونظراته الجامدة كل معاني الشقاء ... كان ياتي الي وفي يديه بضعة اشياء .. وتختلج شفتاه وينبعث صوت عميق من هذا الهيكل الانساني النحيل ... يالله الم تزل هنالك حياة في اعماقه .. ؟!

ــ من فضلك هذه لـ (س) هكذا كان يقول ثم يبتسم .. يالله الم يزل هنالك صوت خافت محموم يهتف بـ (س) . لقد كنت اشاركه بالهتاف ولكن هتافي صامت بعيد .. وكنت اشاركه في حبه لابنته ولكن حبي صامت بعيد ... واشاركه في الالم ... والمي صامت بعيد ...

صديقتي ....

انا هذا الظل الشاحب الذي لاترونه الا وتسخرون منه ... ثم ترتعدون عندما ترونه قد انتفض .. وتدهشون وقد حلق في السماء ليغني بكم ويشاركم في آلامكم ... ويناديكم .. تعالوا الي انما خلقت من اجلكم كلكم قد تألم وبكى الراحل الصامت .. كلكم بكاه وذرف الدموع واتشح بالسواد حدادا عليه لكن الكم لن يكون كتألم الشاعر .. انتم تبكون رجلكم كأب وهو يبكيه كانسان ولكن اينا اعمق المآ ... فجعتم بقلبكم ، وفجعت بانسانيتي .... لقد حطمتم قلبي وتركتموه على قارعة الطريق ولكنكم لاتستطيعون ان تحطموا انسانيتي .

لقد ودعتك بالامس وانا اعلم انني اودع كل امل لي في الحياة ودعتك لاهرب الى الطيف وقد فجعت بالحقيقة .... ولكني لم ازل اريدك كحقيقة .. عشت معك كطيف سنين طويلة وحملت أعنف حب صامت عرفه قلب رجل لامرأة ثم عشت معك كحقيقة .

ان هذا الشعور النبيل الذي احمله اليك لم يكن وليد الامس .

تعليقات على الرسالة :

١ ــ « الانسان الراحل الى القبر » الذي ورد ذكره في الرسالة هو والد محبوبته (س) وقد كتب فيه قصيدة رثاء موجودة في (آثار عبد الباسط الصوفي الشعرية والنثرية) ص ١٢٤ وعنوانها « مأتم » وفيها يقول :

ابتاه .. لا تقلق ، فخلف الباب لي روح شقيه
صوت الى المجهول ناداني ، وحار بمسمعيه
مهلا ... سامضي والدروب تصيح : لا تقلق عليه
اجفلت من عمق الحياة ــ وسرها في مقلتيه
اسمئت ؟.. ماذا ابقت الايام من دنياك فيه
صمتا جريح الذكريات يتيه اشواقا شجيه
انا طفلة ابتاه لم تدم الورود على يديه
مهلا .. مضيت .. ولي على الافاق اطلال ندبه
ابني على انقاضها حلمي واحلامي بقيه
لمت بي عف الحنين وصفته قبلا سخيه
ونظرت في عيني اغوارا وذبت بدمعتيه

يا اخت هذي دمعة خرساء في جفني عصيّه
مذعورة تلك الثياب السود تجرح ناظريه
قدمات ياللموت ، كفنه ومزق بردتيه

٢ ــ في قوله « كان يأتي الي وفي يديه بضعة اشياء ... الخ » يقصد ان ابا محبوبته (س) كان يسلمه اغراضا في (حمص) ليوصلها الى ابنته (س) التي كانت تعلم مع الشاعر في قرية « فيروزة » القريبة من المدينة .

٣ ــ في الرسالة ثورة عاتية واحتجاج عاصف على اهل محبوبته الذين كان يزورهم في بيتهم ولايلقى منهم فيما يبدو الارتياح بل على العكس يلقى السخرية كما يفهم من سياق السطور ويلقى الاجحاف وعدم الاكتراث « لقد حطمتم قلبي وتركتموه على قارعة الطريق ولكنكم لاتستطيعون ان تحطموا انسانيتي » .

٤ ــ هاهو عبد الباسط يبدو كرومانسي اصيل عندما يهرب من الواقع ولايصادمه او يحاول تغييره ، الى طيف الحبيبة ليسبح في خيالاته ويجنح في تهويماته .

٥ ــ بين الرسالة والقصيدة تناقض مفضوح : في الرسالة يسهب في وصف دموعه التي ذرفها على الفقيد وفي القصيدة يقول (ياأخت هذي دمعة خرساء في جفني عصيه) اهو ذنب القافية ام غلو الشاعر ام ماذا ؟

٦ ــ لاحاجة الى القول ان الرسالة غير مكتملة .

« رسالة سادسة »

ربما تدهشين من عودتي لكتابة رسائلي اليك بعد كل ما حدث ولكن لو تشعرين بما احمل في اعماقي من ثورة لوجدت لي العذر في ذلك لقد كانت تجربة قاسية مررت بها انا ذلك الوجدان المرهف وكانت نتائجها مريعة هائلة وخصوصا من الناحية النفسية بيد انها كانت مادة خصبة لانتاجي الادبي أثارت حولي ضجة كبرى من الاعجاب العنيف وان كان هنالك من لم يفهم مما انتجت الا الالوان المظلمة دون أن يمعن النظر في تلك الصور الرمزية العميقة واللمحات الوجودية حتى قال احد الاساتذة المشهورين انها يجب ان توضح مع روائع اشعار (رامبو) . بما تحويه من صور رمزية عميقة ومع ادب سارتر الرائع بما تضمنته من الفلسفة الوجودية التي كدت انفرد بها في الآونة الاخيرة . لم اكن ادري كيف تطورت الحوادث مسرعة وجعلت من نفسي مسرحا للقلق المرير والالم الصارخ ودفعتني الى التعبير عنها بقسوة ، انها الصدمات المتتابعة هزت كياني المضطرب وأحاطته بأجواء عنيفة قاتمة .. انها نتيجة رهيبة تلك التي وصلت اليها ... اني اسخر من كل شيء حتى من وجودي واستهتر بكل شيء حتى بحياتي ، آه ... لو تدرين مدى الاثر الذي تركته في تلك الاحداث ... اني اعيش في بوهمية حالكة أتأمل واسخر وأغوص في مجاهل الفكر والوجدان لأرجع باللاشيء ... ولكنها بوهمية الروح المتألمة اذا جاز لنا التعبير . لا تظني فيها بوهمية الجسد لانني بطبعي أرى من الحياة الجانب الروحي السماوي .

لا تخافي هكذا أحيا وامضي في شرودي
هكذا افنى ولكن ، ما فنائي وخلودي
ووجودي العدم السامي بصمت اللاوجود
أسرعي ان بعينيك صلاتي ونشيدي

ربما ضايقتك وربما كنت ثقيل الظل ولكني لم اكن الا نبيلا في شعوري كان ثمة شيء خالد يدفعني اليك بالرغم من واقعك المؤلم هو آلام السنين الطويلة التي حملتها من اجلك ومن اجلك فقط .... لقد تركت لقلمي المتمرد ان يخط اليك ما شاء ولعلها تكون اعترافات قاسية لشاب شاذ في تفكيره وعواطفه وفتاة شاذة مرهفة وقد كنت انا ذلك الشاب وكنت انت تلك الفتاة .

اجلس لاقدم اليك اعترافاتي وان شئت سأذهب ــ بعدها ــ بعيدا بعيدا جدا حيث لا تشعرين بوجودي . يقول الريحاني : قل كلمتك وامش ... وها انا اعترف ثم اسير ، ذلك اني شعرت بالازمة في سن مبكرة كما ترين ولست ادري اذا تألم انسان اخر كما تألمت ولكني اعتقد اني تألمت اعمق من كل شاب تألم في هذه السن . ومن الغريب اني لم اعرف حقيقة هذا الشعور الجارف نحوك .. اني قلق في تسميته . بالطبع ، لا يمكن ان يكون حبا . ربما يكون حبا عنيفا ولكنه ليس كحب الاخرين ولعله يكون صداقة عميقة بل يمكن ان يكون مزيجا من الاثنين .

وجاءت السنة الدراسية للبكالوريا وهنا بلغت المأساة اقسى مراحلها حتى ايقنت انني لابد سأصير الى الجنون ولكني جاهدت بصمت وبين الدموع المتناثرة والقلق الملح ينبعث صوت خافت محموم ينادي (س .. س ..) .

وهنا تدخلت المرأة بشكل ملموس في حياتي لتحطم من عزلتي المقدسة لقد حاولت من مثل (نابغة) ولعلي اكون مخطئا ــ ان تحبني ولكني امعنت في التنكر لها كما حاولت ان اوجهها التوجه الصحيح الا اني ادركت انها سطحية في كل شيء . ان نابغة طفلة مدللة افسدتها التربية الارستقراطية الجوفاء لقد كرهت هذا النوع واشفقت عليه بآن واحد ثم حاولت امرأة اخرى ان تحبني كما اعتقد وهي اخت صديق

لي كنت ازوره وقد تحدثنا طويلا في شؤون الفكر والسياسة والفن وكانت على نمط نابغة من حيث التربية والتفكير الفج ولكن هذه ضحية اسرة تحافظ على التظاهر الارستقراطي ولا تملك شيئا من الارستقراطية كانت كنابغة اجتماعية تحرص على البروتوكول الاجتماعي الا انها تألمت قليلا وهذا ما غيرها عن نابغة تلك التي تعيش على هامش الحياة بحيث لم تعرف معنى الالم العميق مسكينة لقد كتبت لي انها تحبني بل وانها تعبدني والغريب انها تعتقد اني ابادلها هذا الشعور وتحسب ان كل قصيدة انما كانت من وحيها قرات لي (القسوة) فقالت انها معجبة بها الى حد الجنون ثم قالت احب ان اطلعك على ما اكتب فهل تسمح ؟. واعطتني دفترها الخاص وكان يحوي منتخبات من قصائد عديدة وكان معظمها لي ثم ارتني نموذجا من كتابتها وقرات .. ويا لهول ما قرات .. لقد كانت رسالة مؤلمة تبثني فيها اشواقها كانت تقول : تعال يا حبيبي يا الهي الصغير ... تعال الي لاسمع حديثك العذب الساحر انني احببتك اكثر من نفسي تعال واصفح عن تلك التي قست عليك التي احبتك حتى العبادة لا تذكر هذه « القسوة » اني احن الى سماع كلمة « الصفح » من شفتيك الخ ..

كانت كلها شكوى مريرة ونداء حزينا مسكينة انها تألمت من اجلي كثيرا واصبحت تعتقد انها قست علي فتطلب الصفح لمجرد انها قرات قصيدة « قسوة » ولما انتهيت من قراءتي نظرت اليها وهي ترمقني باضطراب ... رأيت في نظراتها اللهفة والرجاء وكادت دموعها تنهمر واخيرا تشجعت وانقذت الموقف فقلت حقا انها رائعة . كانت تغمرني بقصصها الخيالية وكلها تدور على الحب وتنتهي بفواجع مؤلمة وقالت ذات مرة انها رأتني في احلامها وقد غمرتنا الثلوج وانا واقف كئيبا امام بيتها فنادتني قائلة :

ـ لماذا لا تدخل ... اسرع فعندنا الدفء والحرارة ..

والغريب انها دائما تذكرني دهشة بحلمها الرائع هذا ... وتتخيل فيه صورة فنية رائعة .

صديقتي ...

ربما مللت من هذا الاحاديث لكنها ضرورية لكي تفهمي بوضـوح النقاط الغامضة في قصائدي والتي شكوت منها مرة وما كنت لاتطرق اليها . لقد اشرت لي بطرف خفي الى قصة نابغة ولمست انك تأثرت بعض الشيء فاردت ان ابين لك بصراحة تامة عن حياتي الوجدانية ومدى علاقاتي ... لقد اشفقت على الاثنتين .

تعليقات على الرسالة :

١ ــ يبدو ان عبد الباسط انقطع عن مراسلة محبوبته لفترة من الزمن ثم عاد ليكاتبها وتبقى عبارة « بعد كل ما حدث » الواردة في مطلع هذه الرسالة غامضة المعنى مجهولة التفسير ولكنها تنبىء في الوقت نفسه ان احتباس رسائله اليها انما جاء لاسباب قاهرة لنفسه محطمة لاعصابه مشكلة له ازمة نفسية شجية افاض في وصفها من خلال سطور هـذه الرسالة كقوله : « لم اكن ادري كيف تطورت الحوادث بسرعة وجعلت من نفسي مسرحا للقلق المرير والالم الصارخ دفعتني الى التعبير عنها بقسوة .. انها الصدمات المتتابعة هزت كياني المضطرب واحاطته باجواء عنيفة قاتمة .. الخ . » ولا شك ان هناك خطا واصلا في الاحداث بين الرسالة السابقة وهذه الرسالة لا ندري كنهها .

٢ ــ عبد الباسط يطرح نفسه مجددا في هذه الرسالة كمنفرد في تجسيد الفلسفة الوجودية في الادب السوري خلال مطلع الخمسينات مؤكدا ما جاء في رسالة سابقة لمحبوبته حول هذه النقطة بالذات مشيرا الى اثر « الاحداث » في نوعية ادبه الجديد المسربل بالصور الرمزية وفي حياته التي صارت بوهيمية الروح لا الجسد .

٢ ــ يصف عبد الباسط نفسه فيقول عن حاله انه شاب شاذ في تفكيره وعواطفه ويذكر انه سيتقدم « اعترافاته » امام حبيبته ويؤكد انه سيقول كلمته لها ويمشي بعيدا عنها اذا شاءت ... انها طوابع الشاعر الرومانسي في احساسه بانه غريب في مجتمعه لذلك يعتقد انه شاذ في تفكيره وعواطفه وفي تقديم اعترافاته في رسائل لانه قد لا يحسن البوح بها تجاه من يحب وفي هروبه من العاصفة عندما تهب في وجهه لا في اقتحامهـا .

يتباهى عبد الباسط في هذه الرسالة لاول مرة امام حبيبته بانه مرغوب من النساء معشوق من قبلهن فيذكر فتاتين واحدة بالاسم والثانية دونه احبتاه بعمق وحرارة بذلك يضرب على الوتر الحساس في عقلية المراة ، وتر الغيرة .

« رسالة سابعة »(١)

١٩٥٤/٦/١٢

صديقتي ...

اخاف ان يضيع صراعنا الطويل بين اجنحة العاصفة . اخاف ان يتحطم وجودنا المضطرب على صخور حنانك القاتل . لماذا لا تظلين قاسية كالقدر ؟ .. انني احب القسوة ، القسوة العمياء التي تقذفني الى هوة العدم احب الحرمان الجارف الذي يدفعني الى الفناء وانكار الذات . لماذا هذه البسمة المظلمة من اعماق الجسد ؟. انني احب أن ننطلق في سماء المثل هاربين من الواقع اليس الواقع هو المهزلة التي تتمثل على مسرح الوجود ؟ ! ...

(١) حصلت على صورة هذه الرسالة الموجودة بخط عبد الباسط عند احد اصدقائه القدامى واسمه (اديب جرادة) بوساطة صديقي (غسان لابي طعمة) .

صديقتي . . .

لعلك لا تسمعين ندائي الحزين لان الي من ذلك النوع الصامت العميق . انني ادعوك الى القسوة والجمود الى التمرد على ارادة البقاء الى الفناء الصارخ في وجه الحياة بين احضان الالوهة الخالدة لعلنا نمضي هادئين الى الابدية الخالدة .

تعليقات على الرسالة :

١ ــ هذه هي الرسالة الوحيدة التي عثرت بها لعبد الباسط مؤرخة وما تبقى من الرسائل المتوافرة بين يدي له كانت مغفلة من التاريخ .

٢ ــ اذا دققنا في اسلوب الرسالة الفيناه يضج بثورة عاتية عبرت عن نفسها في جمل خارجة عن المألوف في الكتابة العربية التقليدية ذات المعنى العقلاني المحكم وجنحت الى التمرد والجدة والمغامرة اللغوية كقوله مثلا : « صخور حنانك القاتل » « القسوة العمياء التي تقذفني الى هوة العدم » « لماذا هذه البسمة المظلمة من اعماق الجسد » !؟ .

٣ ــ جلي ان هذه السطور انما هي مقدمة لمشروع رسالة . . . ولو ان الشاعر اكملها على الوتيرة نفسها وبالانفعال ذاته وبحرارة الصياغة عينها لوقعنا على عمل ادبي متقن جميل يثري فن الرسائل بالجديد المدهش في تيار المدرسة الرومانسية العربية .

« رسالة ثامنة »

صديقتي . . .

لست ادري ما الذي يدفعني للكتابة اليك باستمرار بعد ان اكون قد اتخذت قرار ضمنيا بيني وبين نفسي بعدم مراسلتك والاكتفاء بعزلتي الوجدانية وتأملاتي الروحية ناسيا انني احب وان من احبه لا يعبأ بي

ولا يعيرني من الالتفات ما يكفي . قد تكونين منزعجة مما ورد في بعض رسائلي السابقة اليك ومن صراحتي المطلقة فيها لكنني لا ابغي من ورائها شيئا اني طفل وقد اهذي أحيانا واذا كان يزعجك هذا الحب ولا أعتقد ذلك يمكنني أن اخفيه واحمله في أعماقي كما حملته هذه السنين الطويلة ...

انا لا انكر أنني احبك بقسوة ولكني أحترمك كثيرا ، احترم الالم العميق الذي يتمثل في وجهك فاذا شئت فلنكن اصدقاء واذا شئت فلنكن اخوين واذا شئت فلنكن زوجين واذا شئت ان ابتعد عنك فليكن ولكن سيظل هذا الحب في نفسي الى الابد وقد خلق في اشياء كبيرة ولا اظن ان امراة اخرى ستتمكن من قلبي .. انني لا اريد ان تتكرر المأساة ثانية ، انه القدر ... هو الذي ربط بين قلبينا لاني منذ احببتك انتقلت الاسرة واصبحت في جوارك ثم يتطور هذا الحب فيخلق اكبر مأساة وجدانية عرفها شاب ... الا تعلمين انني رسبت في الدورة الاولى في البكالوريا من أجلك بدون ان تعلمي وشاء القدر أن يجمعنا سوية في « فيروزة » وثم تنشأ هذه العلاقة البريئة .

كنت أريد ان القي امامك قصة حياتي ، انها سلسلة مآس متصلة مآس خالدة جعلت مني انسانا مرهقا شديد الحساسية مجهد الاعصاب وكتبت فيها اكثر من /٢٠/ صفحة ثم عدلت فربما ازعجك بها وقدتقراين ذات يوم قصة حياتي ويبوف تتألمين كثيرا وتذرفين الدموع لشيء واحد .. لانك احببت ... وكان حبك نبيلا ، احببتني او هكذا خيل الي ، اجيبي نداء قلبك الحار ، انك متألمة .. بل اكاد اجزم بأنك تألمت اكثر من كل فتاة في هذا المجتمع كما تألمت أنا الاخر اكثر من كل شاب .. ولذا فان رباطنا رباط مقدس كخلود الالم ولذا قدستك وعبدتك واحترمتك . نحن اشقياء في هذا الحب فلماذا لا نكون سعداء ؟ ولكن اين طريق السعادة .. ؟ .. هناك حيث تنطلق العاصفة وحيث تتعانق

الاشواك . سأرسلها اليك قصيدة الرثاء وقد جعلت عنوانها « مأتم » واعتقد انها اروع ما انتجت واعتبرها قطعة خالدة من نفسي./. . سأعطيك الهدية التي حدثتك عنها « كتاب نيتشه » وسأذهب بنفسي اليـك في « قطينة »(١) ثقي ان شعوري نحوك نبيل بل انبل مما تعتقدين ، وهل التعبير عما يحس به الانسان يعد جريمة ام لعل المفاهيم والقيم اصبحت معكوسة في مجتمعنا .

واخيرا اعيد رجائي في ان ترسلي لي نسخة عن المجموعة .. وان تكتبي شيئا الى ينبوعنا ودمت لصديقك .

المخلص

عبد الباسط

تعليقات على الرسالة :

١ ـ ان عبد الباسط في هذه الحالة يحترق احتراقا على لهب مشاعره المتأزمة ويعبر عن حبه الجارف لمحبوبته بكل السبل : حب الصديق او حب الاخ او حب الزوج ويترك لها اختيار نوع من انواع الحب هـذه ليلتزم به واذا ارادت الا يحبها بأي اسلوب ويبتعد عنها فسيفعل لا لشيء الا لانه يحبها والا لان هذه رغبتها .

٢ ـ يلغي عبد الباسط من ذهن حبيبته وهم الغيرة الذي قد يكون أصابها من جراء ما جاء في رسالة سابقة له يخبرها فيها بأن فتاتين تتهالكان على حبه ولكنه يشفق عليهما فيؤكد لها حبه لها فقط هي وحدها من دون غيرها من النساء يقول : « ولكن سيظل هذا الحب في نفسي

---

(١) « قطينة » قرية صغيرة قريبة من حمص فيها بحيرة وعليها سد وقد مضى عبد الباسط سني فتوته في رحابها وكذلك مرحلة شبابه الاول،وعمل معلما في مدرستها لمدة قصيرة.

الى الابد وقد خلق في اشياء كبيرة ولا اظن امراة اخرى ستتمكن مـن قلبي انني لا اريد ان تتكرر المأساة ثانية انه القدر هو الذي ربط بين قلبينا » ...

٣ ـ يظهر عبد الباسط في هذه الرسالة واثقا كل الثقة من حب (س) له ... ؟ .. كيف ؟ لا ندري .. فالحب يحس به صاحبه احساسـا ولا يبرهن عليه ببراهين عقلية ويظهر ايضا واثقا كل الثقة من ان محبوبته تتألم من أجله .. كيف ؟ .. نعلم كذلك ؟ .. لعلها ـ وهذا الاحتمال ضعيف ـ حاولت أن تتجاوب معه وتمد اليه يدها ليخرجا من سجن التقاليد الدينية فابدت تجاه اهلها رغبة فيه فمنعت من قبلهم فكان الها يقول : « وقد تقرأين ذات يوم قصة حياتي وسوف تتألمين كثيرا وتذرفين الدموع لشيء واحد .. لانك احببت وكان حبك نبيلا احببتني او هكذا خيل الي ، اجيبي نداء قلبك الحار .. انك متألمة الخ .. »

٤ ـ هدايا عبد الباسط الى محبوبته هدايا رومانسية لا شال ، ولا خاتم ، ولا عقدا لؤلؤيا كما هدايا نزار قباني الى حبيباته بل قصيدة رثاء والدها وكتاب فلسفي تقرؤه ... يا لصدق عبد الباسط مع نفسه وبيئته ؟! ..

٥ ـ في قوله « اعيد رجائي في ان ترسلي لي نسخة عن المجموعة » اشارة الى أن تبعث له نسخة عن مقطوعاتها الادبية التي كانت تكتبها ليطلع عليها فقد كانت لديها هواية في الادب والشعر وفي قوله « وان تكتبي شيئا الى ينبوعنا » اشارة لمجلة « الينبوع » التي كانت تصدر في حمص ابتداء من عام ١٩٥٠ لصاحبها عبد الودود التيزيني وهو شقيق الدكتور طيب التيزيني الاستاذ في جامعة دمشق .

« رسالة تاسعة »

استاذي الكريم سامي .

لعلني ازعجك فالتقط بضع دقائق من وقتك الثمين ولكن لا بأس ان نتحدث قليلا ومن وراء السطور وان نستعيد لحظات عميقة كانت في فترة من حياتنا أسمى ما يحمله التلميذ لاستاذه او الاستاذ لتلميذه بل أسمى ما يحمله الانسان للانسان .

لا ارى نفسي الا عارية ، عارية من كل شيء عندما اجلس اليك كأنها تريد ان تسرع الى نفسك وتمتزج بها ذلك الامتزاج الرائع امتزاج النفس بالنفس .

لست فيلسوفا لابحث عن حقائق ذواتنا وعناصرها الاساسية ومدى انطلاق هذه الذوات في صور الحياة العامة والخاصة كل ما هنالك انني خلقت لابحث عن شيء واحد يربط بين متناقضات الحياة ، شيء يمنحني القدرة على التصوير والانشاء ويتركني في مجاهل الزمن اتوغل حتى يدركني الاعياء واسقط لارجع اخيرا الى الارض ... خلقت يا «سامي» شاعرا اجري وراء الجمال المائل في كل ما نتلمسه او نشعر به « ووراء الاشياء جميعا ذراعاها الخالدتان » كما يقول « بيرنز » خلقت شاعرا افتش عن الجمال وطبيعي ان يكون في صورة غير التي فهمها الناس كما يجب ان ادرك هذه الحقيقة ادراكا بعيدا ، افتش عن الجمال ..

الجمال المطلق الخالد ... في الزهرة والدمعة والحياة والموت وتحت اقدام الفجر البيضاء وفي اعمق اعماقي حيث الحب والثروة والكآبة والمرح ... ولقد فتش الكثيرون وما زالوا يفتشون .. ها هو (سقراط) يقف في الطريق وهو يترنح تحت اعباء رأسه ويصيح بأعلى صوته :

« اعرف نفسك » ثم يقف مرة اخرى ليتجرع السم وها هو (افلاطون) يتصدر المائدة ليهيم بنا في أجواء الالوهية والمثل وها هو (دانتي) المحه من وراء جحيمه الساخر يهرع الى نهر الغفران امام بتريس الجميلة و « فاوست » يتسلل الى الاساطير ويترامى تحت اقدام آلهة الاغريق يبحث عن الجمال الاصم ويعود لينتصر على ابليس وترفعه اجنحة الله الى التأمل الابدي و (فرتر) المسكين لا ازال المحه وهو يطلق على نفسه النار واخير (هملت) البائس لا ازال أسمعه يصيح « اواه ... لم يبق الا الصمت » ... ثم ماذا .. لا شيء .. انها النتيجة الحتمية التي انتهى اليها كل هؤلاء وربما انتهت الى ما انتهوا اليه ... انها نتيجة واحدة لكل من يبحث منا نحن العنصر الطيب في العالم .

تعرف انت انني احب واحب كما لم يحب احد من قبلي وتسالني وماذا أجد هناك في اقصى الي حيث أنقلب واصرخ واجيبك :.لا ادري... لا ادري ... انه المجهول ..

اواه ياسامي .. اريد من احب وامراتي واجمة متعبة انهكها المسير في صيف الجسد تحت شمسها اللافحة الحارة وأنا في وحشة اتأمل واتعبد واتالم واسخر ، اشعر بحاجتي الى قلبي اليائس المظلم .. اريدها ... اريدها ... وعندما اصل ساصيح : اوريكا ... اوريكا ... ولكن أوريكا هزيلة شاحبة في ظلام الوجود السحيق تتململ تحت انقاض العصور الطويلة .. ارجع الى نفسي وقد غمرتني معاني كبيرة ضخمة من التواضع الابله والتضحية الخائفة راكعا مع اوسكار وايلد أقول : الهي لست اهلا لذلك ام اتجرد واتعرى صارخا مع « بودلير » : اعطني القوة أيها السيد لانظر الى قلبي وجسدي بلا اشمئزاز ؟ ..

أم تراني أسرع الى الصراع طالبا أوريكا العزيزة الغالية حيث اليقين والايمان أواه : « لست ادري » ...

لست ادري وان دريت سأنسى   انا كالطفل لا امل المسيرا

المشي الى ماوراء اوريكا حيث لا حدود ولا عقل ... دائما هو المجهول ... والظلام الاخرس :

بي يا رمال عوالم خرساء مبهمة الحياة
مقرورة في وحشة الاغوار تسبح في لهاتي

.....

لم تحترق يوما باشواقي ولم توقد بناري
ألفت شواطئها الى المجهول تحتضن الذراري

سأترك ذلك حين اخاطب « الام » التي ولدتني :

وغدا انزوي وتمشين للقبر وتصحو الخطا على اشلائي

واحس بالصقيع متعبا اتلهف الى الضجعة الاخيرة :

وتحاملت للسرير وضلت رعشاتي على ضلوع الشتاء

لعلي اطلت ولكنها الثورة المكتومة بين جوانحي ، الا ان هناك نتيجة يجب أن تعرفها نتيجة هذا الحب الغريب الذي يعصف بي ست سنوات لإمرأة واحدة ... لقد حدث كما توقعت أنت يا سامي ... لقد رغبت الفتاة كما رغبت أمها في وضع حد لهذه المأساة وبعدها تبينا ان لا أمل في هذا الحب نظرا للاختلاف الديني وقسوة المجتمع وتصنعت هي القسوة وانكرت قلبها وقالت لي : « متى شعرت انني اميل اليك ؟ .. » .

فأدركت انها تحبني واذا كنت اشك في حبها في الماضي فقد لمسته الآن ... وقد تراني فتبكي وتحاول اخفاء دموعها واراها فاضطرب ، لازلت احبها أكثر من أي وقت آخر واتألم ... واتألم ... الى ان يلفظني الالم . الى واقعية من الاحساس الجاف ..

لقد تركت عندها كل قصائدي ورسائلي الكثيرة وجملة كتب دون أن اشير الى ذلك في زياراتي الاخيرة ولم تلمح هي الى ذلك وبدا عليها انها تصر على الاحتفاظ ا جميعا ومع ذلك فقد جمعت قصائدي عن طريق الذاكرة وبضعة اوراق مبـ ثرة وجدتها عندي وافكر في طبعها في كتاب... فما رايك ؟ ... واترك لك امر طبعها فأنت ادرى مني بذلك .

واخيرا تقبل احر تحياتي راجيا ان تجيبني بأسرع وقت واليـك عنواني .

حمص ــ ظهر المغارة ــ عبد الباسط الصوفي .

تلميذك المخلص

عبد الباسط الصوفي

تعليقات على الرسالة :

١ ــ يخيل الي ان عبد الباسط يريد في هذه الرسالة ان يبدو امام استاذه « سامي الدروبي » المعروف بأبحاثه التربوية والفلسـفية والنفسـية وبترجماته لهذه الفروع من العلوم الانسـانية عميقا واعيا يبحث عن كنه الحياة ويركز بالذات على تأمله في فلسـفة الجمال ووحدة الوجود فيحشـد في رسالته اسماء (برنز ــ سقراط ــ افلاطون ــ دانتي فرتر شكسـبير ــ اورسكار وايلد وبودلير ...) واقوالهم في صدد حيرتهم بفهم الكـون وما يجري فيه من التناقضات دون ان يصلوا الى الحقيقة الضالة .

٢ ــ هذه الرسالة ليست مؤرخة لكن لدينا دليل واحد جازم على تأريخها نستمده من سطورها وهو استشهاد عبد الباسط ببيت من قصيدة له بعنوان « أم » منشورة عام ١٩٥٦ وعند ئذ يكون تأريخ الرسالة والحالة هذه هو العام المذكور وهذا يقودنا الى القول أن عبد الباسط

رغم مضي اكثر من ست سنوات على بداية حبه لـ (س) ورغم كل المآسي والمحن التي مرت به وبعاطفته النبيلة هذه ورغم تخرجه من الجامعة ونضجه العقلي والعاطفي مايزال يعيش في دوامة حبه القاتلة... ان لهجته في حديثه مع استاذه سامي لهجة عالية النبرة ضارعة مستنجدة طالبة لحل وهي في الوقت نفسه حزينة مدمرة تشعر وانت تقرا تعابيرها بنفسية ضائعة مقهورة تبحث عن مرفأ وخلاص ولا تجد احدا يمد لها العون لكونها وحيدة في معركتها العاتية مع القدر والتقاليد والظروف يقول : « اريد من أحب .... اريدها .. اريدها » .

٣ ــ لا حاجة الى القول ان هذه الرسالة ترسم بوضوح وجلاء ازمة عبد الباسط التي انتقلت منه معاناة الى أسرة الفتاة التي يحبها مشكلة فصار الشغل الشاغل لهذه الاسرة والام على رأسها فيما يبدو من مضمون الرسالة ان تضع حداً لهذه المأساة ويلحظ من الوقائع أن البنت دفعت من قبل اهلها الى مصارحة شاعرها العاشق المفتون بعدم حبها له في قولها متساءلة بلهجة الانكار : « متى شعرت أنني أميل اليك ... »

٤ ــ لا أعتقد ان ما جاء في ختام عبد الباسط لاستاذه سامي بانه ترك عند حبيبته كل قصائده ورسائله الكثيرة ومجموعة من كتبه في زيارته الاخيرة لها واصرارها على ابقائها لديها يوحي بانقطاع المراسلة والعلاقة بها فقد ورد في (رسالة ثانية) حديث تفكيره في الانتحار بدير الزور أي في سنة ١٩٥٦ التي تخرج فيها من الجامعة وعين مدرسا هناك . ولعله كتب لها تلك الرسالة في اثناء العطلة الصيفية بعد عودته الى (حمص) مدينته ، من دير الزور مكان عمله .

مقابلات

صوتان أبيضان من جنوب افريقيا: ضد سياسة التمييز العنصري

ترجمة وتقديم:
كمال فوزي الشرابي

دولة جنوب افريقيا لا تنتج الماس فحسب ، وانما تنتج ايضا ادبا ممتازا . الوان الحبر فيها متنوعة : فهناك أولا الحبر الاسود ، لان اقبال السود على الكتابة يزداد يوما بعد يوم . وهم لا يهتمون بصنع جمل جميلة بقدر ما يهتمون بالتعبير عن ثورتهم . وهناك ثانيا الحبر الابيض مادام البيض ، الذين رفضوا النفي ، يستميتون ولو على الورق في تصفية المشكلات المؤلمة التي يتعرض لها السود والبيض معا من جراء سياسة التمييز العنصري . وبعد الروائية الكبيرة دوريس ليسينغ Lessing ، والروائي الكبير Goetzee غوتزه في كتابه الاخير « بانتظار البرابرة » ، نحن امام كاتبين كبيرين ايضا يصفيان الى صوت المحنة التي يمر بها بلدهما ، ويعبران عنها بصدق واخلاص ، ونعني بهما اندره برينك Brink ونادين غورديمر Gordimer .

١ ــ مقابلة مع اندره برينك :

نال اندره برينك عام ١٩٧٠ جائزة مديسيس الفرنسية ، التي تمنح لاحسن كتاب يترجم الى لغة فيكتور هوغو ، وذلك عن روايته الشهيرة « موسم الجفاف الابيض » . وانتظر هذا الكاتب ثماني سنوات حتى سمحت سلطات بلاده بدخول روايته المشار اليها . وها هو اليوم ينشر رواية تاريخية بعنوان « صمت صاحب » .

من اشهر اعماله بالاضافة الى ما ذكر اعلاه : « في احلك سواد من الليل » ، ١٩٧٦ ، « هنيهة في الريح » ، ١٩٧٨ ، « ضوضاء المطر » ، ١٩٧٩ ، وسواها ...

وفيما يلي ترجمة لآخر مقابلة اجريت معه :

س ــ لم تختر النفي خلافاً لكثير من المثقفين مع انك كنت جامعياً معارضاً لسياسة حكومة جنوب افريقيا . ففضلت ان تبقى في بلادك لتحارب النظام القائم وخصوصاً سياسة التمييز العنصري .

ج ــ بعد ان قرأ بعض الطلبة البيض احد كتبي وهو « في احلك سواد من الليل » كتبوا اليّ يقولون انهم اكتشفوا ان السودهم ايضاً كائنات انسانية . هذا التصريح رهيب ، وهو يدل على تطور إيجابي . هذا من جهة ؛ ومن جهة اخرى كتب اليّ إنسان اسود منفي بانه لو قرأ كتبي قبل رحيله لبقي في البلاد . لقد أدرك ان البيض لا يدينون جميعاً بالولاء للحكم القائم بسبب اتباعه سياسة التمييز العنصري ؛ وان بعضهم متضامن مع السود . إن ردود الفعل هذه التي وردتني من كل مكان تهبني الثقة والنشاط لأن أتابع .

س ــ لم تعد سلطات جنوب أفريقيا تمنعك من النشر في حين سبق لها ان منعت كتابك الاول « في احلك سواد من الليل » من التداول ...

ج ــ لم تسمح بتداول هذا الكتاب الا منذ بضعة أشهر فقط وبعد انتظار دام ثماني سنوات ، بينما روايتي « صمت صاحب » قد رفع عنها الحظر بعد أشهر من صدورها فقط .

س ــ تكتب بالانكليزيــة وبالافريقانية التي هي لغــة الافريقانيين (سكان جنوب افريقيا الذين هم من اصل أوربي) .

ج ــ انها لغة جد مركبة ، فقد اشتقت في البدء من اللغة الهولندية ، ثم بسطت بتأثير المولدين البيض ولا سيما العبيد الماليزيين منهم ، ثـم لقحت بالفرنسية اذ ان جماعة من الهوغانو Huguenots سـبق لها ان استقرت في مدينة الكاب وذلك في نهاية القرن السابع عشر ، يضاف الى ذلك انها تحوي قليلا من الكلمات الانكليزية .

س ــ هل السود يتكلمون اللغة الافريقانية ؟

ج ــ الملونون منهم خصوصاً ، فهـي تعتبر لغتهم الام . وهكـذا يتقاسمون مع الافريقانيين ثقافتهم مما يسهل ذوبانهم فيهم . ولن يبقى في عهد قريب سوى مسألة اللون . . .

س ــ في روايتك « صمت صاحب » تقول اليدا زوجة الأوباس ــ اي المعلم الشيخ ــ : « لا احد ينتمي الى هذه البلاد » . والواقـع ان جميع الاجناس ، التي اجتمعت في جنوب افريقيا ، قد جاءت اليها من الخارج ما عدا الهوتنتو Hottentots الذين لا يشك احد في انهم كانوا اوائل من سكنوا هذه البلاد .

ج ــ وماما روزا ، العجوز الهوتنتو ، التي تعتبر نفسـها الكائن الحر الوحيد في هذا التاريخ ، والشخصية الوحيدة التي تنتمي حقاً الى هــذه البــلاد .

س ــ انت من جنوب افريقيا شانك في ذلك تماما شان السود في بلادك .

ج ــ لا تنس ان استعمار جنوب افريقيا قد استند في البدء الى تجربة اقطاعية : استقر البيض في هذه البلاد اعتبارا من مطلع القرن السابع عشر كاسياد اقطاعيين كبار يحيط بهم الفلاحون ، وعائلتي نفسها وصلت عام ١٧٣٠ . اخذ مجتمع جنوب افريقيا يتطور وفقاً لهذه العقلية . ولكن عواطف البدا التي عبرت عنها في مطلع القرن التاسع عشر ليست بالضرورة عواطف الافريقيين الجنوبيين ، أبناء اليوم ، وابناء نهاية القرن العشرين . ثم يجب ان لا ننسى ان احد اهم التطورات ، التي حدثت في السنين الاخيرة ، يستند الى الاقتناع المتزايد بالانتماء الى هذه البلاد والى القارة الافريقية معاً . ان البيض ، الذين يعتبرون انفسهم « افريقيين بيضاً » ليس لهم وطن يذهبون اليه اذا ما توجب عليهم ان يغادروا البلاد . وهم يستبعدون جميع البلاد التي اتوا في الاصل منها ، ويعتبرونها غريبة عنهم كهولندا وانكلترا وفرنسا وبقية البلدان الاوروبية .

س ــ يبدو النفي صعباً في مثل هذه الشروط !

ج ــ نعم ، فانا لا استطيع بصدق ان ادين العنصرية المتفشية في بلادي من غير ان أقطن فيها . يضاف الى ذلك ان رحيل اية عائلة تسكن منذ عشرات الاجيال في هذه البلاد انما هو اقتلاع من الجذور بالنسبة اليها . وعلى هذا فان معظم الافريقانيين ، ولربما العنصريين منهم بشكل خاص ، يدركون بانهم ينتمون الى جنوب افريقيا . وهكذا يبقى شعاع امل في مصالحة قد تبدو صعبة لاول وهلة ، اذ يجب ان يتقاسم البيض والسود السلطة ، وان يجدوا الوسائل التي تكفل لهم التعايش في بلاد مشتركة . ولعلمنا بان المجابهة قد تقود الى استئصال للجذور ، فان التوافق يجب ان يكون ممكناً .

س ــ ما هي المظاهر الحالية للتمييز العنصري ؟

ج ــ تبقى جنوب افريقيا البلاد الوحيدة في العالم التي تقر فيها العنصرية بمقتضى القانون . يحاول النظام المؤسس على المفهوم القائل بتفوق البيض ، ان يقصي السود عن كل نشاط مدني او سياسي . ولقد أوجدت الحكومة « البانتوستان » وهي دويلات يتمركز فيها تقريباً جميع السود . منح السود في هذه الدويلات استقلالهم نظرياً ، ولكنهم ظلوا ، على الصعيد الاقتصادي وعلى جانب كبير من الصعيدين العسكري والسياسي ، تحت سلطة الحكومة المركزية . وهكذا قل تدريجيا عدد السود الذين يقطنون جنوب افريقيا . جمعوهم في « بلدان » كالترانسكي، والقندا ، والبوفو تاتسوانا الخ . . . هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فانهم يفكرون في دمج مليونين من الملونين ومليون من الآسيويين في مجموع السكان البيض . وسيمنح هؤلاء حق الانتخاب . وسيصار الى انشاء ثلاثة مجالس نيابية ، واحد لكل فئة من الفئات الثلاث : الملونين والآسيويين والبيض ، ومجلس وزراء مختلط . وسيصار الى الاعتراف للملونين والآسيويين بان يضحوا بأرواحهم من اجل جنوب افريقيا ؛ وهذا هو السبب الحقيقي لهذا الامتياز الظاهري . فالوضع العسكري لجنوب افريقيا دقيق جداً ، وخصوصاً تجاه انغولا حيث الموردو سويبوس ــ حركة تحرير ناميبيا ــ تقوم بهجمات على ناميبيا . فالحكومة اذن بحاجة الى جنود ملونين وآسيويين ، ولكنها لا تستطيع ضبطهم الا اذا منحتهم حق التصويت . وهكذا يظهر تكالب السلطة الحالية على الحكم مرة اخرى ، وتظل قواعد التمييز العنصري بلا مساس .

س ــ كيف اكتشفت العنصرية ؟

ج ــ اكتشفتها في اثناء اقامتي ، من عام ١٩٥٩ الى عام ١٩٦١ ، بباريس حيث كنت اتابع دروسا في الادب المقارن . هذا الغياب الطويل عن وطني ، والعشرة آلاف كيلو متر التي تفصلني عنه ، بدّلا الرؤية التي كانت لديّ . ولقد توافق هذا مع مذبحة شاربڤيل حيث اطلقت

الشرطة النار على جمهور من المتظاهرين المسالمين السود الذين رفضوا ان ينصاعوا لأمر الحكومة بحمل هوياتهم الشخصية بشكل دائم . قتل ستون وجرح عدة مئات منهم . نشطت في البلاد حركة احتجاج هائلة لم يسبق لها مثيل . وخيل للعالم الخارجي ان جنوب افريقيا سفينة تفرق . عندئذ « عرفت » ما معنى العنصرية . وآليت على نفسي ، منذ ذلك الحين ، ان أفضح هذه العنصرية واكافحها .

س ــ هل لاحظت تطورا ايجابيا لدى الأفريقانيين ؟

ج ــ اعتقد اننا الآن امام يقظة وعي جيــدة وبخاصة لدى الشبان الذين يتوجب عليهم ان يتسلموا السلطة بعد عشر سنوات . والواقع ان التغيير المسالم والهـادىء لا يمكن ان يأتي نسبيا الا من الافريقانيين . وللاسف اخشى ان لا يتاح لنا وقت كاف لتطور طبيعي وبطيء بشكل خاص . وعلى الرغم من التحسن الظاهر ، فانا ارى ان الوضع يسوء ، وان المواقف تزداد تصلبا يوما بعد يوم .

في الماضي ، ومهما كانت الآلام التي قاسى منها السود ، كان يبقى لديهم احتياطي من الارادة الطيبة لقبول اقل بادرة من بوادر التعاون مع البيض . ولكن الشبان السود اليوم يرفضون بشكل قطعي كل مصالحة. لم يعد بوسعهم الانتظار بعد ان عاشوا تجارب تحرير موزامبيق ، وانغولا، وزيمبابوي ؛ والحركة الناشئة لتحرير ناميبيا . انهم يرغبون في تسلم الحكم بأكمله او التخلي عنه بأكمله . لا مكان عندهم لانصاف الحلول .

س ــ الى اية مرحلة وصلت الالفبة او حركة تعليم الأميين ؟

ج ــ يوجد في الوقت الحاضر تعليم اجباري علماني لجميع السود حتى سن الثانية عشرة . ولكن المنهج التعليمي الذي يتعلق بهم قد وضعه البيض ، وهو يهيىء التلامــذة لحالة من الشعور بالنقص والخضوع

للبيض . حين يكون الشبان بالغين فان المبادرة تكون سهلة لان امامهم خيارين لا ثالث لهما : فهم اما ان يعيشوا في البانتوستان (الدويلات المصطنعة) بعيدا عن البيض ، واما ان يعملوا من اجل البيض ويتحولوا الى وضع هو اقرب ما يكون من العبودية . ان الثقافة السوداء هي الآن في وضع توشك معه ان تتحطم ، وهي تجربة مؤذية بالنسبة الى السود ، فاذا كان البعض منهم يبقى شديد التعلق بالتقاليد ، فان معظمهم يفكرون اليوم بأن احسن طريقة لمجابهة السلطة البيضاء انما تكون في تمثل مفاهيمها واسلحتها ، وهكذا يتمكنون من محاربتها بشكل افضل .

س ــ يمكن أن تكون الكتابة سلاحا . هل السود يستعملون هـذا السلاح ؟

ج ــ في البدء اخلت التقاليد الشفهية مكانهـا للكتابة التي اتاحت للحكايات والاساطير الميثولوجية والقصص الملحمية ان تدخل باب الخلود . في حوالي الخمسينات فرض جيل من الكتاب السود الكبار نفسه على الجو الادبي . تدخلت الحكومة فمنعتهم من نشر كتبهم ، ونفت معظمهم . وهكذا وجـد الجيل الجـديد من الكتاب السود ، ولا سيما الشعراء والمسرحيين منهم ، ان صلته مقطوعة مع هذا الادب الذي يعتبر حديثا ايضا . وتشكل الثورة الكتابية ، التي نشهدها الآن لدى السود ، اروع ظاهرة في ادب جنوب افريقيا .

صحيح ان الادب لدى السود ليس له المعنى ذاته لدى البيض : فهو يشكل لدى البيض جزءا مكملا لثقافتهم باستثناء اولئك الذين يروَن فيه وسيلة للرفض والاحتجاج او الالتزام بالواقع السياسي ، اما السود فالادب لديهم اداة كفاح . وليس المقصود منه صياغة جمل جميلة بل اشعال نار الثورة .

س ــ في الستينات كنت تنتمي الى فئة الكتاب الذين يقاومون النظام القائم . كنتم تتمنون آنذاك ان تلغى « المحرمات الاخلاقية والدينية والجنسية ... » .

ج ــ كانت هذه المحرمات تسيطر على الادب الافريقاني ، ولكن البعض منا شعر بضرورة الذهاب الى ابعد من ذلك ، الى وضع سياسة الحكومة موضع انتقاد ، وكان هذا هو الامتداد المنطقي لاهدافنا .

هكذا ولد ادب اكثر التزاما في مطلع السبعينات . وقادتني اقامتي الثانية الهامة بباريس ، في العام ١٩٦٨ ، الى هذا النوع الجديد من الادب . وتحقق لي ان الحياة في جنوب افريقيا انما يسيطر عليها المجتمع حتى في المجالات الحميمة منها . ولقد فضحت هذا الامر في كتاباتي ، ولكن السياسة لدي ليست سوى جزء من التجربة الانسانية . واحاول ان ابسط المزيد من جماع هذه التجربة في كتبي . ان روايتي « موسم الجفاف الابيض » قد اتسمت بطابع سياسي مفتوح ، وذلك بسبب طبيعة الموضوع الذي تعالجه . في حين حاولت في روايتي « صمت صاخب » ان ادخل بعض العناصر الاخرى . فالجنس بخاصة يشغل فيها مكانا على جانب كبير من الاهمية . انه الميدان الوحيد الذي يعرف فيه الانسان جزءا من الحرية ، ويعبر فيه عن نفسه اذن بمنتهى العنف .

س ــ تنهي كتابك « موسم الجفاف الابيض » بهذه الكلمات : « كل ما يستطيع المرء ان يأمله ، وكل ما استطيع ان آمله لربما لا يساوي شيئا آخر غير هذا : ان اكتب ، ان اروي كل ما اعرفه ، لكي يستحيل علي القول مرة أخرى بانني لا اعرف ... » في سني فتوتك الاولى كنت تعيش في وسط البيض الذين لا يعرفون .

ج ــ ومع الاسف هناك على الدوام من لا يعرفون أو من لا يريدون ان يعرفوا .

س ــ منذ عدة سنوات شبهت واجب المثقف بواجب انتيفونا : « التخلص من قيود كريون Créon الزمنية والذرائعية والانتهازية لصالح حقيقة ارحب ومسؤولية أوسع » .

ج ــ واجب الكاتب هو واجب انتيفونا على الدوام : قول « لا » لكل ما يحقر أو يمس الكرامة الانسانية .

س ــ توجد بوضوح خطوط متوازية بين المأساة الافريقية وبين روايتك « صمت صاخب » . المقصود هو اعادة انشاء حادثة واقعية هي ثورة عبيد سود في العام ١٨٢٥ ، وقبيل الغاء الرق الذي كان السود ينتظرونه بفارغ الصبر منذ عدة اسابيع . تفشل الثورة ، ولكن العبيد يقتلون أسيادهم ويحرقون مزارعهم .

العنوان الاصلي للرواية بالانكليزية ، وهو « سلسلة من الاصوات » ، يحدثنا عن ذلك حديثا مطولا . انك تبسط امامنا ، في سياق الرواية ، شهادات جميع الاشخاص وجميع ممثلي التاريخ من سادة وعبيد ، وسواء أكانوا موتى أم أحياء . واذا تحدثنا عن كتبك السابقة كروايات تعالج قضايا ، فانه يبدو لي ان في هذه الرواية الاخيرة مزيدا من القرابة مع الدراسات التي تتطرق الى الاخلاق والطبائع . ومع ان التنازع بين السود والبيض موجود في كل مكان ، فانك تصر ، ولو لم يكن ذلك إلا بالاستناد الى شكل الرواية ، على جعل القارىء يصدق كل شهادة وما فيها من تماسك وتلاحم .

ج ــ آمل ان اكون قد توصلت الى ذلك . والحق انني بذلت جهدا كبيرا في تعميق اكتشافي لعدة أشخاص وهم يجابهون بعضهم بعضا وفي الوضع ذاته .

س ــ بييت Piet ، الأوباس ، او والمعلم الشيخ ، يتذكر في احدى الشهادات الاولى الواردة في الكتاب ايام شبابه وكيف انه ذهب الى مدينة

الكاب « ليجلب امرأة ويشتري غراسا وطعوما » . ما يدهش المرء أن يكتشف ، في سياق الصفحات ، أن النساء البيض كانت تساء معاملتهن كالسود سواء بسواء .

ج ـ في معظم المجتمعات الغربية تقريبا رق المرأة هـو الرق الذي ما يزال مستمرا . ولقد كانت المرأة ، في القرن التاسع عشر بشكل خاص، عبدة شأنها في ذلك شأن العبيد الحقيقيين تماما .

س ـ خلال الرواية بأكملها ثمة شخصان يفرضان نفسيهما كحكيمين عن كل فئة ، مع وجود بعض الفلو . بييت يمثل نوعا من الحكمة البيضاء بالمقابلة مع حكمة ماما روزا السوداء . لكل منهما معتقداته وآلهته . هذه الآلهة تعود الى الظهور بشكل منتظم ، ولا تبتعد عن تبرير الخصومات الحاضرة أبدا .

ج ـ نعم . إله البيض هو إله العهد القديم في التوراة . انه مطلق ، منعزل عن العالم ، منعزل عن الحياة وعن التجارب التي يعيشها البشر . موضعه فيما وراء كل شيء . من السهل اذن ان نجـد تبريرا لجميع اعمالنا بالرجوع الى ارادة هذا الإله . هذا النظام القاسي مؤسس على تفوق العرق الابيض ، والعرق الابيض يعتقد انه وجد هنا في جنوب افريقيا ـ كما وجدت اسرائيل قديما في الصحراء وتبعا لمشيئة هذا الإله بحسب التوراة ـ اما « لهداية » السكان المحليين اي تحويلهم عن دينهم ، واما لاستئصالهم لانهم رجس في نظر هذا الإله .

اما إله ماما روزا السوداء فهو تجربة واقعية ، ملموسة . انه إله معاش يعبر عن نفسـه في عناصر التراب ، والماء ، والريح ، والنار . وهذه العناصر هي علاماته ، وهي أطراف جسده . لدى ماما روزا ، كما لدى جميع السود ، يقوم معنى التجربة الدينية على هذه الصلة مع العناصر ،

مع الحقائق الكونية التي تتجاوز الوجود الفردي . هذا الإله الكبير الذي يؤمن به هؤلاء السود يدعى تسوي ــ غواب Tsui - Goab أي « الفجر الأحمر » .

س ــ وهل ما يزال تسوي ــ غواب دائم الحضور لدى السود ؟

ج ــ نعم ، خصوصا بين اولئك الذين يعيشون داخل البلاد . انهم يحترمون التقاليد القبلية كثيرا . على ان تأثير المسيحية قد بدا يظهر ، وبعض السود يحاول ان يتهم وينتقد بشكل منهجي كل دين .

س ــ وما هو مصير إله البيض ؟

ج ــ يسود الكنيسة الافريقانية في الوقت الحاضر اضطراب كبير . ولقد اخذ البيض ، بدءا من هذه السنة ، يتساءلون عن التبرير الذي تقدمه الكنيسة الكالفانية لمبادئها . وارى في هذا التساؤل بابا للأمل .

س ــ في بعض رواياتك يصلح الحب بين أسود وبيضاء كخاتمة للرواية . جوزيف مالان وجيسيكا في روايتك «في احلك سواد من الليل»، وآدم واليزابيت في روايتك « هنيهة في الريح » ، واليوم غالانت وهيستير في « صمت صاخب » . لماذا هذه المقاربات ، هذه المخالفات القصوى في النهاية ؟

ج ــ المراة البيضاء والرجل الاسود يوجدان في أقصى قطبي الاضطهاد ضمن المجتمع العنصري بجنوب افريقيا . حين يذوب هذان القطبان في الحب ، يمكن ايجاد مخرج من الدرب المسدود .

س ــ يقول غالانت في نهاية الكتاب ان حبه لهيستير ليس له معنى من دون الثورة ، وان الثورة لاشيء لو لم يعقبها هذا الحب . اية فلسفة تستنتجها من هذا التناقض ؟

ج ـ استنتج رمزا للانسانية ، هنـاك اعمال في غايـة الاهمية على الافراد ان يحققوها من اجل جميع الانسـانية . يقول البير كامو : « اتمرد، فنحن اذن موجودون » . هذا هو مفتاح المشكلة . تجربة شخصية تنفتح على تجربة اجتماعية وكونية . لقد فشل التمرد ولكنه يجب ان يعود . واليوم ايضا يوجد في جنوب افريقيا تمرد دائم يجب ان يستمر ، وينمو، ويفرض ذاته . التبدلات الجوهرية شيء لا غنى عنه . والتغير السياسي لا فعالية له مالم يكن مرتبطا بتغير عميق في مواقف الفكر .

آمل بالكتابة ان اسهم في هذا النوع مـن الثورة « الخصوصية » . والواقع ان كتابا ما انما يقراه في البدء شخص منزو في عزلته الكاملة . فاذا وجد هذا الشخص تطورا في احاسيسه وانفعالاته ، وفي نظرته الى العالم بفضل الكتاب المذكور ، واذا كان يتقاسم تجربته مع الآخرين ، فيمكن ان آمل بوجود منطلق جديد . تلك هي البداية لكل ثورة فعالة .

ـ في « صمت صاخب » تقول ماما روزا : « وحده الرجل الحر يستطيع قول الحقيقة » . هل تعتبر نفسك رجلا حرا ؟

ج ـ لاأحد حر . لاأحد حر على الاطلاق . ولكن بوسع الانسـان ان يتطلع الى الحرية .

س ـ ومع ذلك فجميع الاشخاص الذيـن يشهـدون في روايتـك يتوصلون معا الى قول الحقيقة . هـل يمكن افرادا مجتمعـين اذن ان يكتشفوا انهم احرارا ؟

ج ـ نعم . اذا كان شخص واحد لايستطيع ابدا ان يبلغ الحرية ، فان افرادا مجتمعين يقومون بتجربة جماعية كاملة يستطيعون ان يؤكدوا بانهم اقتربوا كثيرا من هذه الحرية .

٢ ــ مقابلة مع نادين غور ديمر

تبلغ نادين غورديمر من العمر ستين عاما . كتبت حتى الان سبع روايات وست مجموعات قصصية . وبمناسبة نشر روايتها الاخيرة « شعب جولي » ، واعادة طبع روايتها الثانية الشهيرة « ابنة بيرجر » ، وصدورها مؤخرا مترجمة الى الفرنسية ، كان لنا معها هذا اللقاء . والجدير بالذكر ان بطلة هذه الرواية ، وهي روزا بيرجر ، تحاول ، في سياق الرواية ، ان تعثر على هويتها : انها ابنة افريقاني (من سكان جنوب افريقيا البيض) ، شيوعي، ضحى بحياته من أجل قضية مواطنيه السود.

وفيما يلي ترجمة لهذا اللقاء :

س ــ تقول بطلتك روزا بيرجر في مكان من الرواية : « لا أشعر بالارتياح لوجود الصحفيين » . فهل تضعك المقابلة التي نبداها الان في وضع مماثل ؟

ج ــ كلا ، كلا . . . ان من بين افضل اصدقائي عددا من الصحفيين . وعلى هذا لا مشكلة !

س ــ لماذا اضطرت روزا الى الادلاء بهذا التصريح ؟

ج ــ يبدو لي ان روزا اضطرت الى ذلك بالنظر الى الوضع العنصري القائم في جنوب افريقيا . . . كثيرا ما يأتي الي صحفيون اجانب ليطلبوا مني ان اجمعهم بزعماء سود ، ولكن يصدف ان لا يرغب هؤلاء الزعماء السياسيون في التحدث الى صحفيين لما يمثل ذلك من خطر اكيد عليهم . . . في مثل هذا الوضع احس بانني اشبه روزا قليلا . . .

س ــ مايلفت في الفصول الاولى من روايتك هو التناوب في استعمال الشخص الغائب والشخص المتكلم . اليس المقصود هو التعبير من جهة

عن حضور التاريخ وحضور الادب والايديولوجية ، ومن جهة ثانية عن حضور اليومي ، والواقع الداخلي ، والحياة المحسوسة لامرأة شابة ؟ .. ان قوة كتابك ، ومطابقته للواقع يكمنان ، كما يخيل لي ، في هذه الشحنة الانفعالية المتساوية التي توصلت الى اشاعتها في الفصول الوثائقية وفي المقاطع الاكثر حميمية على حد سواء ...م

ج ـ الاديب الحق لايمكنه ان يجهل مسألة الاسلوب . هناك اشخاص يقولون : سنكتب رواية بهذا الاسلوب او ذاك ... هؤلاء ليسوا كتاباً حقيقيين . وما الاسلوب سوى الطريقة الجيدة للتعبير عن المضمون .

هنا اختيار الزمن مثلا جزء لايتجزأ من اسلوبي ومن حبكة الرواية . والواقع ان المشكلة الاساسية ، التي يجب على روزا ان تواجهها ، هي الشعور الذي تحس بموجبه ان الاخرين هم الذين صنعوها . ولقد بنيت شخصيتها من خلال الفكرة التي كان اقرباؤها يكونونها عنها . هذا ما اردت التعبير عنه وانا اشيد كتابي بهذه الطريقة ... لقد طال بي الدوران حول هذه الرواية قبل ان اتمكن من البدء بكتابتها ، لانني شعرت بانني لااستطيع الاكتفاء بتقنية سردية عادية ، فاستعملت زمنا وحيدا ووجهة نظر وحيدة ، سواء اكانت وجهة نظر المؤلفة ام وجهة نظر الشخص المعني . كان يجب علي ان اكون في داخل روزا لكي اظهر ردود افعالها تجاه الاعتداءات الخارجية . ومن هنا الفصل الاول عن البنت الصغيرة وهي على باب السجن الذي حبس فيه ابوها . ولكن لكل هذا بالتأكيد معنى مضاعفا : ففي الواقع لايعرف المرء ابدا ماالذي يفكره الاخرون فيه . انه يرسم ، يتخيل ... وفي البدء شاهدت روزا نفسها كما كان ينبغي لها ان تكون وهي طفلة .

س ـ في نهاية هذا الفصل الاول يوجد على وجه الدقة مقطع بحروف بارزة ومدرج بين هلالين . ان القارىء ليتساءل الى من يجب ان ينسب ...

ج ــ في الطبعة الانكليزية واضح ان المقصود هو خلاصة ورقة شيوعية صغيرة ، فيها يتحدثون عن «البنت الصغيرة الشجاعة» مع جميع الرواسم المعتادة . لادري اذا كان هذا المقطع قد نقل في الترجمة ... هنا يعبر اصدقاء ليونيل بيرجر ، والد روزا ، عن نظرتهم الى روزا او بالاحرى هكذا يريدون منها أن تكون .

س ــ في روايتك غالبا ماتستعملين انواعا من الملصقات : وثائق ، مستندات ، منشورات الخ ...

ج ــ نعم . مثلا حين تستقبل روزا ذلك الشخص الذي يكتب سيرة والدها ، ليونيل بيرجر ، ندرك انه يسطر هذه السيرة بالاسلوب التقليدي، مما يبدل في معنى الوجود المروي ، لذلك الجأ احيانا الى الملصقات .

س ــ ماهي حصة الواقع في استعمالك للمصادر ؟

ج ــ الواقع والخيال يمتزجان ، طبعا . لناخذ شباب الاب : يذكر القارىء انه يجب على هذا الاب ، في بداية زواجه ، ان يمثل امام المحكمة في دعوى سياسية . وعلى هذا ، انطلقت من دعوى حقيقية يرجع تاريخها الى ذلك العهد ، ولكن توريط بيرجر وعروسه في هذه الدعوى انما هو تخيل صرف ... وبالمقابل فان الاسود ، الذي يؤدي دور وصيف الشرف في هذا الزواج ، والذي يمثل هو ايضا امام المحكمة ، يتطابق مع شخص حقيقي هو زعيم أسود . لقد توفي هذا الشخص . وكذلك فان عددا من اشخاصي الثانويين قد وجد فعلا . وحدهم الممثلون الرئيسيون قد تم اختراعهم ... اما تاريخ الحوادث السياسية فهو يتبع بدقة مجرى التاريخ الحقيقي . ومحاكمة بيرجر تتوافق مع اخر محاكمة سياسية جرت عام ١٩٦٤ ، حين حكم بالسجن على عدد من الاشخاص بينهم بيض وسود وهنود . وكما يقول أحد اشخاصي فان الحكم بالسجن المؤبد في

جنوب افريقيا يعني فعلا السجن المؤبد . ولقد مر حتى الان عشرون عاما على هذه المحاكمة ، واستطيع ان اؤكد لك ان هؤلاء الاشخاص قد ماتوا او انهم مايزالون في السجن .

س ـ يشير الناقد كونور كروز اوبريان الى ان في روايتك مفاهيم مسيحية ، الامر الذي يثير الدهشة للوهلة الاولى . مارايك ؟

ج ـ حين قرات نقد اوبريان قلت لنفسي ان هذا مستحيل . الست ملحدة ؟ وحين فكرت مليا فهمت ما اراد ان يقوله . ان « ابنة برجر » كتاب يحتل فيه الايمان ، الايمان بالنفس ، مكانا كبيرا .

س ـ كما لوان الايمان الشيوعي ذو طابع ديني ...

ج ـ تماما . ولكن الامر يتعدى ذلك ... حين تتساءل روزا عن الايمان الشيوعي والتزام اقربائها بخدمة المثل الاعلى الانساني ، تكون قد تجاوزنا مفهوم الايمان . المشكلة الحقيقية هي الالم ونتيجته الطبيعية الفداء او الخلاص ...

س ـ ولكن هذه موضوعات مسيحية ؟

ج ـ صحيح ، مادام المقصود هو حمل الالام عن الاخرين ، كما فعل المسيح . ليونيل برجر شيوعي ملحد ، او هو المسيح الجديد لجنوب افريقيا . ليست حياته تشبه حياة يسوع مادام يضحي بها من اجل الآخرين ؟ ... من وجهة النظر هذه يبدو الناقد اوبريان على حق ...

س ـ مع فارق واحد هو ان الفداء لايتم ابدا . روزا بدورها مسجونة وهذا ما يقفل الحلقة . انها لنهاية فيها شيء من التشاؤم ، اليس كذلك ؟

ج ــ لابالنسبة الي ... وعلى العكس فان روزا تجد فداءها او خلاصها باعتبارها فردا . لقد حاولت ان تبتعد عن ابيها وعن القضية لتحيا حياتها . موضوع النزاع بين الوفاء للافكار وبين الوفاء للحياة الخاصة هو في الصميم من جميع اعمالي ... وبعد فان لكل امرىء الحق في ان يعيش الحياة التي تحلو له . اذا اردت ان تذهب غدا الى جزيرة من جزر اليونان وتقضي وقتك في تامل اقسام من جسدك فهذا حقك الذي لايستطيع احد ان يناقشك فيه... الشيء ذاته بالنسبة الى الانتحار ... تلك هي الحرية الفردية ... على ان الطريقة التي ينبغي لك ان تتبعها يجب ان تكون على توافق مع ضميرك الاخلاقي ، اي مع المعنى الذي تريد ان تهبه لحياتك ... لقد ادركت روزا ، بعد رحلتها الى اوروبا حيث تفتحت لديها شخصية المراة ، ان حياتها لن يكون لها اي معنى اذا لم تعد الى جنوب افريقيا ، وهكذا عادت الى وطنها لكي ترمي بنفسها في الصراع . ذلك هو فداؤها الذي لم يوح به من اعلى وانما نبع من اعماق نفسها . انها قضية مسؤولية وتحد وجودي ...

س ــ في النهاية تقريبا تقول روزا : « الايديولوجية ، انا لااعرفها . المقصود هو الالم . » ان نجاح روايتك يقوم على وجود توازن بين الرسالة والخيال . وبهذا الصدد اراك رائعة لانك اقل تعليمية من زميلتك الكاتبة الكبيرة دوريس ليسينغ Lessing ...

ج ــ الواقع انني فكرت في هذا الكتاب خلال سنوات طوال كما لو انني كنت انتظر ان يكتبه شخص اخر غيري ... اما فيما يتعلق بدوريس ليسينغ فانا ارى ان حكمك عليها قاس اذ لديها هي ايضا روايتها الرائعة « الدفتر الذهبي » ... وعلى اية حال ، لاتنس ان ليسينغ لم تعش الحياة ذاتها التي عشتها ، على اعتبار انها غادرت افريقيا منذ عهد بعيد . بلى ، انا وهي لانتحدث عن التجربة ذاتها .

س ــ هل هذا يعني انك ماكنت كتبت « ابنة بيرجر » لو لم تعيشي في جنوب افريقيا ؟

ج ــ بالتاكيد ... وكما سبق ان قلت لك فانا لست شيوعية ، وعلى الرغم من بعض الصلات التي كانت تربطني بحركة الشيوعية السرية فانا لااعتبر من بين اعضائها ... تأمل هذه المرحلة المميزة : في السابعة عشرة من عمرها توجب على روزا ان تدعي انها خطيبة احد السجناء ليتاح لها بهذه الحيلة السياسية ، ان تدخل السجن وتحمل اليه بعض الرسائل . لم يخطر على بال احد ان تحب حقا ذلك السجين ... هذا الموقف يعتبر عاديا الى حد ما ، اذ ماكان يهم هو القضية بمعناها الكبير ... نعم ، كل ماعدا ذلك كان ثانويا واعني الحب ، والجنس ، والعائلة ... وهذا ماحملني على الاعتقاد بانني لم اكن قادرة على ايفاء هؤلاء الاشخاص الرائعين حقهم من الاعجاب والتقدير ... يضاف الى ذلك ان عددا منهم كتب وثائق هامة عن تجاربه في نصرة القضية ... وحين قررت اخيرا ان ارمي بنفسي في الماء صادفت عدة صعوبات عملية . كنت لااعرف جيدا بدايات الحزب الشيوعي في جنوب افريقيا ، والواقع ان الوثائق والمستندات كانت تنقص في تلك البلاد . كل شيء مراقب ، والشيوعيون لايحتفظون بتصانيف ، والذين اقترفوا خطأ الاحتفاظ بوثائق وقعوا في مآزق عسيرة .. وهكذا ساعدني اصدقاء منفيون في ايجاد الكتب الضرورية ... واستطعت ان اتحدث الى اشخاص معنيين مع انهم لايبوحون بما لديهم بسهولة . كانوا يخشون ان يتكلموا ، ولا يجرأون حتى على التحدث عن وقائع حدثت منذ نصف قرن تقريباً ... وعلى اية حال ، مـا كنت ارغب في كتابة رواية تاريخية واجتماعية . وما كان يهمني هو الاشخاص انفسهم ، بطبائعهم وعاداتهم ، وخصوصا الشباب منهم ، ابناء الجيل الثاني ...

س ــ هل طرا تغير على الوضع السياسي والمشكلة العنصرية منذ ان كتبت هذه الروايــة ؟

ج ــ منذ ١٩٧٦ ، وهو عام الثورة المسلحة في سويتو ، لم يطرأ سوى تغير بسيط جداً ... ارجو المعذرة ، ولكن لدي انطباع بأنهم في أوروبا فضوليون سذج كأنهم يجهلون سيرورة التغيرات الجذرية العميقة، مع انكم لا تجهلون تاريخ التحركات السياسية في العالم الحديث ، وسبق ان اندلعت لديكم نيران الثورة الفرنسية الكبرى ... هناك من جهة **اسطورة المساء الكبير** ، اليس كذلك ، بمعنى ان اليوتوبيا هي لصباح الغد ... ومن جهة اخرى يتساءل المرء عن معنى وفائدة عمل يقوم به رجال كليونيل بيرجر ، أو تقوم به فتيات كروزا . لماذا الدخول الى السجن ؟ ... قد تقول لي ان الاشياء تتقدم بعد كل ثورة ، بعد كل محاكمة ، بعد كل مخاطرة . وقد تتقدم نحو الكارثة ، نحو الحرب الاهلية، ولربما ايضا نحو حل سلمي .

وحده هذا النوع من الازمات يمكنه ان يتقدم بمجتمعنا . حوادث ١٩٧٦ شكلت منعطفا خارقا . وما كنت اتصور ان احداً لن يكتب هذا الكتاب الذي فكرت فيه ، ويجب ان يكون كاتبه رجلا أسود . بين المؤلفات التي ولدت من هذه الحوادث لا تعتبر سوى الوثائق . وانا متأكدة انه سوف يأتي يوم تكتب فيه رواية سوداء كبرى ... وهذا لا يمنع من ان تستمر سويتو في اثارة ردود فعل ، خصوصاً بين السكان السود . اما السلطة البيضاء فعليها ان تحسب حساباً لهذا التطور . ان الخوف من الانسان الابيض في الشارع يزداد باستمرار ... يعلم هذا الانسان الابيض ان عليه ان يخلي الارض . واخلاء الارض لن يكون كافيا وسيحصل متأخراً ، على ان اكثر البيض تشدداً يعرفون ان تغيراً ما يجب ان يتم . انا شخصياً ما كنت اعتقد في يوم من الايام انهم يستطيعون منح السود حق انشاء نقابات للعمال على النمط البريطاني ، ومع ذلك فقد منحوهم هذا الحق بعد ان توجب على الحكومة ان تستجيب لمطاليبهم ، وذلك دائما بسبب ١٩٧٦ .

س ــ في روايتك الاخيرة « شعب جولي » ، التي ظهرت مؤخراً في انكلترا وفي الولايات المتحدة ، والتي ستظهر ترجمتها الفرنسية في غضون عدة اشهر ، تتصورين جنوب افريقيا كما يجب ان تظهر بعد الثورة .

ج ــ لا بعد الثورة بل في اثنائها ...

س ــ ايــة ثورة تقصدين ؟

ج ــ انظر ما حدث في روديزيا وفي زيمبابوي الحالية : عدة سنوات من الحرب الاهلية ، وثمانية آلاف قتيل ... النهاية صممت مسبقاً ، ولم يكن لإيان سميث والبيض اي حظ بالبقـاء في السلطة . حصلت فوضى مفجعة . خربت البلاد ، ودمر اقتصادهــا ... ووجــدت بلاد مجاورة هي زامبيا في هوة البؤس بطريقة غير مباشرة ... كـل هــذا لماذا ؟ ... في هينهات الكآبة اتصور شريطاً مماثلاً لجنوب افريقيا ولكنه اطول واكثر دموية ... البيض في جنوب افريقيا اقوياء جــداً ، وهــم نسبياً اكثر عــدداً من البيض في زيمبابوي ... جيشهم ، كما نعرف جميعاً ، في منتهى القوة ، وصناعتهم خارقة التطور بما لديهم من ثروات منجمية وطاقات هائلة ... ويكفي ان يعثروا على آبار للنفط لكي يؤمنوا لانفسهم استقلالاً كاملاً واكتفاء ذاتياً تاماً . يوشك الوضع ان يكون رهيباً ومأساوياً ، ولا ادري كيف السبيل الى الخلاص ... في مطلع روايتي « شعب جولي » تبدو جوهانسبرغ معسكراً منعزلاً تحول الى خرائب ... قال النقاد عن هذه الرواية انها رواية استباق (اي تجري حوادثهــا في المستقبل فتستبق تطور العلوم) ، وانا اخشى ان لا تكون شيئاً . انظر ما حدث في جنوب افريقيا . في عام ١٩٨١ لم يكن يمر شهر ، او اسبوع ، من غير ان تجري عملية اغتيال او تخريب في المدن يقوم بها اناس يتسللون من موزامبيق او من سواها ، ويغطيهم اخوة لهم في جنوب افريقيا . هنا دمرت محطة كهرباء ، وهناك صرع مفوض شرطة بصاروخ اطلق عليه من

مسافة عشرة كيلو مترات من قبل انصار يختبؤن في الادغال والاعشاب العالية التي تحيط بالمدن الكبيرة . وبعبارة اخرى ، ليس لدى السكان البيض في المدن اية وسيلة لحماية انفسهم من هذا النوع من الاعمال .

س ـ هل يمكن الكلام عن حرب عصابات ؟

ج ـ نعم ، ولا يمكن الا ان تزداد يوماً بعد يوم . بعد قليل ، سيكون الوضع ، كما في سالسبوري ، حيث لا يستطيع المرء ان يذهب الى عمله او الى السوق الا وهو مسلح . اتساءل كم من الزمن نستطيع ان نعيش على هذه الحال . في كل يوم تفقد المنظمات السوداء المعتدلة ، التي تبحث عن انصاف حلول مع السلطة البيضاء ، من شعبيتها لدى الانصار من الشبان السود . الموقف حرج ودقيق وهو يهدد بالانفجار ... بعد الحرب ، وحدهم الشيوعيون ، كشخص دوايتي برجر ، كانوا يرون ان الراسمالية والعنصرية متضامنتان ويؤلفان في الواقع كلا لا يتجزأ ... التأثير على الوضع العنصري يفترض تغييراً في العلاقات الاقتصادية والاجتماعية . اليوم ، وفيما عدا حالات نادرة ، يرفض السود الاندماج لانهم يريدون ان يتغير المجتمع تغيراً جذرياً ، وهم على حق لان القبول بالنظام الحالي سيقود الى استمرار الاوضاع المتردية التي تشجعها الحكومة . مثال على ذلك : التباعد الهائل بين الارياف والمدن ، بين المجتمع الفردي والمجتمع المصنع . ويثير الدهشة هذا الفرق في مستوى الحياةبين سويتو او ايمجتمع مصنعاسودوبين الارياف. مايزالالفلاحون السود يرتدون الثياب البالية ، واولادهم لا يذهبون الى المدارس الا يومين او ثلاثة في الاسبوع . انهم عبيد حقيقيون للمزارعين البيض ، وجهلة لم يخضعوا لاي نوع من انواع التربية المدنية او السياسية . عقليتهم عقلية مرتزقة ، واقطاعية البيض تسيطر عليهم سيطرة تامة . اي تناقض مع المدن ! سود جوهانسبرغ واثقون بانفسهم ، وينظرون الى

المستقبل . هم يعرفون كم الفرق بينهم وبين سكان المدن كبير وخطر ، وفي الوقت ذاته يعون ضرورة تكوين مجموعات تشكل النخبة السوداء .

س ـ من البدهي القول انك لست متفائلة ابداً فيما يتعلق بمستقبل بلادك ؟

ج ـ الامر يختلف . حين اكون وحيدة اميل الى اليأس ، ولكن حين اكون برفقة اناس ـ بيض وسود ـ يبحثون باخلاص عن حل سلمي ، وهم اناس رائعون يتحلون بالشجاعة ، فان الامل يولد في اعماق نفسي . احيانا ، ينبع الضوء من صميم الظروف المأساوية : في نهاية عام ٨١ وبداية ٨٢ اوقف عدد كبير من الشبان الانصار ، فيهم سود وبيض وهنود . اوجدت الحكومة نقابات للسود ، وهي علامة تشير حقاً الى تقدم جدي ، والى اهتمام يتحلى بتحررية جديدة كل الجدة . ومع ان لدى السود قوة صناعية كبيرة منهم لا يحسنون تنظيم انفسهم . وهكذا ظهر شبان مثاليون ، وبخاصة بين البيض الذين يدرسون الحقوق او الاقتصاد او العلوم الاجتماعية . ومن غير ان تكون لهم هوية سياسية معينة ، فقد رأوا في تجمعهم وسيلة لعمل شيء إيجابي . تركوا الجامعة ليلتحقوا بالنقابات العمالية وذلك لمساعدة السود في ايجاد تنظيم لهم ، ولادخال الافكار اليسارية في هذه النقابات . وهذا هو طريق الصواب، اذ ماذا ينتظر من الحركة النقابية لو بقيت قائمة بموجب الانظمة المطبقة في جنوب افريقيا ؟ ومن هنا لجأت السلطات الى توقيفهم ، وحبس كل منهم حبساً إفرادياً . تصاعدت الاحتجاجات الشديدة ضد هذه الاجراءات . وتسربت الانباء بان الموقوفين يخضعون للتعذيب . وحتى لو لم يكن هناك تعذيب كما تدعي السلطات ، فقد ثبت عمليا ان الاقامة الطويلة في عزلة تامة تشكل بحد ذاتها تعذيباً . واضرب مثلا قصة ذلك الطالب الذي يدرس الطب : لا احد يدري ما حصل له ، ولعلهم لم

يسيئوا معاملته ، الا ان الشيء الاكيد ان هذا الطالب قد وجد مشنوقاً في زنزانته . وخلال سنوات طويلة كان السود يرفضون ان يختلطوا بالبيض ولكنهم هتفوا لهذا الطالب الابيض في مسيراتهم الاحتجاجية . وفي سويتو، حين يجتمع السود في كنائسهم وهم يحملون لافتات التنديد ، يرى المرء بين صورتي بيكو **Biko** ونيلسون منديلا **Nelson Mandela** صورة هذا الطالب الابيض الشاب . قد لا يعني لك هذا شيئاً مهماً ، اما بالنسبة الي فهو ذو دلالة مشجعة . اذا اصبح البيض قادرين على ان يضحوا الى جانب السود لتهيئة المستقبل ، فانهم سيقبلون حتماً من قبل السود كمواطنين بيض في جنوب افريقيا . يصرخ المحافظون : انت مجنونة ، لماذا تخاطرين بجلدك وبجواز سفرك من اجل هؤلاء الناس الذين سيقذفون بك كما سيقذفون بنا الى خارج البلاد حين يتسلمون السلطة !

س ــ هل انت شجاعة ؟

ج ــ الى حد ما . . .

س ــ منع كتابك ، اليس كذلك ؟

ج ــ نعم ، لمدة من الزمن قبل ان يسمحوا بتداوله . كتابان آخران منعا ايضاً : اولهما لعشر سنوات، والثاني لاثنتيعشرة سنة . . . الآن انا مضطرة الى ان احسب حساباً لكل عمل اقوم به . ولحسن الحظ انا معروفة في الخارج ، وهذا ما اتاح لي نشر كتابي « ابنة بيرجر » . ولو ظهر هذا الكتاب منذ عشر سنوات لشمله الحظر . واظن ان المشرفين على السلطة هم ايضاً يحسبون حساباً لكل اجراء يتخذونه علماً بان كتابي ليس سهلاً ، وفيه روح ثورية يمكن ان تحرك الجماهير . لا شيء فيه يشبه رواية « كوخ العم توم » . حين منع اذان الراي العام العالمي حكومة جنوب افريقيا . وتلقت السلطات عدة برقيات احتجاج وخصوصاً من كبار الكتاب في العالم . لقد فهمت ان هذا الاضطهاد يجلب لها مساوىء تفوق محاسن المنع ، هذا اذا كان في المنع محاسن .

ودهشت فعلا حين رفعوا عن كتابي الحظر . هذه « الحماية » الخارجية التي احظى بها تتطلب مني بالمقابل ان استفيد منها . فحين اذهب الى الخارج واجري مقابلات فانني اقول الحقيقة من دون أن أخشى النتائج . وهل يمكنني ان افعل غير ذلك ؟

س ـ الا تتمنين بهذه المناسبة ان تحصلي على جائزة نوبل للآداب ؟

ج ـ (بابتسامة لاهية) بلى ، ولقد سررت كثيراً حين علمت بنبأ حصول غبرييل غرثيا ماركيز عليها في عام ١٩٨٢ ، فهو يعتبر من افضل الكتاب التقدميين في العالم ومن احبهم الى قلبي .

الابــــداع والتجريب في مسرح السيد حافظ

اسماعيل الامبابي

تعد مسرحيات السيد حافظ من المعالم البارزة في ادبنا الحديث ذلك انها تقف وحدها في قمة الريادة في ميدان المسرح التجريبي في الساحة العربية .

والسيد حافظ ليس مجرد كاتب مسرحي يحكي لنا حدثا في قالب درامي مسرحي بل يعتبر بانتاجه الفكري الناضج خالقا مبدعا له عالمه الخاص وفلسفته الخاصة .وهو يغوص دائما في اعماق النفس الانسانية محاولا الكشف والوصول الى ارض المثالية التي فقدناها في القرن العشرين محاولا الكشف عن كل

مايقابله انسان ذلك العصر من صرعات مادية ونفسية وحضارية . والذي لاشك فيه هو ان السيد حافظ يسعى جاهدا الى خلق اعمال باقية على الزمن تعيش لكل العصور مما دفعه في كثير من الاحيان الى الخروج صراحة على الاشكال الفنية المألوفة (وهذا مايؤكده الناقد العربي علي شلش ـ عن مسرح السيد حافظ ـ حينما قال ان (السيد حافظ) حطم بطموحه وجراته قواعد المسرح من ارسطو الى بريخت) والى توسيع ابعاد فنه الى مستوى التنبؤ العام الشامل بالاضافة الى الاهتمام بموضوعات الساعة والقضايا المباشرة .

والسيد حافظ من الكتاب الذين يحملون مسؤلية الغد على اكتافه وفي اعناقه فهو يخوض غمار معركة الحق والحقيقة والاشياء الخالدة . . . وهو يرفض ان يكون ملتزما بالافكار المجردة او باطالة التفكير المجرد فمسرحه يتكلم عن كل الازمان الأنسانية . . فهو يتكلم في مسرحه عن قضايا انسانية متعددة . . فهو يتكلم عن النازية ويدلي بموقفه منها ـ يتحدث عن اسبانيا وعن المقاومة . . يتحدث عن البلاد التي تعاني من الاضطهاد . . . يتكلم عن المشكلة الفلسطينية . . يتحدث ايضا في مسرحه عن ازمة الشرق الاوسط . . يتكلم عن الوجودية والبروليتاريا . . يتكلم عن فيتنام وعن جنوب افريقيا . . يتكلم عن الحرب القادمة . . . يتكلم عن التخلف والتراجع العربي . . يتكلم عن الحرية والديمقراطية المفقودة . . يتكلم عن الحياة المادية وتأثيرها على انسان هذا العصر .

فقديما قال دستوفسكي : ان كل انسان مسئول عن كل شيء امام كل انسان . اذن هذا الكاتب لم يحمل جواز سفر مصريا فقط بل في الحقيقة حمل هذا الكاتب جواز سفر عربيا افريقيا عالميا . . فكل قلوب الناس جنسيته .

والسيد حافظ طائر نورس جوال يحمل عشق قديس متفان وهو من مقدمة ذلك الجيل من كتاب المسرح العربي بشكل عام والمسرح المصري بشكل خاص .

ويعتبر السيد حافظ من جيل مابعد الستينات هذا الجيل قد تزود دون شك بكل التجربة الفنية والفكرية لجيل الستينات ايجابياتها وسلبياتها .. وهذا الجيل ابن لحظه التناقض الفكري والسياسي والاجتماعي بقدر ماكان جيل الستينات ابن لحظة الثورة كما قال سعد اردش وهذا الجيل استعان بالرصيد الهائل المتطور من افكار مسرح الستينات .

وقد لمع من جيل السيد حافظ في مصر كل من : وحيد حامد ـ لينين الرملي ـ د. سمير سرحان ـ يسرى الجندي ـ ابو العلا السلاموني ـ د. فوزي فهمي . الا ان كل من لينين الرملي ووحيد حامد اتجها الى مسرح الفارس ـ مسرح الضحك للضحك ـ لذلك تعاملا بنجاح باستمرار مع فرق القطاع الخاص الا ان اكثر هؤلاء الكتاب ابداعا هو السيد حافظ واقلهم ابداعا د. فوزي فهمي الذي اتجه نحو مسرح الهروب .. فاذا نظرنا الى انتاج د. فوزي فهمي نجد انه يهرب من ان يتعرض لقضايا الانسان المعاصرة وانه التجأ في اول اعماله الى التراث اليوناني في محاولة العلاج رؤيه مستهلكة ليست بالجديدة على المسرح المصري .. فها هو يقدم مسرحيته الاولى ـ عودة الغائب المفككة دراميا برؤية يدعي انها جديدة ولكنها في الحقيقة رؤية مشوهة لاوديب سوفوكليس .

ولكنه بحكم منصبه الاعلامي في مصر كعميد لمعهد الفنون المسرحية نجد انه اكتشف نفسه من خلال منصبه في الجامعة او في معهد الفنون المسرحية، ان وحي الهام المسرح يحاصره ويدعوه للكتابة للمسرح والادهى من ذلك محاولته اليائسة للتصدي لجيل المبدعين من الستينات واتهامهم بان مسرحهم كان مسرحا وهميا وعلى الاخص مسرح الواقعية عند نعمات عاشور وادعائه بان مسرح عاشور هو مسرح ضعيف في بنيته الدرامية وتناسى ان مسرحه هو الغير مترابط دراميا وان مسرحه ايضا ينتمي الى مسرح الهروب من الخوض والتصدي لقضايا الانسان الملحة وموضوعات

الساعة والقضايا المباشرة ويكفينا ان نورد هنا راي الكاتب المسرحي نعمان عاشور عن مسرحيات د. فوزي فهمي قال : هي مسرحيات تنتمي في المقام الاول الى جيل يحمل فكر الثرثرة والجدل السوفسطائي العقيم المفلس اكثر مما تحمل اي فكر آخر .

وذلك عكس مسرح السيد حافظ الذي اعتبره اكثر هؤلاء الكتاب ابداعا في مجال المسرح والذي يهتم دائما بقضايا الحياة .. لذلك فمسرحه يعيش من خلال الشكل ومن خلال التعبير لذلك فالسيد حافظ يعتبر من المبدعين الذين يملكون الفكر الثاقب الذي يشق طريقه دون وساطة الانتماء الشللي. .. لكن المسرحيين في الساحة العربية لايرحبون كثيرا بالاصالة وبالقيمة وبالتجديد وخاصة الساحة الفنية في مصر فهي تعاني دائما من شلليات متوغلة تجيء دائما على حساب الاعمال الجيدة وقد كان لي الشرف ان اشاهد حادثة بسيطة اعطتني انطباعا عن مدى تقدم الشللية في مصر بالتحديد فقد استطاع الكاتب المسرحي فوزي فهمي مع انتمائه الشللي الجيد جدا ان يجمع كل القوى لكي تتضافر لانجاح مسرحيته الاولى ــ عودة الغائب ــ لكي يخلقوا من كاتب مفلس فكريا وكاتب مستوى اول وكيف استطاعوا ان يقنعوا النجم السينمائي محمود ياسين بان يقبل دور واديب حتى يتحقق النجاح الجماهيري لخلق كاتب مشوش الافكار.

فكما يقول (كليف بل) ان الساحات الفنية والثقافية لايرحبون بالاصالة وبالتجديد مادامت تبدو اصيلة .. فالمثقفون (في الساحة العربية) يعجبون بمن يعطيهم بطريقة لا تثير مخاوفهم ذلك الشيء الذي اعتادوا ان يتوقعوه وهم في الجوهر لايحبون الفن الا كما يحبه المنافقون والمراؤون فهم لايريدون غير الاستمتاع برؤية القديم متلفعا برداء الجديد .. لذلك يفضلون اولئك الحلوانية الذين يثيرون قليلا من الفن على افكارهم ومشاعرهم المألوفة وهذا هو رد الفعل لكل الاعمال الابداعية التي يجيء بها السيد حافظ ــ فلانه ليس حلوانيا في اعماله فان رؤيته الجديدة

«الابداعية في الساحة العربية تبقى في نظر البعض مبهمة ويوجه اللوم الى شكل التعبير عنها . لذلك فالمسرح بهذا المفهوم اصبح اشد خطورة من النفاق ذاته في ساحتنا العربية والسيد حافظ مسرحه مليء بلغة الحوار الواعي فهو حوار متصل بين عقله وبين معاناة الانسان فهو يستوعب ويدرك قضايا الساعة لانه من الذين ينتمون الى جيل العطاء لذلك فهو يحمل في وعيه الشعوري واللاشعوري التاريخ الانساني .

ومن القضايا الاساسية التي تشغل فكر مسرح السيد حافظ هي الحرية وهي قضية جذرية لا يستطيع الانسان المعاصر ان يتخلى عنها او تتخلي هي عنه وهذا ما نجده في احدث مسرحياته التي صدرت أخيرا وهي مسرحية (حكاية الفلاح عبد المطيع) وهي من اجود المسرحيات العربية التي صدرت في الاونة الاخيرة وهي مسرحية من فصلين يناجي بها السيد حافظ الحرية .

وقد كان لي الشرف ان اشاهد هذه المسرحية على المسرح العراقي وكانت من اخراج الفنان العراقي الدكتور سعدي يونس وقد لاقت هذه المسرحية نجاحا جماهيريا كبيرا جعلتني اليوم اتناولها لكي استشهد بها على الابداعات الدرامية عند السيد حافظ وتأكيدا على انه مدرسة مستقلة .

واذا رجعنا الى الحرية عند السيد حافظ نجد انه يخاطبها كثيرا في مسرحه حتى تأخذ تلك الحرية مكانها ولما كانت الحرية لاتتامل ذاتها وانما هي تحقق هذه الذات .. فهو يخاطبها جاعلا نصب عينيه شيئا يريد تغييره فهو يضطلع بمهمة تأكيد الحرية ومخاطبتها في هذا العالم الذي نجد فيه ان الحرية مهددة باستمرار فهو يشعرنا ـ السيد حافظ في مسرحه دائما بانه مسئول عن حرية الانسان .

وها هي مسرحية حكاية الفلاح عبد المطيع التي يثبت من خلالها السيد حافظ انه مازال يحمل مسئولية الغد على اكتافه ويحمل مسئولية مساندة

الحرية في اي مكان او في اي زمان والتي من خلالها ايضا يريد حافظ ان يقول ان الحرية هي معادلة للحق وللخير فهو يؤكد وجودها لكي يتحقق لنا المستقبل ومن خلال هذه المسرحية يثبت السيد حافظ وجوده كرائد اتجاه جديد في المسرح التجريبي العربي .

ومن الملاحظ ان حافظ يستمد تجاربه الفنية المسرحية من دراساته الفنية ومن تأملاته في المحاولات المسرحية الشعبية على مر التاريخ وهذا هو المسرح الحقيقي لانه يعبر كما يقول د. ابراهيم عابدين عن المشاكل والهموم التي تشغل كاهل الانسان .

ومسرحية الفلاح عبد المطيع هي صورة لوضعية الانسان في القرن العشرين والذي يعيش تحت ضغط خوف سلطوي ومع ذلك فهو يعيش متأملا عذاباته ويسكت كل الاصوات التي بداخله الا صوت واحد هو صوت ذاته والذي يشعره بانه مازال منتميا الى جنس البشر الا ان هذا البريق الصغير المتصاعد من داخل ذاته وهذه الاصوات الصغيرة المتصاعدة ايضا من جوف الكبت والقمع والارهاب والمعاناة الملازمة للانسان والنداءات المستمرة اللاواعية والتي احيانا تنسلخ من اللاوعي الى لغة الوعي .

كل هذه العالم تحتاج في نظر السيد حافظ الى من ينظمها ويأخذ بيدها ومن يحدد لها طريق الخلاص وطريق الحرية .

لان الشمس لابد لها من ظل والنهار لابد له من ليل .

فعبد المطيع ــ لاحظ دلالة الاسم ــ يعيش في زمن كان الانسان مفقودا القيمة ــ يهان وعبد المطيع فلاح فقير اجير عيناه مسجدان ويداه صلبتان في صلابة صخر النيل ص٥ كانت اهتمامات عبد المطيع تنحصر في انه يزرع القمح ويحصد الحب ويوزع الابتسامة ويشتري زقزقة العصافير بأغاني الحصاد .. ويغني لاطفاله كل

مساء وينام وهو متعب بجوار عتبة الباب لأن غرفته صغيرة لا تتسع لعشرة أفراد ص٦ .. لقد نهبت مماليك السلطة كل شيء .. والمدينة أصبحت عاطلة عن العمل لذلك لم يخرج عبدالمطيع لمدة يومين الى السوق.. وبعد يومين ذهب الى السوق كالعادة وجد ان الناس في السوق يرتدون السواد في كل شيء لقد ظن في داخل نفسه عندما قابل اصدقاءه في السوق وهم (يرتدون الملابس السوداء) أن كل منهم حدثت له حادثة ما جعلته يرتدي ملابسه السوداء .. فعبد المطيع يعلم انه يعيش زمن عصر الارانب ص٢١ .. لقد كان عبد المطيع لا يعرف عن العالم الا الفاس والعمل لم يجلس مع السلطان ـ لم يجلس في الديوان الا مرة في شهر رمضان وقالوا له صفق لكل شيء تسمعه .. لم يدخل كتابا ليتعلم القراءة لأن القراءة تجلب المتاعب وتتعب العقل وينبهنا السيد حافظ ان الحدث ليس محددا بحكاية عبد المطيع ليخدم اسقاطه السياسي والاجتماعي وذلك على لسان الراوي ص٢٠ عندما يقول :ـ

الراوي : العاقل من يفهم أن اسم بطلنا ليس في سجلات التاريخ السلطاني او الملوكي وشجرة العائلة ليست مسجلة في كتب التاريخ ولا تدرس حياته في المدارس ص٢٠ ويمضي عبد المطيع في رحلة حياته اليومية القاسية الى السوق ليشتري الفول للأطفال والشعير للحمار ويجد ان الملابس السوداء يرتديها كل البائعين والجوالين في السوق الى ان يقابل صديقه حمد ليدور حوار ذكي يعبر عن الهموم الانسانية ..

والسيد حافظ معروف عنه انه يملك قدرة فائقة عودنا عليها في مسرحه ـ على الاستمرار في الحوار الحر مع القضايا التي تشغل كاهل الانسان المعاصر والتي تنحصر الى حد ما في الحرية والوعي والعدل والمساواة والديمقراطية وهذه كما قلت قضايا جذرية لا يستطيع الانسان ان يتخلى عنها .

(يسمع عبد المطيع نهيق الحمار) لاحظ دلالة هذا الرمز :

عبد المطيع : حماري يا سيدنا منذ امس لم ياكل .

حمـــد : اتعذب الحيوان ؟

عبد المطيع : لماذا تحزن على الحيوان والانسان في كل لحظة يموت .. من المسؤول عنه ؟ اذا كان الحيوان جائعا فما رايك بالانسان الجائع .

حمـــد : يا بني الحيوان مخلوق اخرس .

عبد المطيع : والانسان ايضا حيوان اخرس اذا نطق .

حمـــد : يا بني انت تكفر بنعمة السمع والنطق والبصر .

عبد المطيع : انا لا اكفر يا مولانا لكن العين بصيرة واليد قصيرة .

ويعلم عبد المطيع من صديقه انه لابد وان يصبغ كل شيء لديه باللون الاسود .. وقبل ان يقول له لماذا : تجيء الشرطة الى السوق ويتم القبض على عبد المطيع وحماره لعدم ارتدائه الملابس السوداء وعدم دهان حماره باللون الاسود ولم يكن يعلم عبد المطيع ان عين قنصوه الغوري مريضة لقد ترك كل الناس عبد المطيع في السوق وذهبوا بعيدا عنه .. لم يكن يعلم عبد المطيع ان كل القاهرة نفذت الاوامر الا هو .. لقد نامت احزانه الفرعونية واحلامه العربية على وسادته في اليومين الذين لم يخرج فيهما ص٣١ .

لقد كان يحلم عبد المطيع دائما مثل جده الاكبر بالطيور (لاحظ هذا الاسقاط) وسأل المفسرين على معنى الطير في الاحلام فقال له البعض انها الهجرة وقال البعض انها الحرية وكان في نظر بعض الناس خيرا وفي نظر رجال السلطة شرا ص٣١ .

وكان يكره الاهرامات لانها قتلت جده ولم يكن يدري انها رمز العبودية .. كان يكره ولا يعرف ان هذا العصر منحني القامة — مقهور

المعاني ــ مندس بين اصابع المهانة . ذهب عبد المطيع الى رئيس الشرطة والذي اعتبر عدم علم عبد المطيع وتغيير لباسه باللون الاسود جريمة وهو تحدي للسلطان ولرئيس الشرطة في نفس الوقت ص٣٧ واعتبر ذلك ايضا دعوة للثورة وزعيما لحركة مناهضة وذلك الموقف يذكرني بعبارة الكاتب المسرحي الراحل نجيب سرور حينما قال عن السلطة (ان لم يضعوك في خانه وضعوك في تهمة الخيانة واذا لم يتهموك بأنك يميني فانت يساري ولا تدري) وهكذا صنف عبد المطيع رغم انه بحكم عواطفه وعذاباته اليومية في السعي نحو الحصول على الفول والذرة لا يدري عن امور الدولة اي شيء .. سوى انه كان يفهم جيدا انه لابد وان يبتعد عن السير والتعرض للشرطة فهذا بالنسبة له انتصار يومي .. فقد ماتت كل الحقائق وكل التطلعات الدنيوية في داخل عبد المطيع لان السلطة استطاعت ان تحصر تفكيره حتى لا يفكر هو وامثاله في شؤون السياسة فالسلطة عند عبد المطيع هي السلطة في اي وضع دكتاتوري .. فقد كانت تدع هي الاخرى الشعب العبارة المزيفة (دع السياسة للسياسيين) لذلك ساعدت في تضخيم معاناة عبد المطيع فانصبت اهتماماته ومعاناته الاساسية نحو الحصول على الفول لاطفاله العشر والشعير لحماره وهذا يتطلب منه ان يعمل ليلا نهارا .

وكانت نتيجة هذا التصنيف ان وضع في السجن وحكم عليه بخمسين جلدة كل صباح ومساء لمدة اسبوع هو وحماره ص٤٢ وحتى ذلك الوقت لم يكن يدري لماذا وضع في السجن الى ان تم الافراج عنه ويومها عرف من الحارس أن عين السلطان مصابة وكان ينبغي ان يلبس السواد .

لقد خرج عبد المطيع من السجن ليصبغ كل شيء في حياته باللون الاسود .. البيت والملابس والجدران ــ الشجر الذي امام المنزل ــ حتى الحمار دهنه باللون الاسود وعاش عبد المطيع في غيبوبة القهر والحرمان والمرض الذي لحق به في السجن .

في هذه الفترة كانت عين السلطان قد شفيت والافراح في كل مكان في المدينة ـ فاذا شفيت عين السلطان تقام الافراح والزينات واذا مرضت عين السلطان تمرض الاطفال والنساء والرجال والحيوانات فهكذا الحال في مدينة عبد المطيع وفي المدن المشابهة لمدينة عبد المطيع وفي يوم عيد شفاء السلطان الذي لم يدري به عبد المطيع خرج مع حماره الى السوق بملابسه السوداء لتقابله الشرطة مرة اخرى وتأخذه الى رئيس الشرطة .. لم يكن عبد المطيع يجيد لغة النفاق والتملق ويطرح السيد حافظ قضية اساسية عندما يتساءل على لسان الجوقة من يحمل هموم عبد المطيع : النجمة ! ام البحر! ام السيف! ام الزهور! فكل الايام مطعونة والشريف مطعون.. فهذا زمن رديء .. هذا زمن الجنون .. اين التاريخ لينزل من عليائه ليرى الشوارع .. ليرى ماذا يفعل الملوك والسلاطين بالشعوب ص٥١ وهنا نرى أن التأملات الفلسفية في مسرح السيد حافظ انما هي في الحقيقة تنبثق عن اهتمام حس تجريبي بوسائله الخاصة ومنهجه في الابداع الفني.

وحينما يذهب عبد المطيع لرئيس الشرطة نجد الموقف المأساوي الضاحك يلاحظ عبد المطيع ان رئيس الشرطة ينظر لثيابه ويقول له عبد المطيع .

عبد المطيع : نعم صبغت كل شيء باللون الاسود .. القميص والسروال
والاولاد والجدران والحمار .. الكل باللون الاسود ..
حتى جلدي دهنته باللون الاسود .. هذا اول يوم اخرج
فيه الى السوق وارجوك ان تخبر السلطان اني حزين
وزوجتي واولادي وحماري ايضا ص٦٠ .

وها هي الطاعة العمياء للفلاح عبد المطيع الذي اطاع كل شيء ولون كل شيء في حياته باللون الاسود في ظل الخوف وفي ظل الضرب والسجن والفقر والمرض .. فالسلطة تستطيع ان تجبر أي فكر يقف امامها بالطاعة .. فالوسائل عديدة .

ويعاقب عبد المطيع على فعل ذلك لعدم ارتدائه الملابس البيضاء هو وحماره بـ ٧ ايام في السجن و يخرج عبد المطيع من السجن في اليوم السابع وقد انبثقت الكآبة في قلب الفلاح عبد المطيع نتيجة لحالات الاحباط التي فرضت نفسها عليه دون استئذان ونتيجة لذلك يفلسف عبد المطيع لنفسه موقفا ورد فعله يدعونا الى ان نتجاوب معه ونحترمه في نفس الوقت .. لقد خلع عبد المطيع كل ملابسه للوالي وقال له : اي الالوان تحبونها الاحمر ؟ ام الاخضر ؟ ام الاصفر ؟ ام الاسود ؟ ام الابيض يا ولاد الكلب ص٦١ . ووصل الامر الى السلطان قنصوه الغوري (رمز السلطة) .

واعجب الغوري بقضية عبد المطيع وقال له تم تعيينك قاضي القضاة لكن عبد المطيع يقرر انه لايريد ان يكون قاضي القضاة بل يريد ان يكون عاري من العراة وتنتهي المسرحية على ذلك المشهد العظيم الذي يعطينا نوعا من الكوميديا السوداء .. ويعطينا ايضا دروسا في الفكر السياسي والاجتماعي .. ويقوي فينا لغة الادراك ولغة التصدي .

فعبد المطيع هنا اراد ان يكون عاريا من تصنيفات السلطة .. اتخذ موقف العري من خلال وعي اللحظة التي عاشها .. لقد خلع كل ملابسه الشكلية والتي تحاول السلطة دائما ان تسيطر عليها حتى تطمئن في قرارة نفسها بالاستقرار .

فالسلطة في اي زمان وفي اي مكان تستطيع ان تسيطر على الاشكال والصور التي يمارسها الشعب لكنها تقف حائرة دائما امام الرغبات الكامنة في داخل الشعوب ، طالما هناك ارادة ووعي نحو اتجاه السلطة .. طالما نتج عن ذلك كبح جماح السلطة ، وعبد المطيع في المشهد الاخير يعلن موقف التحدي والصمود رغم انه يعلم انه يواجه حافة الهاوية الا انه في هذه اللحظة كان يجمع فيداخله التحدي والتصدي والمواجهة ، فعبدالمطيع يحتاج الى الحرية لكي يتحقق له المستقبل . فمأساة عبد المطيع تكمن في رفضه المطلق للعنف المبني على الارهاب ــ المتنصل من مسؤولية الحلم بالمستقبل نفسه .

والسيد حافظ يرمز بعبد المطيع على انه رمز لجيل عاجز وعتيق ــ لكنه جيل تواق الى العدل والحرية ولا يعرف سبيل الحق اليهما ابدا .

والرموز عند السيد حافظ في هذه المسرحية تصل بين عالمين من عوالم الافكار والاحاسيس في عالم الحياة اليومية فقديما قال نيتشه ان المشاكل الكبرى توجد في الشارع .

لذلك نجد ان الموضوعات التي تشغل فكر حافظ هي المشاكل المصرية المتصلة بحياة الانسان اليومية عكس ، كما قلت سابقا ، بعض الكتاب امثال د. فوزي فهمي المغرم بالكتابة عن ميتافيزيقيا الموضوعات .

ولغة الحوار في مسرحية عبد المطيع هي اقرب الى لغة التنوير والايضاح وهذه المسرحية تتمتع بشفافية الحوار المثقف الواعي .. وهي مسرحية تتمتع بلغة الخلاص .. بلغة الفكر وهذا ما يؤكده الناقد فتحي العشري عندما قال عن مسرح حافظ إنه يقدم فكرا اكثر منه فنا . وهكذا يؤكد السيد حافظ بهذا العمل الخلاق انه ليس بمعزل عن عقلية رجل الشارع لانه يستلهم موضوعاته من قضايا الناس المعاصرة ومن مشاكلهم الملحة ويقوم بعلاجها في اطار من التراث الشعبي المألوف لدى الجميع .

وبعد هذا العرض البسيط الذي قدمته عن مسرح السيد حافظ وعن مسرحيته الفلاح عبد المطيع نكتشف ان قضايا مسرح السيد حافظ هي قضايا الحياة لذلك فمسرحه يعيش من خلال الشكل والتعبير كما قلت سابقا . وهذا ما يجعلني اقول للمسرحيين في الساحة العربية انتبهوا فبينكم خلاق ومبدع وكما قال د. ابراهيم عابدين ملك كل الادوات التي تؤهله لان يكون كاتبا عالميا عربيا .

اعطوا لهذا الكاتب الحب .. اعطوه النقد البناء .. اعطوه الامان تمسكوا به لكي يعطيكم أكثر فاكثر .. فقديما كانت انجلترا على استعداد أن تتنازل عن مستعمراتها في الهند ولاتتنازل عن شاعرها وليم شكسبير لكننا في الوطن العربي نتنازل عن المبدعين والمفكرين ونتنازل على أن نرعاهم ونعطيهم الاخلاص .

لكن أريد ان اقول متى نستيقظ من غفلتنا هذه ؟ واذا قلنا ان الشلليات الثقافية والفنية في مصر جعلت الحركة الثقافية والفنية راكدة فهل اقول ان العدوى انتقلت الى تونس والمغرب والجزائر والعراق والكويت واليمن وليبيا؟

هذا الكاتب بحق رائدا في المسرح التجريبي العربي وان كنت لاابالغ اذا قلت انه من اوائل المبدعين في مسرحنا العربي . فالمسرح العربي مليء بابداعات حقيقية تحتاج منا ان تقف معه وقفة صحيحة حتى ننطلق بالمسرح العربي الى افاق واسعة ففي مصر يوجد المبدع العربي السيد حافظ وفي العراق يوجد المبدعين يوسف العاني وقاسم محمد وفي سوريا يوجد المبدع سعد الله ونوس وفي الجزائر يوجد المبدعين كاتب ياسين وولد عبد الرحمن كاكي وفي المغرب يوجد عبد الكريم بريشيد والطيب الصديقي وعز الدين المدني في تونس وروجيه عساف في لبنان . ان اعمال هؤلاء المبدعين تعتبر وثائق هامة في المسرح العربي فلو كانت ابداعات هؤلاء الكتاب في اوربا لاهتزت لهم الساحات الفنية العربية اكثر من الساحات الفنية العالمية .

انني اطالب ان تتحرك الاجهزة العربية الفنية والثقافية في ان تحتضن هؤلاء الكتاب المبدعين وان يكون هناك نوع من التكريم الحقيقي سنويا لهم وان يكون هناك لجنة تشكل للمحافظة على جمع تراثهم النادر والذي لا تقل اهميته عن ابداعات يونسكو وبيكيت .. يجب ايضا ان يكون هناك لقاء دوري بينهم .. فكم قتلت أجهزتنا العربية الفنية والثقافية كثيرا من المبدعين فكفانا قتلا للمواهب المبدعة في الساحة العربية بالتجاهل والنقد غير البناء فلم يعد لدينا ايها المسرحيون العرب الا القليل القليل من المبدعين الحقيقيين في مجال المسرح العربي .. انني اتمنى ان يتبنى اي جهاز ثقافي اعلامي عربي هذه الفكرة لانها ستكون خطوة نحو مستقبل المسرح العربي .

في النهاية اريد ان اقول ان السيد حافظ مدرسة مسرحية لها كيانها الخاص وسوف يصبح مسرحه في المستقبل تراثا مسرحيا نادرا لانه ينتمي للمسرح الجاد .. المسرح المتطور وسوف يشعر به ا[illegible] الاجيال القاد[illegible] الاكثر عطاءا والاكثر طموحا .. فأفكاره المسرحية ستظل دائما في قمة الخصوبة وفي قمة العطاء .